الآلهةُ الخرقاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1441 هـ - 2019 م
ردمك 3 -529-79-9947-978 : (ISBN)

التوزيع الدولي: مصر-لبنان-الأردن-العراق-السودان
اسم العمل: الآلهةُ الخرقاء
اسم المؤلف: بلال سرير الحيرتسِي
تصميم الغلاف: سمير محرز
المدير العام / سميرة منصوري
اخراج: أحمد منصوري

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 75 65 85 033 / 50 28 76 0666

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

بلال سرير الحيرتسي

الألعنة الخرقاء

الحُب والأشقياء

رواية

المثقف
للنشر والتوزيع

الإهـــــداء

إلى كل الأموات الذين هم أحياء بما قدّموا

وإلى كلّ الأحياء الذين رفضوا العيش أمواتا

إلى الذين لهم قلوب يبصرون بها

وليس إلى الذين لهم مضخة دم

تجهّم الزّمنُ واضطربت آياته داخل القاعةِ المكفهرّة والمعاكسة للجحيمِ الهادئ و المبجّل بومضة من الجنّة المرئية الحسناء، فلا أنا الدّاري كيف دخلت القاعة ! ولا أنا الذّاكر لليل الفجر القريب، ولا أنا الشّارب من رحمة البشر الصّالحين وما أنا بالصّالح الخاشع لربّه، وبين التأوّه و التّنهدات الأعمق كنتُ أعانق الحزام النّاسف الذي أحببته حُبّاً جمّا فأذعنت له الرّوح الشّقية التّائهة بين الحبّ والكره، والحقد والعفو، والحرب والسّلام، وهناك في ذلك البرزخ العجيب! أبصرت تلك الحورية البشرية الصّفية صفاء، وأبصرت أحزان شارع السّعادة أين جاء الموتُ العجوزَ الجائعة المحدودبة الظّهر وهي قبالة مطعم الكرم، وتذكّرت ذلك الفتى الذي قُتِل وبيعت أعضاءه في شارع السّعادة، وقد كنّا نذهب معاً لنشاهد المسرح في شاشة مقهى الرّحمة فنُطرَد ونُخرَج مثل الشّيطان إذ تُتلى عليه الآيات فيندحر مذؤوما مدحورا، أوه...يا للسّفاهة، فما كنت الرّائي صِراط الخروج من ذلك الجحيم وما كنتُ الآمل في الجنّة، و بين الأوهام الخائرة الوضوحِ و الحقائق السّاخرة جاءتني أشباح الزّمن الأليم القذر فرأيت الأقدار المقدّسة تتجلّى في هيئة الكاهن الذي أقسم على أنّ الحياة ستكون أكثر تقديساً للحزن في شارع السّعادة، وأيّ حظّ هذا الذي أتى بالحورية البشرية إلى القاعة؟ وأي رحمة جاءت بها؟ جاءت و انتشلت الرّوح والجسد من الغرق في ظلمة العالم الآخر وعادت بهما إلى نور الحياة، جذبتهم من الجحيم المغلوب

بالبؤس وصرخات الأحياء الذين يعيشون حياة الموتى، كانت مثل التّعويذة للرّوح الملعونة وكنتُ مثل اللّعنة الطّائفة بالبحر فانحدرت به إلى الصّحاري المقفّرة لتنبت به الحبّ الأشقى، فلم تُنبت به إلّا الشّر وقربت على أن تُنبت مزارع البؤس وتجعل البشر الجالسين داخل القاعة أشلاء والآخرين صرعى، أويلي لتلك الومضة، أويلي للحورية البشرية، أويلي ويلي للومضة الحاملة للآلة وتلتقط صور الوزير الذي وقف له الجمع حين دخل القاعة وصفّق له الكلُّ وكلَّت في انتظاره الكلاكل فقلقل القلب البائس حقده، أويلي حين رأتني وابتسمت بشفاه رقيقة فاتّسمت بالملائكية فتسمّمت بالحب والحسن، وكنت أكِنّ الهيام وتائها فيه، أويلي ويلي ! كانت صفاء نوراً في زجاجة نشرت سعادة على حياة بائس وطردت اللعنة إلى القلعة الوحشية المظلمة، كأنّها تتحدّى النّجوم في خلق اللّمع وبريق السّماء الواسع في ليلٍ بدرُه كاملُ، برقت عيناها فأرسلت صفاءَ الحب ونقاء الفؤاد وفي حسنها أنا التّائه الهاملُ، جارت بالودّ الأبيض على ظلمة القلب من أقصى إلى أدنى، فماج القلب وهاج في الهيام الأقصى، أووه...يا للحياة البائسة، وللعشق الضّاري المستوحش إذا لانت أطرافه ، كانت القاعة غائرةً في الهدوءِ والخشوعِ والخنوعِ خاضعةً طائعةً للنّسمات الباردة وكان الوزير يلقي خطبته مثل الورِعِ الخاشع ، وقد هانت عليه قبل ذلك معصية الرّب في الفقراء ، وقد لانت عليه الحروف إذ يتوعّد ثم يحنث ناسياً الوعيد، أويلي ويلي،

رأيتها تحمل الآلة وتصوّره هادئةً فتذكّرت أنّ أبيها قضى الموت عليه قبل يومين وأمّها الواهنة بالسّرطان تغدو نحوه وأناملي تعانق زرّ اللّعنة، فهل أنا بلاحق السّابقين؟

كان يلقي خطبته جاذبة المسامع فأين كان هؤلاء السّامعين حين كنت أصرخ صراخ الهدوء تحت سقيفة البؤس و أصقع؟ هل آخذ هؤلاء الجالسين كلّهم إلى الجحيم؟ كانت التّذكرة تكفينا، أيّ تذكرة؟

ما أقسى البراءة! أتذكّر حين كنت صغيراً عاشقاً لليوم الذي تستفيق فيه الوديان من سباتها فتنهر الأرواح نهرا ثم تحصدها حصدا، إنّ الزّلازل المزعزعة للمساكن والمساكين كانت المتعة والنّعمة العذبة التي أتنعّم بها، كنت صغيراً أرتع في أطراف حواجب النّهر وأنا أركض خلف الفراشات الجميلة الفاتنة حالماً بأن أصبح طبيباً حين أكبر، يا له من مسكين ! كان يحلم بأن يصبح طبيباً، وحين كبُر ! أصبح مريضا مغلوباً عليه.

كنت صغيراً أعشق الحياة والتّمرّد على قوانين الوجوم، كنت طفلاً يأبى أن يضع البؤس تجاعيد الشّقاء على وجهه الأسمر أو أن يجعل الحزن مكاناً على جبينه، إلا أنّ الفتى كان يستمتع برؤية النّاس وهم يتأوّهون بين دفّتي الحزن والشّقاء، أو حين يأتيهم الهلع من كلّ مكان، يهيم في روعة شقائق النعمان وفتنة الفراشات الجميلة وإذا استيقظ الذّعر يساعد في إفزاع الآخرين، يراوغ الملائكة والشّياطين فيدعو لمجيء النّعم ولكنّه يهوى طغيان النّقم، حنون يعشق حضن أمّه المملوء بالدّفء

والأمان، وفي نفس الوقت يتمنّى استفاقة الأعاصير وتعكير صفو الهدوء المنتشر من أجل إظهار شجاعته.

لا أريد رؤية دموع أمّي تنسكب لأنّها أدركت أنّنا سننام من غير عشاء، أو أن تذرف دموعها لأنّ أبي لم يتمكّن من شراء الدّواء للقضاء على داء ساء أمره أو تحسين حياة منزل جار دهره، أو لأنّ أفكارها اضطربت في كيفية إنفاق المنحة المدرسية التي أعطيت لأختي الوحيدة عفاف الطّالبة للعلم في الثّانوية، هل تنفق المنحة في شراء مستلزمات عفاف وأدواتها المدرسية؟ أو تشتري لها ثوبا بدل الأقلام والكتب؟ أو تبتاع لنا المؤونة في غياب أبي المغترب في ولاية بعيدة.

اغترب بعد أن اقترب إلى العجز، يا له من مسكين حين ابيضّ شعره اسودّت أيّامه، لم تكن أمّي تفكّر في تغيير سحنتها، وقد كان ظهرها يحدودب يوما بعد يوم، وشهر خلف شهر، وسنة وراء سنة، كانت تهتم بالتّفكير في زوجها المغترب وابنتها عفاف وأنا، كلّما أردت الخروج لألعب تحذّرني من الابتعاد عن المنزل قائلة: " لا تبتعد يا عثمان، ولا تركب في أي سيارة، إنّي أخاف أن تذهب بنفسك فيأكلك الذّئب أو أن يختطفوك منّي فأحزن"

وألماه...! ماذا لو رأتني أمّي يومَ ركِبتُ الحزامَ النّاسف بدل السيّارة؟ تنصح عفاف وترشدها إلى عدم مخالطة الشّباب في الثّانوية وأن لا تسلك طريقا آخرا غريبا عند العودة، عجز ظهرها المحدودب وفشل في

أن يقنع أي جرم من كوني أنّ أمّي فيها ذرّة قبح، أرى جسدها المقوّس مثل قمر في ليلة الدّجى لكنّه لم يكن يكتمل، بل كان ينتهي، تقدّمت في النّحول حتّى صارت مثل هلال متجهّم أخفته سحنة حزن، هلال تخلّى عنه الكون وهو يصارع خوالف النوائب ومخالب المصائب في سماءٍ مظلمة.

مع كل إشراقة ترتفع أصوات الصّبية وهم يخرجون من بيوت القصدير ليلعبوا فأهرول إليهم، نقضي صدر اليوم أسفل الجبل العالي الذي تنام تحته القرية التي نسكن، إنّه جبل أخضر يرسل هواءه إلينا جوادا عطوفا، وأحيانا نصعد حتّى نبلغ الطّريق الذي يشقّ الجبل إلى نصفين فنرى القرية في الأسفل، نحمل الحجارة ونتحدّى بعضنا البعض في إصابة أي بيت ولأنّ جلّ منازل القرية كانت من القصدير فمن الممكن أن نسمع القرع حين يفزع المحتمين تحته فيضجرون.

كنتُ أفرح إذا جاءتنا دعوة إلى عرس أقيم في القرية وكنت أحب الأعراس حبّاً جمّا لأنّه بإمكاني أن أرى هناك أمّي بين النّساء وهي تبتسم، لا شيء كاذب أكثر من ابتسامة بائس، كنت مغرما بابتسامة أمّي.

رغم الوجوم الذي كان يبعثر أوراقه على الحياة الجافّة داخل بيتنا القصديري المبنيةُ جدرانه من الطّوب إلا أنّه كان بيني وبين الحزن نفور جم، لا أحزن إذا قيل لي أنّ أحدهم نزعوا قلبه وعصروه فسال الدم ولعقه الكلب، أو أنّ شاحنة ضخمة ابتلعت سيارة صغيرة بداخلها زوج وزوجته في أوّل أيّام عرسهم، كنت مفتوناً بغناء الطّيور إذا غرّدت فوق

الأغصان المترنّحة، وبرونق الرّبيع حين يصبح بأزهاره المبجّلة عاشقا للأمسية الهادئة، وبالليل الذي امتطى الهدوء وحاكى الآناء حتّى أبلج الصّبح، تروق لي الفراشة الرّاقصة على شفاه الشّقائق ونسيم الصّبا السّاحر وأُفتن بها إذا بادلت الأزهار القبل، كنت مثل الجراد الذي يطوف بالشّجرة فيعرّيها من أوراقها.

الحمامة البيضاء التي أطلق سراحها للتّعبير عن الحرّية تمنّيت أن تزور قفصي، إذا دخلَته لن تخرج منه إلّا على غفلة منّي أو رحمة أصابتها، هل تلك هي سنّ البراءة؟ أظنّ أنّني كنت مجرما حقّا! استعمر عقلي نوعٌ من الغرابة والعجب، فذات صباح زجرني أبي لأنّه استغرب منّي وتعجّب حين رآني أحادث القط وأراقصه، أغرقه في دلو الماء ثم أنجده، كثيراً ما زيّنت أنفه بالورود ليرى أصدقائي أنّ قطّي هو الأجمل، اصطنعت الحماقة من العدم.

ذات يوم كنت أجالس الجرو الصّغير محاولاً أن أصنع الألفة بينه وبين القط لأنّهما كانا يكشّرا لبعضهما، فأفزع كياني صوتٌ جاء من الخلف فاستدرت فرأيت جارنا يقهقه لأنّه رأى من الحماقة ما تألّف بين الغباوة و الخبل، فجأة تحولت ضحكته إلى ابتسامة جميلة تعبّر عن صدق مشاعره الكاذبة، يا له من كاذب! لقد خلى إلى أبي وقصّ عليه القصّة وقال أنّه وجدني أقبّل الجرو، ثم تكهّن وأنبأ أبي أنّ ولده سيتعرّض للجنون.

كنت صغيراً حين أدركت أنّ ليس كل ابتسامة صدقة بل يوجد من البشر من ابتسامتهم ذنب، لقد اتّهموني بالجنون و هم يقولون أنّني ملاك صغير، هل يعقل أن يكون الملاك مجنوناً؟ كذبوا على الفتى فحوّلوه إلى سلاح ذو وجهين، وجه سطحي يرى ما يرون، ووجه عميق يرى ما لا يرون، وخلقوا له التّناقض بين ما يرى ويسمع فأفقدوه التّحليل، هل يتعلّم ممّا يقولون، أو ممّا يفعلون؟

نشأت مثل جوهرة صبغتها الصّفرة، مثل ماسة استطاعوا أن يقنعوها أنّ اللّمعان خطر، وأنّ الشّمس المخفية خلف ستار الكذب هي الحقيقة التي يبحث عنها الجميع، وأقنعوه أنّ كلّ الباحثين عن الشّمس أغبياء لأنّهم لا يدركون الخطر الذي يتربّص بهم في الأفق، أقنعوه أنّ النّور الذي يبحث عنه الصّالحون هو نفسه الجحيم الذي يحرق جلودهم إذا لامسوه، فجعلوا الفتى مقتنعاً أنّ اليأس أرقى من الأمل، وأنّ البؤس الأسود رفيق مخلص لا يخون فلا داعي للبحث عن بؤس آخر، فرضى المسكين أن يعيش في عمق الظّلام وأن يستمتع بالقرح في عرس الشّقاء، وأن يبتسم كاذباً في بلاط التّعساء، فشبّ الفتى مقيّداً بعقيدة منكسرة لا يثق في البشر ولا حتّى في الظّل الذي يتبعه.

لقد كنت قلعة يملؤها الشر فاقداً التّمييز بين الحزن والسّعادة، فلو وضعوا عند قدمي النّعش ورفعوا الكفن عن وجه ميّت وطلبوا منّي تقبيله لأنّه ذاهب إلى عالم آخر وأنّه لن يعود لربّما صفعت الجثّة وطلبت

منها أن تقف قبل أن أقتلها، إذا ذهبت إلى العرس أتلذّذ بالوليمة وإذا ذهبت إلى الجنازة أتلذّذ بالوضيمة، لم أكن أرى فرقا بين الأعراس والجنائز سوى أنّ الجنائز ينعدم فيها الغناء والرّقص.

وفي إحدى الليالي الحالكة، سلب الموت روحَ عجوزٍ تسكن في القرية التي نقطنها، فخرجت أمّي من المنزل في أواخر الليل ولمّا طلعت الشّمس عادت إلى المنزل بوجه مكفهر عابس، ولكنّني قضيت ذلك اليوم كلّه ألعب وكان يوما رائعا، اصطدت فيه أحلى الفراشات وتجوّلت في الغابة المدهامّة وصنعت أحلى باقات الزّهور، وحين بلغت الشّمس مغربها، دخلت المنزل فألفيت أمّي سوداء اللون والمآقي ترسم خط التّعاسة على وجنتيها، وقفت لدى الباب أراها فابتسمت لي فاقتربت منها وأهديتها ضمّة حنان وضمّة زهور فسكبت أمّي دمعتين، حين سألتها عن سبب بكائها وقد كانت تحمل باقة الورد التي أهديتها، قالت أنّ والدتها ماتت، لم أحزن معها، وقبل أن تشتاق القرية للموت عاد لزيارتها بلا موعد، تحجّبت أمي بسواد الحجاب وذهبت إلى التّعزية وحين بلغنا المأتم سمحت لي بالبقاء خارجا مع الصّبيان.

رغم الرّبيع الذي كسى القرية إلى أنّه كان يوما قاتم جميع البشر كانوا يرتدون الأسود، إلّا أنا كنت أرتدي قميصا فاتحا وسروالا أصفر مع صندلة عجيبة، حين رأيت الصّبية يركضون خلف بعضهم البعض وهم يلعبون وينسلخون من جلود الحزن مستترين بسعادة وسرور،

راقت لي المناسبة فاقتربت من شابّ رأيته يجلس خلف المنزل وقد أسند ظهره إلى الجدار وسألته:

- أي مناسبة تُقام في بيتكم؟

- لقد مات أبي وأمّي.

غريب أمر ذلك الزّمن، حاولت أن أحزن وما لبثت حتّى وجدت نفسي أركض مع الصّبية فرحا مسرورا، كنت أعشق الأكل ولو تشكّلت الشّراهة في هيئة بشر لكانت أنا، كنت نحيلا في تلك الثياب فتمنّت أمّي أن أسمن، حين دخلت منزل المأتم وجدت نساءً يندبن وجوههن وينحبن، يزدرد بعضهنّ اللّقمة بألم وكأنّهنّ يمضغن الجمر، وبعضهن يجلسن مثل جثث هجرتها الأرواح، أمّا أنا أكلت بشراهة حتّى التّخمة، ولمّا جاء دور الوقاحة لم أبخل المأتم بها، رفعت القميص الواسع وأظهرت البطن المنتفخ لبعض العجائز وقلت لهن: "أنظرن إلى بطني كم هو كبير!" يا للسّفاهة! هل حقّا تلك هي سنّ البراءة؟ لقد كنت مجرماً حقّا.

بعد مرور شهور عن الجنائز التي كانت شبه متتالية وقد كنت بلغت السّابعة من عمري آنذاك ذهبنا جميعا إلى عرس أقيم في القرية، حتّى أبي جاء من العاصمة بعد انقضاء أكثر من ثلاث شهور على وفاة جدّتي وذهب معنا، تسلّلت للمرّة الثانية بين الزوّار ودخلت العرصة حيث رأيت الفتيات يرقصن على غناء العجائز، ورأيت شابّاً يرتدي معطفاً من الجلد وقد كان يختلس نظرات خبيثة من خلف الباب المشقوق،

إذا انتبه له أحدهم يتظاهر أنّه يصلح في مفصّلات الباب أو أنّه يتأمّل شيئا لا يراه إلّا هو، تأملت فيه كثيراً فتعلّمت وأدركت الخبث والإبليسية معا، قبل ذلك سألت نفسي عمّا يفعله؟ لماذا ينظر إليهم هكذا؟ هل يفكّر في السّرقة؟ لماذا لا يدخل إليهن؟ إنّه شاب ضخم ولا يستطعن طرده مثلما فعلوا بي قبل قليل لأنّني رميت الراقصة بالماء البارد، ولكنّه لم يفعل! كأنّ الدّخول إلى القاعة ممنوع عليه! دخلت إلى الفسحة حيث النّساء يرقصن وكان الشاب يسترق النّظر من الخفاء، بينما كان يشدّ طرفا من الباب ويرى الرّاقصات إذ بي أفتح الباب وأطلب منه الدّخول إلى القاعة والتّوقف عن النّظر إليهن هكذا.

انتبهت له النسوة بعد أن أفزعتهن الباب التي فتحت فجأة فعرفوه، أظنّ أنّه كان مشهورا بخبثه، امتلأ بالخجل وانسحب مذموما بعد أن قذفني باللّقيط ابن المومس وهدّدني بالقتل، حين سمعت بعض الفتيات يقلن أنّه يدرس معهن في الجامعة تذكّرت أبي حين قال "سوف تكبر وتدخل المدرسة، ثم تتخرّج من الجامعة بعد أن تصبح من المتعلّمين، وبعدها ستكون مهذّباً مؤدّباً و خلوقا"، وقال لي أنّه "كلّما ازداد الإنسانُ علما ازداد أخلاقا" حين رأيت ذلك الشّاب فقدت التّحليل، هل أبي كان كاذباً أو ماذا؟ كنت في السابعة من عمري وكنت تائها بين ما رأته عيني وما سمعته مسامعي، ولم أدرك أين العلّة.

انتظرت أعواما طوالا وأنا أبحث عن الأسباب التي جعلت أفكاري سلعة كاسدة، وفي تلك السّنوات لم أكن أتمنّى أن أصبح قاتلاً، أو أن أصبح عدوّا للوزير متمرّداً على كلّ القوانين، حتّى الإنسانية اقتنعت أنّها شيء وهمي، وقد كانت تلك القناعة أيضاً وهمية.

كنت مثل محارب دخل الوغى بسيفه الصّارم وفصل رؤوسا عن أجسادها وزعزع أرواحا قبل أن تغادر جثثها، ورقصت حوافر الخيل به رقصة العظماء في أرض فجّرت عجاجها، وراح بين الغوغاء مكشّراً بسواد الوجه بعد أن قضى على الجيوش وأنزل راياتها، ثم استفاق المسكين من نومه وألفى نفسه داخل زنزانة قذرة مقيّداً بسلسلة طويلٌ ذرعها، ثم أدرك أنّه خسر الحرب وأنّ تلك الرّؤوس والأرواح التي فصلها عن أوردة الحياة وتلك الرّايات التي أنزلها لم تكن إلّا أضغاث أحلام، قيل لي أنّ الدّنيا استقبلتني في كوخ من خشب وقصب، وآخرون قالوا أنّ منزلنا تدبّج منذ أن جئت أنا إلى الدّنيا، فغيّر أبي القصب وجعل مكانه القصدير، لم تتعب القابلة في انتشال جثّتي الحيّة من رحم أمّي، ولم تكرمني الحياة وما جادت باستقبالي استقبالا في مستشفى بين أيادي ملساء ترتدي قفّازات أملس، كأنّني أتيت إلى الدّنيا وخرجت من بطن أمّي كي يتوقف الألم عن هذه الأخيرة.

أوه لأبي...كان رائعا ويا ليته بقي كذلك، لم تكن الابتسامة تفارق وجهه الذي شقّقته التّجاعيد، كان يذهب إلى العمل في العاصمة ويغيب شهورا ثم يعود إلينا بشوش الوجه ضاحكا فرحا مسرورا، كنت أبتسم بمجرّد أن يبتسم، وإذا تناول عصيراً أشعر بحلاوته، كان الرّوح وأنا الجسد، حين يفرح أفرح، حين يقرح لا أقرح لأنّني لم أكن قد تعرّفت على ذلك الشّعور، وحين يغيب تغيب الرّوح عن الجسد، كان يقرفص في زاوية الغرفة الوحيدة التي ينام فيها هو وزوجته وبنيه، ثم ينادي: "عثمان ابني، تعال"، استجيب للنّداء وأقترب منه فارتمي عليه بقوّة فيمدّد ظهره على الوطاء ويشدد كفّي بكفّيه ويحملني برجليه إلى أعلى ثم يتحوّل إلى أرجوحة، يقطّب حاجبيه ويدّعي أنّه غاضب، يخلق بيني وبينه معركة مزيّفة ثم يسمح لي بأن أكون الأقوى، دوما يجعلني الفائز، دائما يجعلني أتغلّب عليه، يحملني بكفّيه ويرميني في الهواء حتّى يكاد رأسي يصطدم بالسّقف ثم يمسكني كي لا أقع على الأرضية الحرشاء المبلّطة، يشدّ يدي بيديه ثم يقوم بتدويري لمدّة طويلة حتّى أفقد توازني ثم يأمرني بالوقوف ويقول: "تعال عندي أيّها الشّجاع"، أخطو خطوات سكران لا يعلم موضع قدميه ثم أصطدم بالجدار وأنكبّ على وجهي، أترنّح مثل شارب الخمر الذي بلغ الثّمالة بعد ساعات قضاها في الشّرب والرّقص داخل الماخور، أشعر بإحساس المنتحر الذي رمى بنفسه من ارتفاع شاهق، ثم يلقف أبي جسدي.

فلماذا ساء الدّهر وصروفه، فامتنعت عن حديثه ورفضت عناقه بعد مرور السّنوات؟ يا لتلك الحياة، لقد رأيت تلك الحياة على شكل شريط بصري يغدو ويروح بين بصيرة روح مجهّزة للسّفر نحو الجحيم وإحساس غريب يعشق الخلود في الجنّة، رأيتها بعد ست سنوات و قبل أن أضغط على زر التّفجير، يا لذلك الصّبا، لم نكن نفكّر في أي شيء سوى ألعاب بسيطة، أحيانا تكون مصنوعة من الورق، كان والدي بحرا يجود بأعماقه، يهيج أحيانا ولكن بداخله يوجد المرجان، كنت أعيش بداخله ورغم عمقه الذي أدركته متأخرا إلا أنّه كان بحر أمان، كان يساير العائلة مثل ربّان سفينة، كان القائد والجاذب في نفس الوقت، كان شراعا قبل أن تكسره أعاصير الدّهر، كان حوتا لطيفا رحيما، كان ملاك ينشر المودّة أين ما حلّ.

وفجأة! وقد كنت بلغت الثّانية عشر من عمري، ولم أكن قد دخلت المدرسة لأنّه لم يستطع أن ينفق أكثر، هبّت الأعاصير، تمرّد البحر، علت الأمواج، وقيل لنا أنّ بحر الجود غرق في البحر الأزرق، وأنّ حوت الأعماق التهم الحوت الألطف في هجرة غير شرعية، وقيل أنّهم رأوه في الصّحراء، وآخرون قالوا أنّهم رأوه في أماكن أخرى، قالوا الكثير من الأقاويل، الشّيء الذي أدركناه هو أنّ أبي اختفى ولا ندري أيرجع أو أنّه سافر إلى عالم آخر ليس فيه طريق العودة؟

لم تبقى سوى أمي التي اشتعل رأسها شيبا وتقوّس ظهرها أكثر فأكثر، وأختي عفاف التي تكبرني بست سنوات، تركت عفاف مقاعد الدراسة قبل أن تجتاز امتحان البكالوريا وطفقت تتعلّم الخياطة في ورشة صغيرة موجودة في القرية التي نسكنها، انتظرت أمّي أي رحمة تصيب البيت الذي غارعليه البؤس واختفى منه الهناء فلا زاره إلّا الشّقاء.

بعد انقضاء شهور على اختفاء أبي، وفي صباح يوم جميل نشرت الشّمس فيه سطور الدفء فأنذرت الخفافيش بالعودة إلى كهوفهم، وكانت أوراق الأشجار ترقص مع بعضها البعض وهي تنزل إلى الأرض مودّعة أغصان يائسة سيودّعها أهلها بعد أيّام قلائل، والتي سيتحوّل غارسوها إلى متشردين ليس لهم مأوى، ولأنّ العصافير في ذلك اليوم صارت بكماء لا يسمع لها غناء، وتجلّى النّهار في هيئة راهب خاشع لا يريد أن تزعجه ذبابة في صلاته، وقد كانت أختي عفاف تسقي بعض الشجيرات التي غرسها أبي قبل أن يرحل، شجيرات طلبت منه أن يبني لنا مسبحا في مكانها قبل أن يغرسها فأبى أبي وقال أنّ الشّجيرات أنفع، قبل أن تنتهي عفاف من السّقي، وبينما كانت تقتلع أعشاباً ضارّة إذ بها ترى سيارة فخمة قادمة نحو بيتنا، فقفزت من الفرح كأنّها رأت أبواب الجنّة تفتح، امتلأ قلبها سعادة وسرورا وعانقتني بشدّة كالذي يعانق حبيبا غاب عنه مئة عام، وبما أنّني كنت الرجل الوحيد في المنزل طلبت منّي أمّي الخروج والتّرحيب بالضّيوف، خرجت مهرولا وانتظرت

وصول السيّارة الفخمة لأنّ الطّريق الموصل إلى منزلنا هو طريق ترابي، حين وصلت السيّارة البيضاء العالية إلى منزلنا ترجّل منها رجل متوسّط القامة و بدى أنّه في الخمسينيات من العمر، ذو لحية بيضاء يرتدي بذلة لونها مثل اللّحى ولكنّها كانت تسطع وتلمع لمعانا مريبا، كأنه ملاك في هيئة بشر، يرتدي حذاءً أسودَ وربطة عنق سوداء، وعيونه اختفت خلف النظّارات العاتمة، وتعلو رأسه قبّعة ليلية.

انتصب قبالة البيت مبرزا صدره نافخا جسده، ثم أخرج غليونه ووضعه بين الشّفاه العريضة و تحت الشوارب الكثيفة ثم أردف نار القدّاحة وأحرق شفاه السّيجارة، وقف في هيئة قاتل ثم وضع يديه على جوانب خصره وهو يتأمّل البيت المنفرد والمنعزل ثم يتأمّل البيوت الأخرى المجاورة لمنزلنا، شكّل غيمة دخانية وأرسلها من فيه نحو السّماء، ثم أشار لي بإصبعه

- أي، تعال

شعرت بالخوف لمّا رأيته يقترب من المنزل، جرى بداخلي الوجل، كأنّ الأمن غادر إلى أبعد نقطة في الحياة فارتجف جسمي ورجعت القهقري، لم أنتبه إلى نفسي حتّى وجدت ظهري مسندا إلى شجرة يابسة تخلو من الحياة، ضحك بأسلوب ساخر وناداني:

- أي، اقترب يا فتى، لا تخف!

تذكّرت قول أمي بأن لا أركب في أي سيارة وأن لا أقترب من الغرباء،

أصابني الذّعر وتذبذب كياني خوفا من سحنته الكاذبة ووجهه شبه المزيّف، كنت مثل نجم تلاشى نوره في أعماق الكون، اقترب مني ببطء وقال: أين أبوك؟

- لا أدري، ذهب ولم يعد، قيل لنا أنّه مات.

قطّب حاجبيه حتّى لامست بعضها البعض، فبرزت عليه علامات التّعجّب.

- إنّ أباك لا يزال حيّاً، من ينفق عليكم الآن؟

--أختي عفاف، هي التي تنفق علينا لأنّها توقّفت عن الدّراسة وشرعت في العمل داخل ورشة خياطة.

- كم عمرك؟

- اثنتا عشر سنة.

- وكم عمر عفاف؟

- تكبرني بستّة سنوات.

- هل هي جميلة مثلك؟

لم يواسيني ولم أرى في وجهه ذرّة شفقة، أشربني من كأس الازدراء حتّى جعل قلبي يثمل قبحا، جعلني أتهاوى في عمق الخيبة وقال:

- هذا جيد، إذن سيكون الأمر يسيراً، لم ألبث حتّى سمعت صوت أختي عفاف تلقي عليه التّحية من خلفي اقتربت منه على استحياء وسألته إذا كان يحتاج لشيء، لم أرى وجهها البشوش مكفهرا مثل تلك اللحظة

تبخرت منها السّعادة التي كانت تغمرها قبل قليل

- أأنتِ عفاف؟

- نعم.

فجأة، أبلج وجهه وأشرق فيه نوع من اللطف، تناول صاحب القبّعة والغليون غليونه تكراراً وهو يرى منزلنا، كأنّه يقيس المسافة من موضع قدمه حتّى البيت. ربّت على كتفي ثم أخرج من جيبه دنانيراً أعطاها لي وابتسم لعفاف ثم سألها نفس السّؤال الذي سألني:

- أين والدك؟

- نحن لا ندري! ذهب ولم يعد.

- أوه، ربّما مات؟

استدار خلفه فانفتحت نافذة السيّارة الفخمة فرأيت السّائق يبتسم، نظر صاحب القبّعة والغليون إلى عفاف ثم قال:

- من المحزن أن تحيا زهرة من دون ساقٍ!

أخرج من جيبه ورقة نقدية أخرى ناولني إيّاها وأمرني بالانصراف، شعرت أنّني نجوت من شيطان أتى من قعر الجحيم أو من شبح ملعون يرتدي زي البشر.

صعقت الورقة النّقدية بكفّي دون أن أشعر وهرولت نحو المنزل، حين دخلت وجدت أمّي تنظر إلى الضّيف وعفاف من أعلى الباب البائس والمصنوع من الخشب، رغم المسافة القريبة الموجودة بين منزل الطّوب

وصاحب القبّعة والغليون إلى أنّني وصلت إلى الدّار ألهث، لم تستفسر أمّي ولم تسألني أي سؤال، بل لم تكترث لدخولي وما رامت مكانها، كانت تراقب صاحب الغليون من خلف الباب، ولأنّ لعنات الخوف ولجت إلى فؤادي، انتهيت إلى الغرفة البائسة المفروشة بحصير أسود مخيف مرتعدا خائفا، بينما كنت جالساً على الكنبة القديمة تحت ظلام التّعاسة أنتشف دموع الحزن والخيبة والاحتقار إذ بي أسمع صوت نحيب وما فتئ حتّى تحوّل إلى ضرب من الصّراخ، جزع الجسد واستعمر الوجل الرّوح، فتفتّت الأمان فتشكّل داخل الفؤاد نوع من الهلع وانسلخ الهدوء الذي طالما لفّ جسدي، فتحوّلت إلى مرتعش يحمل روحا مضطربة، دلفت خارجاً من الغرفة الشّقية إلى الرّواق الضيّق والمعانق لمطبخ يكاد يخلو من المستلزمات، وقد قاسم جداره الغرفة الشّقية فألفيت أمّي متصارعة مع أنفاسها خلف الباب، ما إن تزفر حتّى يطلب جسدها استنشاقا أطول من تنهيدة قرصان بائس.

أسندت المسكينة ظهرها الواسع إلى الباب ثم انزلقت حتّى جلست القرفصاء، حاولت عفاف أن تساعدها في الوقوف لكنّها فضّلت البقاء جاثمة، ترنّحت يمنة ويسرة وهي تنوح فأسقتها عفاف كأسا من الماء فهدأت هدوء البحر في ليالي الدّجى، لكنّ البحر سكن عمقه الشّقاء ومن المؤلم أن يهدأ البحر الذي تثور في أعماقه البراكين، كانت مثل الجبّ المليء بأسرار الشّقاء، وفي نفس الزّمن كانت سر مدفون في بئر لا يعلم عمقه إلّا الخالق، تنهّدت تنهيدة طويلة وناءت بأثقالها وجراحها.

إنّها الجراح التي يعجز الطّب والحكماء على تطبيبها، إنّها الجراح الجهنّمية وكأنّها تطّلع على الأفئدة، أعانتها عفاف وأوقفتها وأدخلتها الغرفة الشّقية المصبوغة جيراً، خان الأرضية جمال الفسيفساء فكانت بلاطاً خشنا وكانت أمّي تصارع العنكبوتات التي تستعمر الزّوايا وتبني شبكاتها بتفنّن، كانت والعنكبوت أعداء مثل شيطان وملاك، كانتا تتنافسان في صنع الحزن لبعضهما البعض، وفي كل مرّة تنتزع أمّي شبكة العنكبوت تتخذ هذه الأخيرة بيتا لها في زاوية أخرى. جلست أمّي على الكنبة القديمة ثم سألت عفاف:

- ماذا قال أيضاً؟

عسر على عفاف أن تقلّل من قسوة الجواب القاسح والنّبأ الحادّ، نبأ مثل سيف صارم يلامس عنق بريء محكوم عليه بالإعدام، أو قبس مشتعل يشدّه جلاّد وهو يبحث عن مكان مناسب في جسم فتاة يافعة لكويها بناره، وبعد أن أذرفت عفاف دمعتين حاميتين سالتا وتدفّقتا على خدّيها ردّت قائلة:

- قال أنّ هذه الأرض ملكه، وسيعود يوم الأربعاء مع الجرّافة المجنزرة لهدم البيت وباقي بيوت الجيران

- ماذا قال أيضا؟

نكست عفاف رأسها وبدى عليها ضربٌ من الذّل والهوان.

- لا شيء.

- تحدّثي، ماذا سأل أيضا؟

- سألني عن أبي و إذا كنت مخطوبة أو لا، وقال أنّه...لا شيء...لا شيء، هذا فقط!

- هيه، وأيضا؟

- لا شيء، هذا فقط، لم يقل غير هذا...

- وما هذا الذي في يدك؟

- قال أنّها وثائق قانونية تثبت امتلاكه لهذه الأرض أو ربّما لهذه القرية.

كانت أمّي تخاف من الفيضانات وعواقبها، وتخاف من الوحوش المفترسة والجبل المملوءة بالخنازير، كانت تخاف من الكوارث الطبيعية والزلازل، لكنّها لم تكن تخف يوماً من البشر وجرّافة ذات جنازير، إنّ صاحب القبّعة والغليون أعطى لنا موعدا للهدم، نصح بالرّحيل قبل يوم الأربعاء، إنّ الأرض التي بنى عليها أبي بيتنا القصديري قبل أن أولد، وأيضا بيوت الجيران كانت ملكا لصاحب القبّعة والغليون، أتى ومعه الوثائق التي تثبت أنّ تلك الأرض كلّها ملكه...

صرخت قلوب الجيران خفية من غير إحداث ضجّة صرخت جدران الطّوب وصرخت العنكبوتات الحزينة في شبكاتها، انطوت كلّ دابّة بنفسها في عالم الحزن والخيبة، فكانت الأجساد هادئة والأرواح تصرخ، إنّ الزّهرة الجميلة التي استظلّ بها النّمل وفاح عطرها ذبلت وانكسرت، حتّى الزهرة السمراء التي أنجبتني أصبحت شاردة الذّهن غارقة في تفكير

وكأنّها تعيش في عالم غير الدّنيا، تسترحم الحياة التي آلمتها مثل المجلود الذي يسترحم وحشية الجلّاد العاشق لهواية الجلد، لمن المشتكى؟

صارت أمّي مثل نجمة استغنى عنها الكون، أو مثل غصن مال بأثقاله فقطف البستاني ثماره ثم كسره ورماه في إحدى الأرياف وهاجر، تارة أشعر أنّ أمّي تشتاق لأبي وتارة أخرى أشعر أنّها تزدريه وتكنّ له المقت والعتاب، في أوّل صباح ذهبت أمّي لأخيها في ولاية غير التي نسكن طمعا في أن يجد لنا حلّا للمصيبة والفاجعة المفاجئة، وانتظرناها أنا وعفاف في المنزل بمفردنا على أمل كبير في أن تجيئنا بخبر يسر السّامعين، كنّا نعلم أنّ هذا الخال الذي لانسمع به إلّا حين تقصّ لنا الأم قصصه فنراه في المخيّلة وهميا ونراه وهو يدخل شركته ببدلته الجميلة والجميع يرحّب به مبتسماً، ونتخيّل أنّه يفكّر فينا دائما ولكن الوقت والفرص لا تسنح له لزيارتنا لكثرة سفره وترحاله بين البقاع والبلدان، رجعت أمّي بعد يومين خائبة لأنّها لم تجده في منزله، وقيل لها أنّه رحل مع زوجته الأوربية وأولاده السّنة الماضية إلى بلد ثان، قالوا أنّهم لا يعلمون مكان إقامته تدقيقا وقد كانت أمّي تراه الأمل الوحيد المتبقي لها وأنّه السّهم الذي بإمكانه التّصدّي لبؤسها والسّهم القاضي على بؤسها، افتقدته فتبخّر أملها وتلاشى إلى العدم، لم يبقى على الجحيم الذي أوقده صاحب القبّعة والغليون سوى يومين لندخل إليه.

كنّا ننتظر الأسوأ بقناعة متيقنين أنّنا هدف واضح تخترقه طلقات الحزن المقذوفة من ماسورة الدّهر المجرم، كأنّ آلهة البؤس جاءت واقعاً عليلا فسخرت منه بلعنات ناقضت الحظّ فهوى هذا الأخير من العظمة إلى أسفل سافلين، شاهدت المسكينة أفلام البؤساء على الشّاشة القبيحة داخل الغرفة الشّقية ولكنّها لم تتمنّى يوماً أن تعيشها، بعد أن عادت أمّي ومعها الخيبة، وبدل أن تستريح من الأسقام وتنتظر الجحيم، صارت لا تفارق الغسّالة التي تحولت إلى خزانة توضع فيها الخضر العفنة، هذا إذا كانت الخضر موجودة في المنزل، تمسح جبينها بقطعة قماش ثم تواصل إصلاح المروحة الكهربائية التي جلبتها من المزبلة الكبيرة قبل شهور، وإذا لم تفلح في تصليحها تتنهّد تنهيدة شقاء تسترحم بها دنياها المجحفة وتقع على الأرض مثل بكماء تجتر أحزانها ومآسيها، كان وجهها الشّاحب الأسود يعادي شعرها الأبيض، وكان يعاتب دهراً قاسٍ ثم يلعن زوجها المختفي.

يوم الثّلاثاء رأيتها تتأمّل المطحنة التقليدية المتوارثة عبر العصور وتتفحّص كلّ ما هو قابل للتّرك تحت الحطام، جمعت جميع الوثائق التي تثبت أنّنا لازلنا على قيد الحياة وبعض الدّنانير التي ادّخرتها عفاف نتاجاً عن المخيط، تدفقت ليلة الثّلاثاء فسال ظلامها على بيتٍ واهن وعائلة أوهن، انسكبت الظلمة في كأس الليل فارتوى كل ما هو ظمآن لحلكة المآسي داخل الغرفة الشّقية وأوى جسدي إلى الفراش الخالي

من الدفء، أمّا روحي! فقد فقدت متعة الإحساس بالأمن وباتت معلّقة على أمل الغد المشؤوم، يُخيّل لي أنّ الأشباح تنام معنا جنباً إلى جنب، أراها ترقص آخر رقصاتها بيننا ثم أسألها إذا كانت تهوى الرّحيل معنا فلا تجيب.

انجلى الليل وأبلج الصّبح، أفرغت أمّي أكياس القمامة التي جلبتها من المزبلة وقامت بتنظيفها وملأتها بالثّياب البالية المرقعة والتي يزجر منها الجسد، ذلك مبلغنا من الرّزق، فجمعناها لنأخذها معنا حين يأتي صاحب القبّعة والغليون لهدم المنزل، أين نذهب؟ تتالت ساعات صدر يوم الأربعاء وتلاشى الصّبح رويداً وخوى البيت من أي كائن أو جماد يُرى، لم يبقى سوى جدران الغرفة الشّقية، وأدركت المسكينة أنّه من المستحيل أن تأخذ معها الخزانة أو المطحنة وبعض الأثاث الآخر، فآثرت أن تتركه هناك بجانب البيت إلى يوم آخر، خرجنا من الغرفة الشّقية منتظرين المصير الذي استسلمنا له فجلست أمّي خلف غرفة الطّوب على الدكّة وهي تنظر عاليا إلى الطّريق الذي يشق الجبل إلى نصفين، حاولت أن تتذكّر أي شيء نسيناه ثم رامت الدّكّة وعادت إلى داخل البيت فجلبت نعالا من الجلد نسته في فراغ بين صفائح القصدير، ثم انتصبت ترى هذا الأخير نظرة وداع وانفجرت باكية فأغمي عليها، اضطربت عفاف وارتجفت ثم فتحت قارورة الماء ونضحت وجه أمّي علّه يحيا، بعد دقائق استفاقت الرّؤوم من الإغماء من غير أن تشكو، لم

تفكّر في الذّهاب إلى دار الشرطة، لماذا تذهب وليس لها أي وثيقة يمكنها الدّفاع بها عن نفسها؟

ومض شعاع في الطّريق الجبلي، إنّه شعاع ضوء الشّمس المنعكس على زجاج السيارة المنعطفة يسارا لتنزل إلى القرية، نزلت عجلات السيارة البيضاء الفخمة ببطء شديد على الطّريق التّرابي فتبادلنا نحن الثّلاثة نظرات الأشقياء الذين قمع الاحتقار أيّامهم. نبست عفاف لأمّي ببنت شفّة ثم انفلتت الدّموع من مقلتيها، مع كل دورة تدورها العجلات تنطفئ في سماء أمي نجمة، كلّما اقتربت الفخمة منّا قارب نور أمّي على الانتهاء، كأنّ العالم تحوّل إلى كتاب تُحرق صفحاته صفحة صفحة، وتمحى حروفُه حرفا بحرف.

فُتح باب الفخمة فترجّل صاحب القبّعة والغليون ودلف نحونا بنفس السحنة الماضية، بدلة بيضاء مع ربطة عنق سوداء والقبّعة والغليون، ولكن في هذه المرّة كان أرحم من الملاك، جلب معه سخرية سحرية تسخر من الأجساد وتسحر القلوب، ابتسم لنا تلك الابتسامة التي تعتبر ذنب، ابتسامة أمقتها مقتاً كبيرا فتعرّت براثنه المسوّسة التي صبغها الطّلم ففقع لونها وحيّا أمّي:

- صباح الخير.

- صباح الخير يا ابني.

- أرجو أن لا أكون قد أزعجتك، لا أقصد أذيتك أو أن تخرجوا جميعكم

من بيتكم هذا فتتشرّدوا في شارع لا يعطف، آسف على الإزعاج، أتمنّى أن لا تكونوا قد شعرتم بالغضب أو أسأتم الفهم، أنا أحترم الفقراء يا أمّاه، فلا تقولوا أنّ هذا الرّجل يحتقرنا بغناه، لستم الوحيدون الذين سيرحلون من أرضي، علمت أنّه يوجد أكثر من عشر عائلات يسكنون هنا في أرضي، ومنهم من زوّج أبناءه وبناته وبنى لهم بيوتاً على أرض أملك عقد ملكيتها، هؤلاء أيضا سيرحلون قريباً، لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا، لقد وجدت لكم حلًّا يخرجكم من مصيبتكم هاته، لن أقوم بهدم منزلكم اليوم، ولكنّكم لن تبقوا هنا أيضا.

ابشروا ! لقد توصّلت إلى حلّ يخرجكم من ظلمة الفاقة إلى نور الغنى، وطبعاً إذا شئتم أنتم أن تخرجوا، بل آن أن تخرجوا، فلتذهبوا معي إلى العاصمة وهناك بإمكانكم أن تسعدوا بالعمل معي في الفندق، و تسكنوه في نفس الوقت إن أردتم، ما رأيكم؟ هل تذهبون معي؟

إنّ الحزن والصّمت والخيبة والهدوء تشكّلوا في هيئة بشر، تشكّلوا في شبه أرملة تجلس على الكراسي الخلفية للسيّارة الفخمة، تغطرس صاحب الغليون بغليونه داخل سيارته وسارت هذه الأخيرة على الدّرب متّجهة نحو الشّتات الذي ينتظرنا في العاصمة، كانت الفخمة تزمجر وهي تبتلع الطريق السريع ونحن في عبوس وضجر، أمر صاحب الغليون عفاف الجالسة على المقعد الأمامي و قد كانت الرّيّاح تحرّك شعرها الأصفر الذّهبي وأرشدها إلى أن تضع حزام الأمان، ثم اقترب منها وسوّاه بنفسه، ومن حين لآخر يعيد الكرّة.

استفقت من نوم لا أدري كم دام زمنه! أذهلني سحر العاصمة وزخرفتها المدبّجة، بنايات مزيّنة تتجلّى في أشكال هندسية يبهر سحرها النّاظرين، وتلهم روعتها روح العابرين، أبلجت ببجلة شقراء عاشقة تهوى الحياة، كأنّها عروس انغمست في ماء العين فتطهّرت. تنير الألوان والمصابيح شوارعها الرّائعة، كأنّها حظيت بأكثر نسبة نجوم في سمائها، غارقة في الحياة التي زفّت إلى التّجديد والحضارة، كأنّها جوهرة في طاقم من الألماس واللّؤلؤ، كأنّها جزء من جنّة مخفية في هذا العالم.

بلغنا فندق صاحب القبّعة والغليون فأذهلني جمال الحديقة التي يشقّها إلى نصفين دهليز مزيّن بالحصباء. حديقة مدهامّة تنيرها مصابيح شتّى، رمى الليل أجنحته وتوارى خلف الغمام الحزين القمرُ، فغشى العاصمةَ ظلامٌ قحّ، يا لتلك الأيّام الحقيرة! كانت العاصمة مثل جنّة قبل أن تتحوّل إلى جحيم، تماما مثل صاحب القبّعة والغليون حين جاء إلى القرية أوّل يوم، وقبل أن يعطي لنا موعداً للرّحيل، رأيناه مثل ملاك من الملائكة أرسلته السّماء مع مزن رحمة فقفزت عفاف فرحة لمجيئه، لكنّنا أدركنا لاحقاً أنّه شيطان أرسلته الظلمات ليهلك نوراً خافتا كُنا نعيشه، وهذه المرّة نرى جنّةً على كوكب الأرض، وعلى حسب التّجربة البائسة، أوحى لنا الدّهر أنّنا جالسون عند عتبة جهنّم، حين تجاوزنا الدّهليز وخطى كلٌ منّا خطواته مندهشا في كرم السيّد صاحب القبّعة والغليون اقتربت منّا الموظفة بعد أن أمرها ربّها بأن تأخذ كلّ منّا إلى

غرفته المخصّصة. أوصلتني الموظفة إلى غرفة واسعة مملوءة بالألعاب وأمرتني بأن لا أخرج منها حتّى تأتي هي وتصحبني معها، ضرب التّنظيم عنق الغرفة فلم يبقى للفوضى حياة، يوجد بها مكتبة صغيرة وضعت على أدراجها بعض القصص وقمطر آخر فارغٍ قمطرير...

جلست على المضجع المفروش بالحرير مذهولا مخذولا، فجاءت موظفة الفندق أعطتني قصة وطلبت منّي أن أقرأها، وقالت أنّها ستعود بعد قليل لتطرح علي أسئلة عن أحداث القصّة، وأعطت لي عهدا بأنّها ستكافئني مكافئة رائعة إذا أجبت عن أسئلتها، ولكن قبل أن تكمل حديثها صارحتها بقول جعلها تعيد القصّة إلى درج المكتبة وتكتئب.

كان شعرها الأسود ينساب على ظهرها حتّى يلامس حزامها المشع والمعانق لخصرها العريض، كأنّها بطحاء يجري فوقها سيل الجمال، أو بطحاء لمعت فوقها الحصى وسطعت تحت ضياءِ الشّمسِ المنسكبِ. فرآها النّاظر مثل حبّات لؤلؤ منثور في جحيم خيانة الدّهر، برقت عينيها الخضراوتين في سماء وجهها الأسمر، فنزل من سمائها جمال فاتن مع ابتسامة كئيبة.

معتدلة الطّول ترتدي سروالا ضيّقا وقميصا مشتعلة ناره وأضيق، كانت مثل لوحة رسمها فنّان بسمرة الفحم فأبدع، فنعم البهاء، رسب سروالها الضيّق وقميصها في أن يسترا أعطافا وما تحمله من خفايا. تأملت غلاف القصّة فأعجبتني صورة الأرنب والأسد في زمن كانت فيه

الفتاة تنتظر شكري لها وهي مبتسمة أعدت القصّة لها وصارحتها بأنّني بلغت الثّانية عشر من عمري ولم أدخل المدرسة، ثم أردفت كلمة آلمتها فاكتأبت، إنّها كلمة قالتها أمّي لعفاف قبل أن تهجر هذه الأخيرة الثّانوية "لا تجعلي نفسك عرضاً في الشّارع فلا يسطع النّاس أن يفرقوا بينك وبين السّلع"، حين سمعت الموظفة كلماتي تجهّم وجهها الأسمر وتلجلج لسانها وكأنّها تريد قتلي، وسرعان ما تلعثمت واغرورق ومضها فنزلت دمعتين من عينيها الخضراوتين، كأنّهما نطقا وقالا أنّ الفتاة مجبرة على ارتداء العري من أجل أن تعمل، وأنّ الزّمن أرغمها على فقدان المعنى لتعيش المادّة، وأن ترضى بذلّ البؤس لتنعم بالهناء، وأن تتمسّك بحبل الإفلات لتهوي. وأن ترضى بالتّناقض لتعتدل، هل يمكن للشّقاء أن يلد الهناء؟ وهل يمكن لحبل الهوى أن ينتشل روحها من هوى الشّياطين؟، وهل يُمكن للزّهر والورد أن يحيا بفتنته وروعته في أرض قاحلة ويرسل العبق والرّياحين؟، أوه...كم هو مؤلم أن يعيش المرء في زمن يباع فيه الحب لشراء الهناء، ويُصاغُ فيه الهناء بصاع الشّقاء، إنّه زمن يعيش البشر وقد جاؤوا ليعيشوه، ويذيب الحجر للنّاس إذا جاعوا ليشربوه، إنّه زمن أذنَب ولم يتُب، فكان للجحيم أقرب الأقربين.

قبل أن تخرج الموظفة من الغرفة المرتّبة دخل علينا صاحب القبّعة و الغليون دخول العسكري الذي خلع الباب وفرّق المفصّلات بركلة، أشار إليها بطرفه آمراً إيّاها أن تتبعه إلى مكتبه الذي علمت بعدها أنّه

مكتب يقابل غرفة عفاف في الطّابق الثّاني، ولأنّ الموظفة علمت أنّني لا أجيد القراءة رمقتني بنظرة امتزجت بين الغضب والشّفقة، ورفعت القصّة من فوق المضجع الرّائع ووضعتها في القمطر، ثم خرجت مطيعةً لأمر ربّها، تأمّلت الفرق بين جدران الطّوب والجدران الملوّنة والمعلّقة عليها براويز أحاطت بصور بهلوانية.

خرجتُ من الغرفة وصعدت إلى الطّابق الثّاني حيث توجد غرفة عفاف، وقبل الصّعود وقفت لدى باب غرفة أمّي، ألقيت نظرة فألفيت غرفتها شبه فارغة من الأثاث، صعدت الأدراج ومشيت الرّواق حتّى بلغت غرفة فُتح بابُها فأبصرت عفاف داخلها وقد كانت فرحةً مسرورة ترتدي ثيابا تسطع جمالا، اشتراها لها صاحب القبّعة والغليون قبل أن نصل إلى الفندق، ووضعها داخل خزانتها في غرفتها التي خُصّصت لها قبل أن نغادر القرية النّائمة تحت الجبل، لقد كانت مسرورة بثيابها لدرجة أنّها حين رأتني ابتسمت لي و نزلت من مقلتها دمعة فرح، وحتّى دموع الفرح تكون أحياناً مُحزنة، رأيت تلك الدّمعة الخفيفة التي انسكبت من عينيها السوداوين الواسعتين وهي تغيّر مجراها على وجهها البريء الفاتن، ولجت الغرفة فأبهر جمالها منطقي الضّائع بين الوهم والحقيقة، أين كنت في الصّبح وأين أنا الآن، تصدّر الغرفة مضجع مزدوج أصفر فاقع لونه يسرّ النّاظرين واستعمر جوانبه الأثاث البهي والورود الرّبيعية الفصل، كانت الجدران مزخرفة ومزيّنة بجنّات الزّينة والفنون، أذهلتني

الخزانة الواسعة والمرايا البلّورية، وعدل الفضول عن سبيله فخاض يتمتّع بالبهاء الجمّ و الشّاشة المعلّقة قبالة المضجع بين دفّتي تدبيج. ابتسمتُ لها ونزلت إلى الطّابق السّفلي حيث توجد غرفة أمّي، لم تكن غرفة أمّي جميلة مثل غرفة عفاف ولا يوجد في غرفتها خزانة أو تلفاز، وكانت ظلمتها أشباحاً إذا دخلتها مُلئت رعبا، لايزال حجابها ممزّقاً أطرافه ملتصقا بجسدها وظهرها المقوّس، ولم تكن ترتدي ثيابا جديدة، إنّها البؤس الأسود في جسد واهن قَرُبَ على الانتهاء، احتضنتني وقالت أنّها ستترجّى صاحب القبّعة الغليون وتستسمحه في أن نسكن أنا وهي وعفاف داخل غرفة واحدة، ثم بكت وسألتني تنحب "هل نحن في النّعم أو في النّقم؟" سألتني فما أجبتها لأنّ السّؤال عسير والعقدة أعسر فما استطعت لها حلّا، إذ أبصر المرء تلك النعمة وأمكنه الحظ في أن يرى حديقة مدهامّة مثل حديقة ذلك الفندق، وإذا رضيت عنه أيّامه وبوركت حتّى بلغ ذلك الثّراء، ربّما يمكنه أن يشعر بنعيم الجنّة، لم أستطع الجواب على سؤال أمّي لأنّ الإدراك يتغيّر إلى الحيرة إذا ألفى المرء نفسه منتصباً مذعوراً مرعوباً موجوعاً مقهوراً داخل جنّة تسكنها الشّياطين والقذارة، ووجد نفسه بين قساوة الدّهر والبشر، يصارع الهلاك بين الوجع والفواجع، وإنّ للحياة لقساوة تشتد على النّاس فتصنع منهم المذنبين، وهذه القساوة هي مجرّد نوع من العيش ونوع من السلطة ونوع آخر من البؤس والشّقاء والحاجة.

والأقسى هو أن يعيش المرء مقتديا بالملائكة والرّسل بين شياطين ولدتها أرحام بشرية وهو يشرب ما يشربون، ويأكل ما يأكلون، وما هو برسول، وما هو بملاك، هاجت بحار الزّمن وناجت الألواح والدّسر ربّها المغلوب عليه والمحكوم عليه بالشّقاء والأسى. وقبل أن ترسو بنا السفينة على شاطئ الازدراء والقبح كنّا قد ملأناها بالألم الذي يجعل الأرواح تنزف وتتأوّه. وعند ارتفاع موج الاحتقار أو انكشاح أي بؤس عن بؤساء الدّهر الدّاكن، تحنث الأقدار والأدعية وتعلن عن تمرّد قلوب خانها الزّمن المتبرّئ من شر البشر، إذا تدلّى الظلام وترنّحت أشباحه على زوايا الفندق الجميل تنزل به المومسات والفاجرات اللّواتي يمكنهن إغواء الكهنة والصّالحين.

في إحدى الليالي وقد كنت أنا وأمّي نائمين في الطّابق السّفلي داخل غرفة قريبة من باب الفندق، وبعد أن وافق صاحب الغليون والقبّعة السّوداء على أن أبيت أنا فقط مع أمي ولم يرضى لعفاف أن تغادر الغرفة الموجودة في الطّابق الثّاني إلّا نهاراً، أفزعني صوتٌ وجلبة مع زجاج ينكسر في الرّواق الجميل الرّائع. تمرّدت على حكم أمّي حين أمرتني بعدم الخروج من الغرفة ليلا ودلفت نحو الباب بحذر فابتلع الرّواق أقدامي، زلّت هذه الأخيرة ومضت نحو مصدر الضجّة، كان باب الفندق مغلقاً.

وفجأة بينما كنت أخطو خطوات سجين يحاول أن يهرب من مصيره، أو بالأحرى كان يريد أن يفر من الحكم الذي أصدره البؤس على روح شقية، إذ بي أرى في آخر الرّواق أجساداً عارية ترقص من غير موسيقى، قذارة مختلطة بشقاوة ذنب، رقصوا على إيقاع تكسير الزّجاجات وهم سكارى، تجلّت بعض الأرائك الحمراء هناك في آخر الرّواق وكانت موضوعة بأشكال هندسية مذهلة، لم يذهلني الضّوء الخافت ولا الرّقص، بل أذهلني المشهد الذي ما رأيت مثله في حياتي، تشجّعت وتقدّمت، أحسست أنّ شيطان مارد يدفع جسدي نحو القذارة الأقذر. مشيت الرّواق بهدوء قبل أن تختطفني أيادي الغانيات احتضنتني بائعة الهوى فارتجفت كلّياً، خفت وقاربت من البكاء في حفرة الجحيم تلك، ابتسمت لي غانية أخرى وبعنف وهيجان اختطفتني من الأخرى ووضعت وجهي في ضرب من ضروب البشاعة والقذر يرمقني بسخرية، تناول آخر شربة من نبيذه ثم كسر زجاجته على الفسيفساء مقهقها حتّى جاءه القيئ فتقيّأ، ارتفعت صيحات اللّتان معه وتعالت ضحكاتهن، فتح قارورة أخرى وأفرغها على رأسي فجعلني مبلّلا كأنّني أخذت دشّاً، ضحكت البغي المنسلخة من عقلها وأطلقت قهقهة ساخرة، حاولت أن أتأكّد من أنّه هو، لم أصدّق أنّ هو وقده فعل بي كلّ هذا، إنّه هو بشاربه العريض وعيونه العسليتان.

كأنّ الذّاكرة خانتني قبل أن يسخر منّي ويفرغ علي الخمر، لم أستطع استيعاب ما أرى، ارتجفت أعطافي وتذبذبت روحي داخل الجسد، كيف لم أتعرّف عليه قبل أن أصل إليه! وبدون أي حياء، قبّل ذلك القذر تلك القذرة.

في تلك اللحظة، انتزع الرّعب من داخلي ائتمان البشر انتابني الخذلان والخيبة، تذكّرت أبي الذي كان يستحي من رؤية مذيعة الأخبار، تمنّيت أن يعود وينقذني من الغانية التي تسخر منّي، تمنّيت أن يعود أبي وينقذ ابنه من هذا القذر الذي سكب علي قارورة الخمر ثم كسرها.

إنّ الذي أفرغ الخمر فوق رأسي هو صاحب القبّعة و الغليون، اشتقت لأبي الذي لم أره منذ سنوات، كان صاحب القبّعة والغليون يثمل من غير أن يكلّ، لم يستحي مثقال ذرّة، فتح زجاجة خمر أخرى وأرغمني على الشّرب فاستعصمت، كان يتبادل مع الغانية فجورا بغير حياء، تمنيت أن يحضر أبي في تلك اللحظة وينتقم لي منه.

حملني صاحب القبّعة والغليون بين ذراعيه فبرز شاربه العريض المبلّل، قذفني قذفاً ثم رمى بي لدى الباب الذي خرجت منه، وقفت لدى باب الغرفة فشاهدته وهو يصعد إلى الطّابق الثّاني حيث تنام عفاف، صعد مترنّحا فاقداً لتوازنه متمايلاً مريبا. انجلى الليل فانتهى الخفاش إلى مسكنه، ارتفعت الجلبة في الخارج، ابتسمت الشّمس لسواد الكوكب فاستيقظت أمّي الرّؤوم من نومها لتستقبل شقاء يومٍ جديد، ورغم ظهرها الذي احدودب إلا أنّها كانت تعمل وتشقى جاهدة، بعد أن نظّفت

الرّواق من الزّجاج، وانتهت من كنس الأرضية السّفلية وتطهير الرّواق من القيئ أدخلت الأرائك إلى قاعة مخصصة، ومسحت زجاج النّوافذ وكنست الأرضية السفلى، ليس من العادة أن نتناول الفطور في غرفة الأكل بل كانت أمّي تأتي به إلى نفس الغرفة التي ننام فيها، ثم تصعد إلى الطابق الثاني لتأخذ الفطور لعفاف.

لم تقرع أمّي باب غرفة عفاف لأنّها وجدته مفتوحا كانت الغرفة محصورة بين دفّتي فوضى مختنقة مثل سفينة عالقة في قاع المحيط، الزجاج مبعثر على الأرضية والحياة غادرت الغرفة الرّائعة، جنى سواد الفجعة على بياض الرّوح فانطفأ رونق الحياة لدى الأم البائسة، لم تكن عفاف موجودة في غرفتها، تشققت جبال الشّعور والأحاسيس لدى أمّي فانطفأت نجمة أخرى في سمائها، نزلت إلى الطابق السّفلي وهي تجري كالمجنونة في الرّواق الذي قامت بتنظيفه قبل قليل من الزّجاج والقيئ، وتسرّب خلفها حجابها الممزّق والمبعثر على روعة الفسيفساء، انهدم جدار من روحها حينما اختطف الخفاء ابنتها، اسودّ وجهها الشّاحب وغرقت سعادتها في أعماق الحزن، التوى البأس بجسدها وعانقها جور البشر، حين جرت أمّي في الرّواق مضطربة صادفت صاحب القبّعة والغليون بسحنته اللمّاعة، بذلة بيضاء وقبّعة سوداء، مع ربطة عنق وشوارب عريضة، قبل أن تلفظ شفتاه غليونه ركعت أمّي عند قدميه وهي تصرخ، تقبّل قدميه وتترجّاه بأن يبحث لها عن ابنتها.

- لا تقلقي يا أمّاه، سأجلبها لك، سأبحث عنها في كلّ مكان، لا شيء أعظم من إنقاذ حياة إنسان أو إنقاذه من شرّ يترصّد له، أقسم لك يا أمّاه أنّني سأجلبها لك هذا المساء.

- شكراً يا ابني شكراً، لن أنسى لك هذا الجود ما حييت، أنت تعلم يا ابني أنّها فتاة مسكينة من غير أب وليس لها في هذه الحياة أي رجل تحتمي به، وقد كثرت الذئابُ وساء الزّمن، وها أنا قد تقوّس ظهري وأساء لي الكبر، لم أجدها في غرفتها المملوءة بالفوضى، ربّاه! ربّما غضبت منّي مساء أمس حين طلبت منّي طلبا فرفضته.

- ماذا طلبت منك يا أمّاه الكريمة؟، ربّما يمكنني تحقيق إرادتها.

- أرادت التّسجيل من جديد لإكمال دراستها بعد أن هجرت المقاعد لتتعلّم الخياطة، ربّما غضبت منّي البارحة فخرجت مغاضبة.

- لا تقلقي يا أمّاه، لك الوعد والعهد ولن أحنث، ولن يمضي يوم أو يومان حتّى أجلبها لك.

- يومان! صعب علي أن أصطبر هذه المدّة يا ابني! ولكن من حسن الحظ أنّني التقيت بك، ابحث عنها يا ابني، لن أنسى الكرم الذي جدت به علينا.

كتمت سرّ الليلة الماضية حين رأيت ما رأيت في الرّواق من قذارة ورقص الشّياطين، نظّفت أمّي الزجاج والقيئ لم تسأل عن كيف أتى الزّجاج أو شيء آخر، كتمت السّر فما استطعت أن أظهره وما استطعت له قولا.

ليست إلّا دقائق حتّى اضطربت أمّي مثل أرض زلزلت كرّة أخرى، تجري

في الرّواق ذهابا ورجعة، وضعت الشّال على رأسها وأكتافها وهي تنحب وتندب وجهها. ظهر القلق والغضب على وجه صاحب القبّعة والغليون الذي خرج من مكتبه ودلف نحوها وأمرها بأن تذهب لتكمل عملها وأنّه خارج للبحث عن عفاف بعد أن أكّد لها أنّها ضاعت، إنّه الضّياع العابث، الضّياع الذي حالف الزّمن بصروفه القاسية، الضّياع الذي يعشق اللعب بأرواح البشر اليائسين، توسّلت إلى صاحب الغليون وانهزّ كيانها ثم انفجرت باكية تجري على خدّيها المآقي والدّموع الحامية، خانتها قواها وتذبذبت حتّى انكبّت على ركبتيها جاثية، حملقت إليها مومس بسخرية. لمّا خرجت المومس من مكتب صاحب الغليون علمت أنّني رأيتها ليلا حين كانت ترعى، ثم اختفت وتوارت. وقفت أمّي تصرخ ثم مالت هاوية، حين أغمي عليها جرّها صاحب القبّعة والغليون في الرّواق إلى غرفتها جرّها كما تُجرّ الجثث في يوم الحرب بين أيدي العدو. لم أحتمل ما رأيت واندفعت نحو شارع السّعادة الذي لم أدخله في حياتي، تذكّرت ذلك اليوم بعد ست سنوات فحينما دخل الوزير وقد كنت أستجمع طاقة غريبة لتفجير القاعة، وتحويل كلّ هؤلاء البشر إلى أشلاء عادت إلي تلك الذّاكرة، وتذكّرت حين جرّها مثل الخنزير الذي انقضى عليه أسابيع تحت أشعّة الشّمس فتحلّل جسده وفاحت نتانة فجرّها الضّبع، لم أستطع أن أصطبر على ذلك المشهد فخرجت إلى شارع السّعادة بوحشية، لم استطع أن أرى أمّي تُجر مثل جثّة فانتهيت إلى الشّارع.

في شارع السّعادة رابني أمر رجل يجلس على الكرتون مادًّا يده آملا في صدقة كريم، وفي الجانب الآخر من الشّارع يصيح عربيدٌ وهو يعانق عمود كهربائي ويقذف المسؤولين بأبشع القذائف ويصرخ، رأيت الكثير من الصّور المعلّقة على البنايات والسيّارات والأعمدة، صور لأحزاب سياسية وأربابها، كانوا يرتدون أجمل البدلات وهم يبتسمون بعذوبة، تعدّدت الصّور المبتسمة على الأعمدة وأنا مملوء بالحزن. وجه عابس أقفر وجيب بائس أفقر، كان العرق يتدفّق على العنق والذّباب فوق وجهي ينهش، وددت قتل ذبابة حطّت على خدّي فصفعت نفسي، لم أستطع فعل ذلك في المرّة الأولى، كانت الحرارة لاذعة فأجبرتني على الاستظلال بسقيفة رأيتها في الجانب الآخر من الشّارع...يا للسّقيفة ويا لبؤسها، كانت سقيفة البؤس غريبة فهي لا تشبه القلنسوة تماماً بل هي أكثر شبها للمظلّة، كأنّها صنعت خصّيصاً لمن لا مأوى لهم في شارع السّعادة وفي بلاد الرّحمة، كانت سقيفة البؤس شبيهة بتقية الجند، لكنّها طويلة أكثر من طاولة الحفلات وعريضة أكثر من مكتب رئيس.

اتّجهت نحوها فطارت خلفي تلك الذّبابة القذرة وفي كلّ خمس ثواني تعود الذبابة لتضع قذارتها على وجهي المتعرّق الفائح، انزويت تحت سقيفة البؤس التي يفوح جدارها الأسود برائحة نتنة، فربّما كانت الكلاب المسعورة تقضي جولتها هناك، أفحمتني الرّمضاء وقضى الظمأ أمراً كان محتوماً، فجلست القرفصاء أحاول شرب الهواء والنّسمات

الباردة الآتية من مبرّدات الحوانيت، عادت الذّبابة من جديد وفعلت فعلتها على أنفي فاستجمعت كلّ قواي وانتظرت لحظة نزولها وحين وضعت أوّل جسمها فوق وجهي ضربتها فطارت هي وانكسر أنفي، طارت الذّبابة فشعرت بالغضب وملأني الحقد، مرّ أمامي طفل يقاربني في الطول وحملق إلي باحتقار، ثم قام بتعويج شفتاه من أعلى إلى أسفل باحتقار، ودون أي تفكيروبحركة غيرإرادية أشرت إليه إشارة أحقر، ازداد عطشي فأبصرت على يساري قارورة لم أعرف محتواها فأعجبتني رائحتها فاشتهيت شربها فشربت حتّى ارتويت ثم خرجت من تحت سقيفة البؤس. كانت سقيفة البؤس منعزلة في آخر شارع السّعادة مشيت على الرّصيف الجميل الرّائع ظمآنا، وحين اقتربت من البقّال حيث الفواكه المتنوعة المعروضة فقدت جسدي، زلّ منّي التّحكّم في خطواتي وصرت أرى الرّجل رجلين، والعمود عمودين، والطّريق طريقين، ارتميت على صندوق الفراولة فتبعثر هذا الأخير على الأرض، خيّل لي أنّني عصفور يخترق الأجواء بجناحيه أو أنّ الجاذبية كانت تتلاشى من الكوكب، كنت أرى كلّ ساكن يتحرّك وفي كلّ مرّة أحاول أن أقف تنزلق قدماي فوق حبّات الفراولة، كنت أضحك بدون سبب، لم أنتبه إلى ظهري التي كانت مطارا لركلات البقّال الضّخم، تمرّغت وسط الماء الآسن بجانب الرّصيف ثم اصطدمت بالعمود الكهربائي فانغمست في الماء الذي استنقع، صادفني الحظ للغاية لأنّ البقّال فعل بي ذلك، فلولا ضربه

لي لما حملني النّاس وما قاموا بإعطائي بعض الماء، بينما كنت أقع على الرّصيف والنّاس من حولي يسخرون سمعتهم يقولون "انظروا إليه، انظروا يا ناس! قبل أن يخرج من الأرض أصبح شارب خمر، انظروا إليه إنّه سكران ! أُعدمت تربيته و أخلاقه، اتركوه يتمرّغ في قيئه ودمه كما يتمرّغ الخنزير في القذارة، لا يحمل ذرّة من الأخلاق، أين أبوه؟ أين أمّه؟ النّاس تَلدُ والشّارع يربّي، يا له من لقيط، أكيد أنّه ابن عاهرة وفاجر" تلون المساء بلون الغروب وتغيّر الجو فتغيّر لون ثيابي واسودّ وجهي، كأنني كنت أسير على الرّصيف وأنا هارب من مصيري، أو ربّما كنت أتّجه نحوه راضيا بالشّقاء، مشيته هاربا من نفسي ومن النّاس، كأنّ الكوكب لم يعد يحتمل جسدي! أو ربّما أنّا الذي لم يعد يحتمل الكوكب! كل خطوة أخطوها تتبعها لعنة، وفي كل وقفة ملعونة تزدريني أعين، رجعت الصّحوة إلى العقل فأدركت أنّ الشّراب الذي ظننته عصيراً كان خمرا. إنّه الجوع، إنّه التّعب، كانت رائحة الشّواء الشهية التي تأتي من مطعم الكرم تجود على الأنف، كشّر لي الحزن أنيابه فتمزّق سروالي، فأصبحت فُكاهة تسير بين البشر، شعرت بكل شيء قبيح، كلّ من يراني يغيّر اتّجاه بصره، كان النّاس ينظرون إلي من غير أن يبصروا، كأنّني غير موجود أو ربّما موجود ولكن غير مرغوب فيه، لم أجد مأوى من غير صدر أمّي، تخلّلت بين الورى وانفجرت باكيا، شتمت كلّ شيء، لعنت حتّى الملائكة. عقد الظّلام عزمه على المجيئ فنشر أولى صفحاته فرجعت إلى الفندق

الماخور حيث تركت أمّي صباحاً. إنّ العاصمة التي دخلتها قبل أيّام وسحرتني بجمالها لم تعد سوى شيطانة قبيحة ترتدي الملائكية، والجنّة الخضراء الحيّة التي زُفّت إلى الحضارة والتّجديد لم تعد إلّا ضربٌ من ضروب الجحيم، بلغت بوابة الفندق فوجدت الحارسين عند المدخل فقلت لهما أنّ أمي موجودة داخل الفندق فابتسم أحدهما ودعاني إليه ثم سألني:

- هل أمّك جميلة، أين هي الآن؟

اقتربت إليه أكثر فتعرّف علي ثم قال مقهقها:

- آه...هذا أنت! لقد تغيّرت كلّياً يا ابن العجوز، هل تعرّضت...في الشّارع؟ ماذا حدث لأختك عفاف؟ لقد دخلت منذ قليل تخطو مثل جنديّ رجع من الحرب! أيّ حرب خاضتها يا ترى؟

تصارع الحزن وحلفاؤه وارتطم جيش البؤس بسعادة الزّيف داخل الرّوح الهادئة، أيّ هدوء؟ هدوء الجوع الذي يروي قصصا عقيمة المعنى، وقد كان الرّوع يقذف العقل بمعاني يسيء على الفتى فهمها، جارت الصّبابة فاشتقت لحضن أمّي بعد انقضاء يومٍ واحد فقط وأنا أتشرّد في شارع السّعادة، إنّه شارع واسع يملؤه الخير والجمال، حتّى الصّور التي كانت معلّقة عليه كانت جميلة وأصحابها كانوا يرتدون بدلات رائعة وأحسن ما في حسنهم تلك الابتسامات الدّافئة، على الرّصيفين النّظيفين اللّذان كانا يتقابلان اصطفّت أعمدة كهربائية رأسها يضيئ لو لم تطفئه يد

خفية، تعسّر علي قراءة اللافتات لأنّ أختي عفاف لم تكن قد اكتملت من تعليمي القراءة، وبطبيعة الحال لم أكن قد دخلت المدرسة، حتّى القصّة التي أعطتنيها موظفة الفندق كانت عبئا ذليلا، ولو وافقت على قراءتها لربّما انتهيت منها بعد سنة، كانت حوانيت شارع السّعادة رائعة، أمّا شارع السّعادة كان قبيحا، استقبل الرّوح المنكسرة بفأسه الملعون وكأنّه يضرب بها شياطين كُتِب لها الخلد في الجحيم، تجاوزت الحارسين السّاخرين وهرولت إلى داخل الفندق الماخور لألقى مفاجئة لم أكن أنتظرها، فاجعة لن تُنسى ما تنفّست، مفاجأة بالية غمسها الدّهر في مقراة الأسقام وقدّمت لضيف ظنّ أنّه هارب من شقاء القرية والرّيف فأيقن أنّه في ضرب من ضروب السّعير، حين ألقيت الكفّ لأقرع باب غرفة أمّي فُتح آليا وكأنّ شبح الوجوم فتحه، وقفت لدى الباب فرأيت عفاف نائمة بجانب أمّي، كان شعرها مشعثا منتفشا مثل قطة بريئة روّعها المسعور، كانت أمّي تحملق في وجهي بعبوس وغضب من غير أن تبتسم ارتميت في حضن أمّي فلم ترفع يدها لتحنو علي بحك شعري مثلما عوّدتني، كأنّها جثّة لم ترم مكان قضاها.

في زاوية من الغرفة غير الجميلة أبصرت عنكبوتاً بائسا فكّرت في أن اتّخذه صديقا، وحين تذكّرت أنّ العناكب تُصادق الفقراء فقط فكّرت في هجره، وأدركت أنّ العنكبوت أيضا صديق المصلحة، وفي الأخير حنوت عليه وسمحت له بالبقاء، ما فرحت أمّي لرجعة ابنها الذي غاب

يوما كاملاً في الشّارع، لا أظنّ أنّها بحثت عنّي، ولم أرى في تجاعيد وجهها إلّا الرّضا بالشّقاء، لا أدري لماذا كان ضوء الغرفة منطفئ أيضا! وهل تنير القناديل بيتاً سكنه الفقر؟ احتضنت أمّي بعنف فلم أشعر بدفئها بل أحسست بنفور متوحش و غريزة عتاب قاتلة، لم أشعر بدفئها بل كان جسمها يضخّ شرّ الصّقيع فتعجّبت! مددت يدي لألمس يدها فدمدمت الرّؤوم بكلام غير مفهوم، فسألتها إن كانت قد قالت شيئا فلم تجب، رفعت رأسي ونظرت إليها وحين التقى بصري في عينيها تروّع الفؤاد لما رأى، وانهدم الحسّ لما قرأ في قسمات وجهها! كانت عيناها تضطربان بغرابة ورأسها ثابت، دمدمت بحديث آخر فلم أفهم، لم تلبث حتّى ابتسمت، وحين ابتسمت لها مسروراً أطبقت شفاهها مثل كتاب أطبقه قارئ غاضب، ثم سكتت...ليست إلّا ثوانٍ حتّى ابتسمت فعبست، ابتسمت فعبست، ثم تجلّت من عمقها قهقهة مرعبة، قهقهة طال بها الزّمن فردّت صداها جدران البؤس تلك، انتصبت قائمة ثم قهقهت تكراراً ثم صرخت، صرخت مثل العبدة إذا سوّط الجلّاد خصرها فقفزت، بعد آخر قفزة ركضت في الرّواق حتّى خرجت إلى شارع السّعادة وكانت الأضواء مثل أضواء المسرح، وقفت وسط الطّريق ثم نزعت حجابها وباقي الثّياب وهي تصرخ، ولم ألبث حتّى رأيتها تجري في الشّارع صارخة وهي عارية...

تلك الوردة التي نبتت وتفتّحت في القمامة
يسمح لها الرّب في أن تحيا داخل مزهرية
فلماذا كسر العبادُ المزهرية ورموا الزّهرة
بالزّجاج والقذارة ...؟

عفاف
* على شاطئ البحر *

لا أدري ماذا حدث، وهل حقّا أصيبت والدتي بالجنون لسبب يتعلّق بالاعتداء علي في ذلك الليل، في الليلة التي سبقت جنون أمّي سمعت أصواتاً ترتفع وتخبى. أخافتني الضّوضاء المتجلية في الطّابق السّفلي أين تنام والدتي مع أخي الصّغير عثمان، تدثرت آملة في النوم والهرب من سماع تلك الضجّة التي أفزعتني وقد كنت في نوم عميق وأحلام جميلة، جاءني النّوم فجئته وبعد قليل من الوقت الذي انقضى أيقظني الرّجل وهو يمسك غليونه بيده، كان لطفه الواسع يمتد ليعانق فتاة فقدت أبيها وهجرت المدرسة، حزن ذويها فتاهت تيه العدّاء في المضرسة، الثياب التي كنت ألبسها خفيفة يمكنها خيانة الجسد، ولمّا دخل مدير الفندق إلى غرفتي بغليونه و جلس على السّرير استفقت من النوم، في البداية أصابني الخوف الشّديد فطفق القلب ينبض بسرعة الدقّات التي تكاد تسمع، دخل الغرفة من غير طرق للباب وقال أنّ الباب كان مفتوحا، هدأ القلب وعادت دقّاته إلى الانتظام، فابتسمت لمدير الفندق. قمت بحركات تشير إلى أنّني أريد ارتداء الملابس لأستر الجسم، ولأنّه طلب منّي المساعدة في ترتيب كتبه وبعض الملفّات داخل مكتبه المقابل لغرفتي أخبرته أنّني سأتبعه إلى ذلك المكتب بعد دقائق، لم يخرج ولم يحرّك ساكناً وشرع يحدّثني في أموره الخاصّة، حدّثني عن شركاته

الخاصّة، بشّرني بأنّه سيجعل لوالدتي مخرجا من الهم والحزن وصروف الدّهر، واعتذر على إزعاجه لي في هذه السّاعة المتأخرة من الليل وقال أنّه سيفعل المستحيل من أجل تحسين ظروفنا التي تميل إلى الهاوية، وسألني إذا كنت أريد العودة إلى مقاعد الدّراسة وقال لي أنّه يملك ذرعا أطول من ذرع فرعون، وقال لي أنّه إذا أراد شيئا فإنّما يأمر به فيكون، يسهل عليه تحقيق ما يريد، قال أنّه يستطيع تسجيلي في ثانوية قريبة للفندق، وبشّرني أنّه يمكن إكمال دراستي هنا في العاصمة.

لم أنتبه إلى أنّه ألغى فكرة ترتيب الكتب، كلّما شعرت بالخوف ازداد عطشي، وفي كل مرّة أشعر بالوجل أشرب بعض الماء من الكأس الذي آتاني به يحمله فأرى مدير الفندق يضحك ويصعب عليه الكلام، كان لسانه يتلجلج ويتلعثم وكأنّ صخرة وضعت عليه.

طلب منّي العمل معه في إحدى شركاته أو كموظفة في الفندق الذي نحن فيه مهمّتها استقبال زوّار الفندق والنّازلين به، شعرت بالحرارة ترتفع بداخلي وقد أنشأ الدّوار في اختلاساته العقلية، فجعلني أفقد السّيطرة على نطق الكلام أو التفكير فيما أقوله قبل النّطق، اقترب منّي أكثر وطلب منّي الخروج في نزهة إلى شاطئ البحر، كان الوقت متأخرا من الليل وقد كانت العاصمة مختفية تحت ستار الحلكة و الليل الغاسق.

لمّا أراد النّهوض من السّرير ليشغل التّلفاز وقد كانت السّاعة الواحدة ليلاً، رفع ساعده ليشغله أماله فهوى الجهاز وانكسرت شاشته فغضب مدير الفندق لذلك وكسر المرآة و أفاض الفوضى داخل الغرفة، كانت نسمات الليل تلعب بستائر النّافذة المطلّة على الحديقة الخضراء المزدانة، من النّافذة شاهدت السّحب السّوداء تسبح في الفضاء الواسع والقمر يختفي خلف تلك السّحب ثم يظهر منيراً العاصمة، كانت إنارة الحجرة غير مشغلة، ولا يضيئها إلّا قنديل صغير موضوع على الجهة اليمنى من سريري، ارتخيت كلّيا و فقدت أدنى طاقة تقوّي جسدي على الحراك بخفّة، تراودني عن نفسي إحساسات غريبة لم أشعر بها من قبل، عاد مدير الفندق وجلس بجانبي على السّرير ووعدني بأنّه سيجعل منّي ملكة، انتهيت من شرب ذلك الكأس فاختطفني الليل إلى عالم لا يرى بالعين، صرت مثل الورقة التي تطير بفعل الرياح، أو ربّما مثل ريشة تلعب بها الأعاصير، أحسست بوجهي ينسكب في إناء مثقوب، أو أنّ الوجه الذي أحمله ليس إلّا جلداً نتنا يمزّقه ذئب خائن.

انتهيت كلّيا من نفسي فما عدت أعلم من أنا وعندما أبلج الصّبح ألفيت نفسي في منزل ليس نفسه، وفي سرير غير الذي نمت عليه بالأمس، وجدت نفسي داخل حجرة يملؤها الغبار وفيها معدّات سباحة، فتحت نافذتها على مصراعيها فرأيت من خلالها وأدركت أنّني على شاطئ البحر.

عثمان

* القمح و السّم *

تفكّكت عائلة واهنة، عائلها شافعها بؤس الدّهر أينما حلّت، عائلة كسرها صرفٌ سيّء على صرف أسوأ فانكسرت صلتها وخمدت صلاتها، وما لبثت حتّى افترقت عبراتها مثل كونٍ أصابته اللعنة فزلّت منه الكواكب، عائلة مثل غصن قُطع من شجرة يابسة وحُرق في موقد أوقده الزّمن العجاب في أرض ما هي قفر.

مضت شهورٌ منذ أن تعرّضت الرّؤوم للجنون وتوارت عن شارع السّعادة الحقيروهي عارية، اختفت فصرت وحيداً يحاكي أحزان شارع السّعادة تحت سقيفة البؤس. لقد جُنّت أمّي بسبب الشّيطان الإنسي، كلما انفردت بنفسي اجترّرت نوائباً ورأيت صوراً قبيحة تعرضها الذّاكرة باشمئزاز ونفور، من أقبح الصّور صورة الرّؤوم حين جرّها صاحب القبّعة والغليون من قدمها نحو غرفتها، جرّها كالأضحية التي تذبح على الرّصيف ثم تسحب من رجليها لتُعلّق وتُسلَخ.

عندما التقمني الشارع قضيت أسوأ أيّامي متشردا، في أولى الأيّام بحثت عن أمّي ولكن لم أجدها، وكذلك عفاف قيل لي أنّها عادت للدّراسة في مدينة أخرى تابعة للعاصمة، وقال لي الحارسان السّاخران أنّ عفاف غادرت الفندق الماخور، فلم أشأ البحث عنهما وتمنّيت لهما السّعادة، إنّ الحزن إذا عمر فراغ السّعادة يقتل الشّعور بالذنب، والبؤس إذا

طغى واستعمر فؤاداً يحيا داخل جثّة تتحرّك يفقدها معنى الهناء والشّقاء، فيرى البائس أنّ هاذين الأخيرين معناهما سواء، وكذلك حدث معي فانتهيت عن بحثي عنهما، واستسلمت للبؤس المشرق مع كل إشراقة شمس، أمّا في الليل! فكانت أسناني تصطك بين وجه بريء يبكي حاقداً، وجسم كلّه يرتعد تحت سقيفة البؤس، استرحمت السّقيفة لتقي جسدي من صقيع الشّتاء وحرارة الصّيف الذي لا ترحم جهنّمه. وألماه...هل تمنّيتَ أو تخيّلتَ يوماً أنّك ستسابق قططا وكلابا مسعورة؟ أو أن تصارع وحشية الدّواب للضّفر بكيس رماه إنسيٌ مثلك في قمامة؟ كدت أن أتعلّم لغة الحيوان في شارع السّعادة، ذات يوم ولغ متشرّد في الإناء مع كلب، أتذكّر ليلةً عضّني فيها قطّ وفي صباح اليوم وجدت القط ميتا، ظننت أنّني سبب موته فاستغربت وتعجّبت! ولكنّني ذهلت حين لاحظت القطط جميعا تُقضى واحداً تلوى الآخر، ويوما بعد يوم أدركت مصيبة العالم حين رأيت إنسيا ينثر السمّ على القمامة ليقتل الدّواب، المصيبة هي أنّه يوجد من النّاس من كان يأكل من القمامة التي نُثر عليها السم، نثر السّمّ على القمامة في عصر الحياة الجديدة، وقد نُثر الزّرعُ قديما على الجبال حتّى لا يقُال أنّه جاع طيرٌ في بلاد المسلمين، لا أدري! ربّما أزعج الشّخص النّاثر مواءُ القطط وقد اتخذت أنا ذلك المواء موسيقى، لماذا نثر السّم ولم ينثر القمح؟

* بداية عاشقة *

لمّا فتحت النّافذة وألفيت نفسي في حجرة موجودة على الشّاطئ أدركت أنّ الكأس الذي جاءني به مدير الفندق ذاب بداخله شيء يُفقد الوعي، هويت مثل الجثّة التي سلب الموت روحها وجسدها ثم استيقظَت فوجدت نفسها في الحياة وهي تبكي.

لمّا ألفيت نفسي مرمية في تلك الحجرة المغايرة لغرفتي الموجودة في ذلك الفندق، نئت متثاقلة، خيّل لي أنّني فقدت جزءً من المخ أو أنّ طاقة ما تتحكّم في عقلي أو أنّ تلك الرّحلة أضغاث أحلام، خرجت من الحجرة وكنت ألبس ملابس نوم جديدة، لا أدري كيف خرجت من ذلك الفندق! لا أدري إذا كنت قد مشيت مع مدير الفندق حتّى الحجرة على الشّاطئ، خرجت من تلك الحجرة وكان مدير الفندق جالسا على كرسيّه المغروس في صفرة الرّمال وهو يحمل الصنارة ويصطاد.

- صباح الورد عفاف، كيف حال الجميلة؟ تناولي الفطور إنّه في غرفة الأكل هناك على يمين حجرة النّوم، هل أنت بحاجة إلى شيء؟

- كيف أتيت إلى هنا؟ أين أنا؟

- أنت على شاطئ البحر، غريبة أنتِ! بحر كامل أمامك، بل محيط أكمل! فكيف لكِ أن لا تدركيه؟

في ذلك اليوم قال لي مدير الفندق أنّني سأعيش حياة جديدة ولن أحتاج إلى أي شيء، وأنّ العاصمة ليست إلّا جنّة صغيرة يمكنني التّنعم بها

كيف أشاء ومتى أشاء، وأرشدني إلى عدم الاكتراث بالمعيقات وهو حيّ. قال أنّ الجدار الذي لا أهواه يمكنه هدمه بتسخير هدّام وجلب بنّاء يبني جداراً آخر.

رجعت الخلف فدخلت تلك الحجرة التي وُضع فيها سرير مزدوج وبعض أغراض السّباحة، على الجدار علّقت مرآة عريضة عكست صورتي، اشتقت إلى منزلنا البسيط الذي تركناه هناك في الرّيف، تمنّيت في ذلك الصّباح الفيئة إليه، منزل مغطّى بالقصدير يقينا من شرّ الدّواب والوحوش، قدّم والدي قبل اختفائه الكثير من الملفّات التي طُلِبت منه من أجل إعطائه سكنا، ولكن العدالة رفضت لأنّنا لا نملك وثائق ملكية مثل مدير الفندق الذي أخرجنا من الرّيف بوثائقه القانونية التي تسمح له حتّى بإدخالنا السّجن، لكنّ مدير الفندق عطف علينا ولم يعطف وعصف.

في كل مرّة كان أبي يقدم الملف آملاً في مسكن فلا يستلم إلّا الخيبة، وقد كان ذلك الرّيف تابعا لإدارة البلدة الجافّة الخاوية من صدق المسؤولين، وكان رئيسها ناقضا لجميع عهوده مستتراً بلباس القانون موسوما بالحنث، يرتدي ثوب الخلاع مصاباً بالرّيب والشّك في زيارة لجنة تفتيش أوربّاً من أرباب السلطة العليا إلى البلدة التي يشرف عليها فيهرع إلى الرّيف يسأل عن حالنا، يأتي رئيس البلدة ليتفقّد أهل القرية ويمددهم بتلك المساعدات الغذائية التي تكفيهم لأسبوع أو أسبوعين

لكنّه لا يستطع توفّيرلهم كل ما يريدونه لأنّه كان يأتي إلى الرّيف قبل الزيارات أو في فترة الانتخابات فقط.

إذا أتي بالقفف التي يوزّعها خُدّامُه على النّاسِ لا يخرج من الرّيف إلّا وقد صُفِّق له وضُرِب الطّبلُ، كانت الإعانات الجائد بها على الأهالي مجرّد أطعمة يصطاد بها رضى النّاس ليبايعوه على البقاء رئيساً للبلدة، يأتي إلينا فيحيط به جمهور مثل النّحل إذا ولج إلى الخلية. يُلقي عليهم برنامجه المسطّرويبشّرهم بالخيرات التي ستدخلهم إذا عانق كرسيه، وإذا تربّع على عرشه واستقامت قدماه على المكتب الفاخريحمل قلما ويشرع في تبريرات وإرسالات يبرهن فيها هناء وسعة العيش التي يعيشها الأهل هناك تحت الجبل، وأنّ النّاس جميعهم راضين بمعيشتهم.

أحسن إلي مدير الفندق وأكرمني وحقّق رغبة رفضتها والدتي قبل فقدان عقلها، وأعادني إلى الثّانوية وهناك التقيت بأفضل صديقة، كانت صديقتي تشبه القدر السّعيد والحظ الأسعد، كأنّها ورثت حُكما وحِكمة من عائلتها المحافظة فجعلت لي بعد الضياع شريعة فأذنبت في كونها ذنوبا غفرتها، وهناك في الثّانوية رمى الحبّ نباله ليغري فتاة اعتصمت و التجأت إلى الرّكود وعدم المغامرة في حرب لا تضمن الفوز بها، لكنّ جمال يوسف الذي عرفته جعلني أجاهد في سبيل إخفاءِ ذلك المكشوفِ الذي أخفاه القلبُ فنطقت به العيون، ولأنّ سحب الحبّ لا يختفي خلفها القمر إلّا أيّاما قلائل، ولأنّ السّماء لا يمكنها تورية لؤلؤ

النّجم إلّا في النّهارِ، وكذا الحب الصّادق إنّه مثل فجر ابتسم للوافدين على الحياة فأفرح بعضهم وويل لمن كان فجرهم كاذبا، ويطفو الليل بآنائه باعثا في نفوس هؤلاء العشّاق بهجة، وفي أفئدة الأحبّة راحة، وفي أوكار الطيور رحمة وعلياء ويرسل قمر المحبّة نوره إلى بنات الواد وبنات البحر. وحسرتاه على من كان قلبه بئرا يخفي المحبّة أو موقد الشوق فيكوي سيّده بجمر الحنين والصّبابة، وفي ليلة الدّجى جرت سفينة الغرامِ من غير شراع، فألفى القبطان نفسه يصارع اليّم من أجل البقاءِ، وماذا لو وجد نفسَه في ليلة خاليةٍ من البدرِ مشتاقاً لحبيبه وقلبُه في عُمق الغرام يغرقُ، وإذا استعبد الحب وجدان النّاس ورقاب الورى، فمن ذا من قيود الحنين يعتقُ؟ وماذا فعل إحساس الحب بقلوب تقية؟ عصف بها فجعل تقواها هباءً، وارتطمت أمواجه بسفينة القاسي قلبه فانهدمت قساوته، ما رُجِم المسكين ورُمي على الطرف جفاءً، وزلزل الحب قلوب الجنودِ، فمنهم من فاز في حربه وآخرون ماتوا في أرضه إذ بهِم ساءَ، وماذا عن السّائر إليه في قارب الوهن؟ وقد نسى مجذافه! فما أبحر زورقه ولا جاء، والبعض اتّخذوه أنشودة يتغنّون بها في صباح الرّبيع، وإذا عاد الشّتاء اتّخذوه ناراً يدفئهم من البرد الصّقيع، وويل لمن كان الحب ليله وكان الغرام سيله، فانقضى قلبه وإحساسه مع السّيل وكان غثاءً، وطوبى لمن أشرقت شمس المحبّة وأضاءت قلبه، وألهب لهيب الحبّ هشيم الأرواحِ وهلهل الجميع إذ قضى حظُّهم هم في الحرب على

الرّاءِ، وانتثرت حروفه الأسمى على سفح الجبال فأعتقت رقاب الطّيور من لوعة الفضاء، وبلّت سماء الهوى رفات العباد، وأحيت من قلبهُ ماتَ، وماذا فعل الغرام بكون الوئام وكيف جار على الخاشعين سلطانا؟ ألفى الصّالحين فغشى أنفسهم، وانتزع منهم هدوء الخشوع، وسلب منهم معنى الحياة، واكتسح النّواميس واقتحم المعابد، وأفزع القدّيسين وزعزع جدران القلاعِ وطار في السّماء يغرّد بأوتار الحياة.

كتبت في جمال يوسف شعراً ونثراً، واستسقيت المحبرة لتنسج السّطور على الصّفحات التي لا تخون النّفس، في تلك الثّانوية اشتعل الجمال والبهاء مثل النّار ثم أردفت سماء الهجر ماءً فأطفأتا سنينَ، كأنّ ذلك الحب كان راسخا في مصير أنثى تجلّت لها الأقدار المفاجئة بعد فقدانها للإيمان، كأنّ ذلك الحبّ سطرُ من التّاريخ فما شاءت صروف الدّهر أو نوائب السّنوات الضّائعة أن تمحيه، أو أنّه كان راسخا في كتاب محفوظ فارتحل إلى الحياة التي تزجيه، وفي جمال يوسف كانت بداية عاشقة.

* عاش شقياً ومات جائعاً *

في ليلة غريبة من ليالي بائسة وقد كان نور سماء العاصمة يسطع ببدرٍ مكتمل وسحب تمشي خببا وهي تبكي ساكبه دمعا رقيقا، جاءت عجوز شقية إلى سقيفة البؤس، سقيفة منعزلة عن شارع كئيب، كنت قد اتّخذتها ملجأ منذ أن خرجت إلى شارع السّعادة، ألِفَت السّقيفة جسدي النّحيل وألِفتُها، وألفت نحول العجوز المتسوّلة المحدودبة الظّهر وكانت المسكينة تحمل ظهرها بألم وكان من واجبه أن يحملها، جاءت العجوز ونامت كعادتها في مكان خليلي قرنفلة، عرفت هذا الأخير لأسبوع تعيس لم يمضي حتّى مضت معه روح قرنفلة، عرفته في أسبوع تحدّى الخلد في بقائه، لم يتمكّن النّاس من صنع شيء يفيد ذلك الفتى المتشرّد سوى أنّهم أطلقوا له اسم شهرة لم يعش به طويلا، لقد ارتاحت له الرّوح حينما صادفته في ليلة عسراء وقد كان يحمل كرتونا خشنا ويجرّ مستطيلاً من اللوح يتّخذه مضجعا.

كان قرنفلة في العاشرة من عمره، وكنت أكبره بسنتين إنّه مثل دودة بين براثن شارع، كثيرا ما حاولت الأفاعي ابتلاعه ولكنّه نجا، في الزّمن الذي كنتُ فيه أخجل وأستحي من أن أمدّ يدي إلى النّاس لأطلب منهم شفقة، كان قرنفلة يتسرب بين المحلّات ليصنع المعجزة ويسرق شيئا ثم يقوم ببيعه ويشتري لقمة نتقاسمها تحت سقيفة البؤس تلك، كان قرنفلة يتقاسم معي غنائمه ومع العجوز القصيرة مثل أنف بهلواني، رغم

البعوض الذي نخر أعلى منخار قرنفلة وشوّه له وجهه، إلا أنّه كان جميل الرّوح، شعره منتفش مثل هرّ مرعوب ووجهه مستدير أبيض، عيونه مثل زيتونةٍ أفرغوا على أطرافها القطران، أمّا أسفل عينيه يستبين الحزن والشّقاء وقد حفرت المآقي ضروبا على وجنتيه المحتقرتين.

حين سألته عن سبب تشرّده قال أنّ أباه طلّق أمّه فزعزع عرشه، ولأنّ قرنفلة كان يحمل نفسا كالّة تأبى رؤية ذرّة من وجه أبيه الذي لم يتزوّج أمّه، بل اشتراها، وعلى حسب ما قاله قرنفلة علمت أنّ أمّه بيعت إلى أبيه صاحب الثّراء ولم تُزوّج، بيعت مرغمة الفؤاد، كاسدة الودّ، نافرة العهد، وقبل الطلاق! سمع قرنفلة أبيه وهو يقول لأمّه: "إنّ والدك يا أمّ ابني باعك من غير مساومة، لمّا اقترحت عليه أن أطلب يدك منه فرح فرحاً شديداً حتّى أنّه نهض من الأريكة وعانقني بشدّة فزعزع مكتبي، لم يكن يهمّه سوى أن يزوّجك بالأغنياء ليُخرجوه من بؤسه وفاقته، كان بإمكاني أن أتزوّج بيافعات خير منك وأجمل، ولكن الحظ الحقير جمع أرواحنا في جحيم نفسه.

لم أكن أدري أنّ جمالَك سيضمحلّ فتتحّولين إلى وحش أنثوي، وأيضا لم أكن أعلم أن عشر سنوات كافية لتغيير حسن السّحنة إلى نحس الحسنة، إنّ الفقراء أمثالكم لا يحبّون في الأغنياء إلّا أرقام الصّك ويعشقون المال عشقًا جمّا، وإنّهم يطمحون للجلوس على الذّهب والفضّة ويحلمون برؤية صفرة الإبريز مستوية مثل استواء الدّك"

وقال لي صديقي قرنفلة أنّ أمّه المسكينة لم تكن ترضى بكلام أبيه، وفي كلّ مرّة يخاطبها خطاب الجحيم لأهله أوربّما يحادثها حديث النّار للحطب، أوربّما يحاكيها مثل محاكاة الشّتاء للأسفح، فإذا كان خطابه خطاب الجحيم لأهله، فأكيد أنّ المسكينة كانت تتعذّب، وإذا كان حديث زوجها حديث النّارللحطب، فأكيد أنّها كانت تحترق، وإذا كان يحاكيها حكي الشّتاء للسفوح فأكيد أنّها كانت تُنحَت.

عَلمتُ أنّ والد قرنفلة لم يكن يخفض جناحيه لعائلته ولم يأبى إلّا الرّفرفة على سماء أبغض الحلال (الطلاق) وكان يلعن المسكينة أمام ابنها ويقذفها بابنة الرّاعي. ويضرب الكفّ على وجنتيها الظريفتين الصّافيتين العذبتين الورديتين الرّائعتين الجميلتين أمام قرنفلة. وكان يدخّن ويثمل في مضجع المدمع وينعي حظّه لأنّه التقاها.

وحين يأتي المساء، تجيء إليه صديقاته، وأمه المسكينة كانت تضم إلى صدرها ابنها قرنفلة الوحيد من غيرأن تشكووهي تدمع في الخفاء مثل جثّة نتنة، في نفس الأسبوع أخبرني قرنفلة شيئا جعل العمر يتجاوز نفسه بمراحل فأدركت أنّ الفتى في عمر العاشرة يمكنه أن يشعر بشعور السبعينية، أومثل القائل: رمى الدّهرُ شبابي شيباً، شبتُ ولازال الشَّعرُ أسوَدَا، ما الشّائبُ من ابيضّ شعرُه، بل من بالهمّ قلبه تَسَوّدا، وفي صباحٍ تعيسٍ طلّق أبو قرنفلة زوجته بعد أن اتّخذ المال ربّاً له أمّا المسكينة أمّ قرنفلة العفيفة، لم تمضي إلّا أيّاما حتّى اتّخذت الهوى إله،

ولم تمضي ساعات منذ أن طلّق أبو قرنفلة زوجته التي صرخت صرخة أفزعت بها الأشباح حتّى انكشفت خفاياه، واتّضحت نواياه وكأنّ دعاء المسكينة استجاب في لحظته.

فما إن طلّق المسكينة حتّى جاءته الشّرطة وقيّدته وصعقته إلى الزنزانة، جاءته بسبب جريمة ارتكبها في السّابق، لكنّه لم ينم فيها ليلة واحدة وعاد لينام في بيته مع صديقاته الوفيات، وبعد أيّام أصابه مرض خبيث فهاجرت عنه صديقاته اللواتي صبرن معه في زمن الرّاح والرّاحة، وحين أنفق آخر دينار من خزينته في تطبيب علّته ولم يجد من يجود عليه بكأسٍ من السّم لإنهاء ألمه وتمنّى الموت، جاءته زوجته المسكينة التي طلّقها بعد أن عذّبها قولاً وفعلا، جاءته في دقيقة موته ففرح وسرّ، جاءته زوجته ولكنّها لم تجئه كاملة، بل جاءت روحها فقط فخنقته، لقد انتحرت أمّ قرنفلة ولم يرحمها الهوى الذي اتّخذته إله، ولمّا كان أبو قرنفلة يئن ويتأوّه، أمسكته روحُ زوجته من ربطة عنقه وأدارتها على رقبته فشنقته، وراوده الموت عن نفسه فاستعصم، وأيّ عاصمٍ من بني البشر يمكنه عصم روح العباد من المنون؟ أو إفاءة حياة جديدة لجثّة قضت.

حين قسى دهر الرّزء على قرنفلة وأسمعه نعي النّاعي لأبيه وأمّه، وقبل أن يبلّ من نوائب دهرٍ ساء به، أو أن يشفى من عليلة سكنت بين أمّه وأبيه حكمت عليه أيّام الصّبا بالانسلاخ من رحمة عائلة قضت، كانت خضة عينيه تزيد بهاءَ حُسنه وتروي قبح قبحه على وجه أبيض بريء

خرج صاحبُه إلى شارع السّعادة الحزين. خرج مسكينا بشعرٍ منتفش وقميصٍ مستعمرٍ، استعمرته خروقٌ ورقعٌ خالفت لون قميصه الدّاكن، يختلس نظرة هنا وهناك ليسرق برتقالة فينتبه له بائع الخير فيصنع له ما صنع بي يوم اصطدمت أنا بصندوق الفراولة في يوم رمضاء اللّفح.

ذات يومٍ كنّا نجلس تحت سقيفة البؤس جوعى وظمأى نرتدي ملابس رثّة بالية وخفّين ممزّقين، فمشى قربنا أناسٌ سألونا عن حالنا فأجبناهم أنّنا بخير فحمدوا الله ومضوا، وفي يومٍ حالك نزل وابلٌ من سماء مظلمة مرعبة ونزل معه صقيعٌ خالي من رحمة الدفء وقد كنّا نحتمي تحت سقيفة البؤس، فجاء بعضُ البشر وسألوا إن كنّا بخيرٍ؟ فقلنا أنّنا بخير وغير مرتعدين بالبرد، فذهبوا فرحين بإحسانهم ولم يعودوا، فنزعت معطفي ذا لونِ الدّكن وألبسته لقرنفلة لأنّ جسمه ارتعد وارتعش لساعات، ولمّا أبلج صبح نهارٍ جديد أرسلت الشّمس رحمةً بخل بها بني آدم فسررنا و مشينا في شارع السّعادة نستمتع بدفء الشمس، كان الشّارع عالقاً بين لعنات الباعة القلقين وتعاويذ الشّارين، سرنا فرحين مسرورين بالشّمس متمنّين أن لا تغرب، ولو نزل شيطانٌ واقترح على المسكين دخولَ الجحيم لرضى بجهنّم من شدّة عذاب أليمٍ عاشه في بلاد الرّحمة، كان ظمآن ما سُقي...وحين انتصف نهارٌ نحسٌ وانتصفت شمس الفضاء سماء الدّنيا تأملناها خائفين من الغروب القريب وجلين

من أن تسقط شمس مساء اليوم لمغربها مباشرة فنشقى، ألفحت رمضاءٌ حاميةٌ جسدينا فدخلنا مقهى كان عامروه يشاهدون في شاشة كبيرة مسرحية حزينة أبكت مشاهديها حزنا كبيرا، حنت قلوبهم بعد قساوة وتمكّنت شخصيات مسرحية الموت من إحياء قلوب وضمائر شتّى. كانوا واجمين عابسين محزونين على فتى في مسرحية الموت قُتلت أمُّه وأبوه على ناظريه، ذرف المشاهدون لمسرحية الموت دموعا نشفوها بظهر كفّهم خلسة، ورأوني وقرنفلة المسكين نقف لدى باب مقهى الرّحمة و كّل منّا مسربل بسربالٍ بَالٍ، وكان معطفي الأسود منفوخا كعادته وريشه يتطاير مثل شبحٍ يُنتف شعرُه في كل سيرة، أمّا قرنفلة فكان يرتدي قميصا داكنا مخروقا عدّة خروق و تعلوه قلنسوة حمراء بلون الدّم، وكان يضع نصفا منها على شعره الأصفر المائل إلى اليمين ونصفا يرتقي إلى الانتفاش، وكان وجهه شاحبا يحمله جسمُ نحيل.

وقفنا لدى باب مقهى الرّحمة لنرى في شاشته مسرحية الموت فرأينا الحزن وما رأينا المسرحية، فلم نلبث حتّى رأونا هؤلاء الباكين واقفين عند الباب، فأرسلوا إلينا شتائم قذرة ولعنات ما تُفيد تعاويذ ساحرٍ أو تلاوة كاهن في تخليصنا منها، قذفَنا الباكون لمسرحية الموت بأبناء الغانيات والمومسات لأنّهم ظنّوا أنّنا داخلون إلى مقهى الرّحمة لنطلب الرّحمة، وحقيقة الدّخول هي أنّنا أردنا شربة ماء بعدما اضطهدنا الحرّ في عذاب رمضاء شارع السّعادة، دخلنا قبل ذلك إلى مطعم

الكرم، وسوق الأخيار، وعبرنا على دار الأمن، فما رأينا غير البخل والشّر والخوف، خرجنا أنا وقرنفلة من مقهى الرّحمة محاولين إخفاء دمعتينا عن عينين عانا عيانا وسترا، حاولنا أن نخفي دمعتينا عن مقلنا فما استطعنا، من غير أن نشاهد بقية المسرحية التي أبكت بشراً وحطّمت أفئدة فصارت حسّاسة أكثر من ذخيرة دبّابة أو غاز يلتهب عند إشعال سيجارة.

عدنا إلى سقيفة البؤس وكنت قد عييت وتعبت إعياءً شديدا فألفينا العجوز المتسوّلة نائمة تحت حيط سقيفة البؤس، أو بمعنى أدق نائمة على جلفة من البلاستيك وبعض الكرتون، خفض لنا ظلّ سقيفة البؤس جناحه بعد أن خفض لنا جسم البشر شقاءه، استظللنا وورّد لنا برد الهواء فانتعشنا و العجوز، استحوذ جسمها النّحيل على مساحة لم تتجاوز القدم فجعلتنا نكتفي بباقي الضّرب ناظرين إلى هؤلاء البشر السّائرين على أرصفة ملمّعة وأعمدة سامقة وملعب كرة أنُفق عليه الدّينار الوطن ليُرى في سمائه عاملٌ يقوم بتنظيف مصباح، وكان الحقد الجائر بداخلنا يثور، حتّى أنّ قرنفلة أراد أن يحرق سيارة فخمة شبيهة بالتي جئنا أنا وأمّي وعفاف فيها من قريتنا النائمة تحت الجبل الأخضر حيث الفراشات ترقص والأغنام ترعى، قضى المساء مسيئا إلينا والشّمس آمالها مثل بهلواني يدفع كرة ضخمة إلى ظلِ المسرحِ ليركبها. ركب الظّل مساء اليوم والليل خلفه يمتطي جواده الحالك، كانت

العجوز صمّاء أو خريفة العقل، فإذا قلت لها قولا تُرنّح رأسها المصبوغ شعره بالحناء وتميله مثل الببغاء المحتار في كلام الإنسان وهو يريد إعادة الكلام ثم يدرك الببغاء أنّه أصمّ، لا أدري إذا كانت بكماء أو أنّ الحِبال الصّوتية قُطعت بسبب طعام القمامة حين نُثِرعليه السّم في بلاد الرّحمة، لا تحرّك شفتيها إلّا لتبتسم، لم تكن ابتسامتها جميلة لأنّها كثيراً ما أرعبت بها قرنفلة الفتى اللّطيف الطّليق في الشّارعِ القاسي، والمرعب والمرهب هو أنّ النّحس يسكن تلك الابتسامة الآمنة الهادئة، فكلّما ابتسمت العجوز المتسولة اتّسمت بالرّعب والإرهاب وجيء بعد ابتسامتها بفاجعة مفاجئة، يا ليتها لم تبتسم في ليلة الشّقاء وسمحت لهناء السّقيفة أن يؤنس الأفئدة الوجلة يا ليتها لم تبتسم! لم نجد ما نأكله في تلك اللّيلة فرضينا بالنّوم جوعى قبالة مطعم الكرم، بعد أن انتهى ضوء الشمس من جمع ومضِه طفق نورُ اللّيل في نشرِ السّواد فنمنا نحن الثّلاثة تحت سقيفة البؤس جائعين، افترشنا أنا وقرنفلة نوعاً من المطّاط وكان الليل الغطاء، يا ليت العجوز لم تبتسم.

قبل طلوعِ الفجر، أفزع الرّوح صخبٌ وجلبة ترتفع لدى القمامة، رِمت عن السّقيفة مهرولاً حتّى بلغت منبر الجلبة فوجدت البشر محيطين بجثّة أُخرِجت منها الأحشاء، وقال أحدهم ناصحا لهم "ادخلوا إلى بيوتكم قبل أن يحطمنّكم بؤس الجثّة، أو تصيبنّكم النتنة واتركوا الأمن والتّحرّي لأصحاب القانون، ولا تبلّغوا عن الجثّة الآن فتركنوا إلى

الشّرع، فتشرع المحكمة في التحرّي عن القاتل فيسيء بكم وتكونوا على الجريمة شاهدين، وسيبلج عليكم الصّبح إلّا وأنتم في المحاكم وأمام القضاة وعلى الكراسي تُسألون عن سبب القتل، وعن أمّ الجثّة وأبيها، وربّما تسجنون وأنتم لستم القتلة ولا أنتم بالمجرمين، ابتعدوا واغربوا عن هذا المشهد حتّى تأتي الشّرطة بأمرها فتعرف القاتل والمقتول، والمجرم والضّحية"، حين رأيت الجثّة عدت مسرعا إلى السّقيفة لأرى مكان صديقي فوجدته فارغاً.

يا ليت العجوز لم تبتسم، صعب علي أن أصدّق أنّ تلك الجثّة التي نُزِعت منها العينان وأعضاء أخرى هي جثّة صديقي المسكين قرنفلة، عاش شقياً ومات جائعا...

* فانها الحبّ فانتحرت *

رجعت إلى الدّراسة ودخلت الثّانوية أين أحببتُ يوسف أعجبتني المدينة الجميلة التي رحلت إليها وتركت ذكرى أمّي وأخي هناك في العاصمة، لم أصحب معي سوى ذكرى الآلام، حاولت ذاكرتي حذف الماضي فساعدني مدير الفندق الذي أخرجنا من القرية وعلمت أن اسمه باديس، إنّ المدينة التي رحلنا إليها والتّابعة للعاصمة كانت رائعة وواسعة على غير التي نزلنا بها في السّابق في ذلك الفندق، ساعدتني صديقتي رانيا التي كانت لا تتحدّث سوى عن الإسلام والمحاضرات الدّينية عن نسيان تلك الآلام، كان كلّ حديث رانيا عن شيوخ الدّين والأئمّة حتّى أطلق عليها الطّلبة والطّالبات اسم الجُمعة، الكثير من الطّالبات كن ينزعجن منها إذا جلست معهن ويطلبن منها إمامة المصلّين يوم الجمعة. وكنت أيضا أسخر معهن ولكنّها كانت تجيب على سخريتنا تارة بالعلم وتارة بسخرية مثلنا، فإجابات رانيا كانت قاسية فيها نوع من الحكمة ونوع من العلم ونوع من الغضب، فإذا غضبت لا ترفع صوتها أو تتخاصم بل تنطق بكلمات ثائرة بصوت هادئ.

وذات مساء سألتها فتاة مشهورة في الثّانوي باسم شحرورة، وكانت شحرورة طالبة في الصّف الثّاني ثانوي، حين دخلنا أنا ورانيا القسم في فترة الرّاحة وجدنا شحرورة تجلس على المكتب وتلعب باللّبان بين شفتيها، جلست رانيا على كرسي المكتب بحجابها الفائض وجلبت أنا

كرسيا وجلست قربها، بينما كنت أحادث رانيا إذ بتلك الفتاة تقطع حديثنا، قاطعتنا وسألت رانيا عن سبب ارتدائها الحجاب، وقالت لرانيا أنّ الحجاب نوع من التّخلّف وأنّه يجعل المرأة معقّدة ولن يسمح لها بالتّفتّح على العالم أو الاندماج فكريا مع الآخرين، وسخرت شحرورة من أبي رانيا لأنّه أجبر ابنته على ارتداء الحجاب عقاباً لها، وقالت أنّ شرف البنت لا يدافع عنه قماش فضفاض أو أفكار زالت وانتهت قديما ولم تعد صالحة لعصر التطوّر والتّكنولوجيا، وقالت أيضا أنّ البنت شرف أبيها وأهلها، وهذا الشّرف تضمنه ثقافة المرأة وقراراتها وتطلّعها نحو الحياة والإيديولوجيات المتعامل بها بين المرأة والرّجل، وأنّ أبيها ليس إلّا جاهل.
كانت رانيا تسكن مع أمها وأبيها التّاجر في ريفٍ منعزل وبعيد عن المدينة الجميلة، كانت رانيا تستمع إلى حديث شحرورة بهدوء، أمّا شحرورة فكانت تحرّك رجليها وهي تمضغ اللّبان من غير توقّف و من حين لحينٍ تمسح سروالها الجينز الضيّق و الشّبيه بالسّروال الذي كنت ألبسه، رضيت بلبسه لأنّ العم باديس مدير الفندق رفض أن أعمل لديه أو البقاء في فندقه وأنا أرتدي الحجاب، فأرغمت على العمل متبرّجة وسرعان ما اعتدت على ذلك، انتهت شحرورة من استهزائها وسخريتها بأسئلة الاحتقار فأجابت رانيا المحجّبة بهدوء:
"اسمعي جيّداً يا بنت النّاس، أن تتبرّجي وتتعرّي وتدّعين الثقافة والتقدّم

فليس لي في أمركِ شأن، ولكن أن تحاولي إقناعي أنّ الثّقافة والتفتّح والتّطور، وأنّ الاندماج الفكري والتّواصل بين المجتمعات يكون بالتعرّي فأنا أفضّل الاعتزال، وإذا كان التّفتّح يعني فتح أقفال على الصّدر لتظهر للنّاس المستورة، فأفضّل إغلاق باب حجرتي والموت غيظا ثم أدخل الجنّة على أن أعيش السّعادة فوق صراط يؤدّي إلى جهنّم. وبالمناسبة يا...لا أود مناداتك شحرورة! اسمعي، إنّ أبي توفّي وقد كان فلّاح، واعلمي أنّ الجهلة قديما كانوا يقتلون بناتهم حين يولدوا خوفاً عليهم من العار، وأبي المثقّف الذي لا يفقه شيئا في التّكنولوجيا وأبي العالم الذي لم يدخل المدرسة قط، وهو التّاجر والفلّاح الذي يعشق الأرض، واعلمي أنّ أبي الذي سخرتِ منه ما رضى لي العيش مثل سلعة معروضة للذباب والهلاك. لقد جعل منّي امرأة يملؤها الحياء والعفّة، هل تسمعين بإنسان عاش قديما وكان يدفن البنات؟ ورغم أنّه كان جاهلاً إلى أنّه رفض العار وعمرته الغيرة على أهله ولم يرضى عيش حياة الخنازير، رُبّ امرئ جاهل ملؤه الغيرة خير من عالم خنزيرٍ، أمّا أبوك الذي سمح لك بلبس لباس العار فلا أظنّه إلّا خاطئا في دينه ودنياه وبعيدا عن الدّين، سأسألك سؤالاً، من هو الشّهم وصاحب الأنفة؟ هل هو الرّجل الغيور أو الرّجل الدّيوث؟

وإذا وضعنا أباك على كرسي المقارنة، فمن الشّهم بينهما في رأيك؟ أنا لا أحرّضك على والدك ولكن أريد منك يا بنت النّاس تصحيح ثقافتك

وثقافة والدك، وفهمك للحياة و أن تُفهميه هو أيضاً، إنّ الفكر الذي تمتلكينه يستحي الجاهل إذا نطق به، فكيف وأنت مقبلة على الجامعة؟ إذا أردت الجمال فالجمال جمال الرّوح ونقاؤها، والعزّة الشّامخة هي شموخ امرأة ارتقت بدينها إلى نفس مطمئنّة، وبدنياها إلى علمٍ يشق لها سبلا إلى الفردوس، وليس امرأة زجّت بنفسها في دائرة عدم تقبّل الحقيقة، فعاشت حياتها في دائرة كما يقال دائرة مغلقة، أمّا إذا أرت معرفة الحرّية التي قلتِ أنّ أبي سلبها منّي، فإنّ حرّية المرأة وكما قال المفكّر علي شريعتي: "حرّية المرأة لا تعني أبداً تحرّرها من الملابس والزّينة التّقليدية، إنّ حرّية المرأة تعني حرّية الاختيار وحرّية التّفكير وحرّية الحياة"، إذا أردت تقليد الغرب فاعلمي يا بنت النّاس أنّ أولئك الذين تقتدين بهم وقد قال مصطفى لطفي في كتاب قرأته له أنّ هؤلاء قتلت بيئتهم غيرتهم.

وسأقول لك أنا أنّ البرمجة التي تبرمجوا عليها قضت على حيائهم وغيرتهم، واعتادوا على الرّذيلة فصاروا يرونها ثقافة، ولكن نحن عندنا الإسلام الذي أنعم الله به على العباد، فيوجد من شكر لله وحمد ثم التزم وعبد ويوجد من بطر النّعمة وكفر، ثم ألقى وجحد، إذا كان عقلك مؤمنا بأنّ التعري تفتّح، وأنّ الكاسيات العاريات يحملن فكراً وثقافة فأنصحك يا شحرورة بالتعلّم أكثر ثم صنع سفينة سفر عبر الزّمن والعودة إلى زمن الجاهلية، لقد نشرتم فكر الجهّال في زماننا، ولم ترضوا

بالحق والحقيقة فجعلتمونا نعيش التّناقض بين الدّين والدّنيا والحّق والباطل والصّدق والنّفاق، وإذا فعلنا الصّائب قلتم أنّنا قديمون، نعم...! نحن قديمون يا شحرورة، وإذا متنا ادفنوا جثثنا في المتحف لأنّنا قديمون وقليلون هاه...قالت تفتّح وتقدّم"

صفّق الكثيرون في القسم بعد انتهاء رانيا من الكلام وكان جبينها يتدفّق عرقاً، ولم تنتبه لهم لمّا كانوا يصغون لها، فكانت تجيب على شحرورة بنوع من الحكمة والعلم والغضب، أمّا شحرورة فقامت بسروالها الجينز الضّيّق متبخترة ومترنِحة الأطراف وخرجت من القسم، ما راق لها حديث رانيا فخرجت شحرورة بخيلاء و شباب القسم ينظرون إليها، لقد فُتِنوا بجسدها بعد أن خشعت قلوبهم لله وهم يستمعون إلى رانيا المحجّبة.

ومنذ ذلك اليوم، أصبحت رانيا الجمعة تُحترم، وصار حديث رانيا الجمعة مبلغ قيد يُكتب بماء القلب، لم أكن أهوى الحديث مع رانيا في موضوع التبرّج وفي كلّ مرّة تفتح موضوعه أشعر بالملل، وأكره الجلسة إذا تحدّثت معي عن الدّين، لم أكن أكره الدّين حاشاه بل كنت أستحي من نفسي حين أرى ما أعيشه، ولأنّ العم باديس مدير الفندق جعل التبرّج شرطاً للعمل فما كان علي سوى الموافقة، فأين أهرب من الجوع؟ انقضت شهورٌ فاصطحبتُ معي رانيا بجلبابها الجديد إلى الفندق الذي أعمل فيه، لمّا وصلنا إلى هذا الأخير، وقد كنت انتهيت من اجتيازرخصة السياقة قبل أيّام فاشترى لي العم باديس مدير الفندق سيارة خاصّة،

وكان الفندق الجديد في المدينة الجديدة أجمل من الأوّل وكذلك المدينة، فتح لنا الحارسان البوابة الرّئيسية وقد كنت أشبه بالسيّدة في الفندق فرحّبا بي، الكل كان يوقّر حضوري ويحترم غيبتي، لم أكن أعلم إذا كان ذلك الاحترام مبنيا على وظيفتي في الفندق كموظفة في مكتب الاستقبال، أوكان احتراما زائفاً اصطُنع لي لأنّني كنت قريبة من العم باديس الذي كان سياسيا محنّكا، وقد علمت جواب هذا السّؤال بعد كثير من السّنوات، علمته بعد تقدّمي في العمر وطردني رجلٌ آخر يدير أملاك العم باديس، لقد كان الرّجل دكتوراً ومختص أطفال، رحّب بنا الحارسان فدخلت معي رانيا بجلبابها إلى الفندق، وفي الليل شرعت رانيا الجمعة في حديثها عن مكانة الحجاب في الإسلام فأوقفتها قائلة: أي...رانيا، أنت لائقة لإلقاء الخطب في المسجد جرّبي ذلك الجمعة المقبلة، فقط قومي بشراء لحية اصطناعية وقميص أبيض كي لا يتفطّن لك المصلّين. وسأتدبّر لك أنا أمر الوصول إلى المنبر، سمعتُ أنّه يوجد شيوخ في الدّين، ولكنّي لم أسمع بشيخة، غيّري الموضوع فضلاً أو أمراً ولا تجعليني أغضب" كانت رانيا تتقبّل سخريتي وتفاهاتي بصدر واسع أحيانا أنصت لها وأحيانا لا أنصت، لمّا كانت رانيا تتحدّث كنتُ منشغلة بالتّفكير في أخي عثمان، وأمّي المجنونة الضائعة، وأبي الغائب، فماذا لو عاد أبي إلى المنزل في القرية ولم يجدنا، وماذا لو التقيت به هنا في العاصمة وأنا ألبس هذا اللّباس؟ وفجأة عاد عقلي من عالم التّيه ذاك، وكان الليل

صفحة داكنة وهو يهمس بأصوات هادئة، فسمعت لرانيا التي قالت: "إنّ التعرّي ليس حرّية شخصية يا عفاف بل هو جهل يطبّق بطرق غير مباشرة، إنّ العقل الحكيم والإنسان الذي لا يكذب على نفسه لا يؤمن بأنّ التعرّي تفتّح، إنّ الإنسان العاقل يدرك هذا، في الجاهلية كانت المرأة تستخدم كآلة بشرية لإشباع رغبات وحوش الشّهوانية كانت المرأة ملكا للجميع، كانت تباع وتشترى رغما عنها، تمشي أمام الملأ برغباتهم، يسيّرونها ويجعلونها ترقص بنصف ثياب أو بغيرهم أصلاً، في القديم كان الجهّال يدفنون بناتهم أحياء لأنّهم كانوا يظنّون أنّ الإناث يجلبون لهم العار، أمّا اليوم، فأصبح الكثير من الذين يُدعون بالمثقفين والمتعلّمين يشترون لبناتهم عجائب اللّباس ويشجعّوهن على التعرّي وصنع العار لمّا جاء الإسلام أعطى للمرأة حقّها ووهب لها الحرّية وجعلها أرقى من آلة، أعاد لها حتّى المفهوم الذي فقدته في ذلك الزّمن، المفهوم الذي سلك سبيلا في حياتها في عدّة حضارات قديمة حتّى استسلمت للرّذائل و أصبحت تشعر أنّها حقّا ملكا للجميع، هل تعلمين أنّ المرأة في حضارة البابليين كانت وسيلة عقوبة للزّوج؟ فإذا ارتكب الرّجل جريمة قتل، يعاقبونه بقتل زوجته، فما دخل زوجته إذا كان هو القاتل؟ و في الحضارة اليونانية كانوا يؤمنون بامرأة خيالية تُسمّى بندورا وكانوا يعتقدون أنّها سبب الشّر في المجتمع، وإذا قرأنا الحضارة العربية قبل نزول القرآن، نجد أنّ الكثير من العرب كانوا يدفنون الإناث وهنّ

أحياء، ثم جاء الإسلام وحرّر المرأة من قيود الظّلم والجور، وأعطى لها الحق في لبس الحجاب وعدم التبرّج كي لا تُؤذى، وعادت لها حرّية التّفكير، والاختيار و الحياة، فلماذا إذاً تقولين أنّ الحجاب نوع من الجهل؟ وقد جاء به الإسلام ليعيد حقوق المرأة ويدافع عنها، هل علمتِ الآن يا صديقتي أنّ العري والتبرّج اللّذان أصبحا يسمّيان بالتّفتّح كان في الجاهلية الأولى، وأنّ الإسلام جاء للتّعليم والحكمة وأنّ التفتّح الذي نعيشه اليوم هو نفسه الجهل الذي كان قبل أكثر من ألف عام؟ هل تأكدتِ أنّ الإسلام الذي تقولين أنّه معقّد جاء للتقدّم وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه؟ لقد كانت المرأة هكذا أو أكثر!

إنّ الحقيقة التي أقولها لك ستجعلك تكرهين أقوالي يا عفاف، أوربّما ستتولّد بداخلك أحقاد مظلمة ضدّي، لمّا جاء الإسلام وأمر النّساء بالحجاب وعدم التبرّج أصبحت المرأة حرّة لا تُباع ولا تُشترى، أصبحت جوهرة في طاقم طاهر، ولمّا هاجرت المرأة نسبها البحت وفكرها الصّائب وابتعدت على الحقيقة وجعلت التّبرّج والتّعرّي تفتّح وتحضّر، أصبحت تباع وتشترى من جديد، ونرى ذلك في الشّارع والأسواق ودور بيع الهوى، وقد بلغت هذه المعضلة حتّى المدارس، ألا يبصر هؤلاء ما يحدث في العالم الإسلامي بشكل عام؟ ألا يبصر هؤلاء أنّ قواهم الفكرية والعقائدية والرّوحية تهوى يوم بعد يوم إلى الهاوية وهم مفتونين بالثّقافة العقيمة والتّطوّر التّكنولوجي النّافع؟ فصنعوا من الثقافة تبرّجاً واختلاطاً

فقضى على حيائهم ومبادئهم، ومن التّكنولوجيا بنوا سدّا فصل بينهم وبين دينهم فما استطاعوا أن يظهروه ولا استطاعوا له نقبا. كأنهم يصنعون الهاوية لأنفسهم وما أدراك ما الهاوية! وجب عليكِ يا عفاف أن تعلمي الحقيقة، أنت لستِ من هؤلاء، أعلم أنّ الحياة سلبت منك معناها، ويا أسفي للاعتداء الذي وقع لك، ولكن الإنسان الحكيم هو الفائز في النّهاية"

- يا لي من تعيسة حظ، خطبة الجمعة تكون يوماً واحدا في الأسبوع، وأنا الجمعة ترافقني ليل نهار، وطيلة الأسبوع، إنّ نتاج قراءتك للكتب صار واضحاً، لقد أهدتك المطالعة ثرثرة أكثر من ذي قبل...

مرّت علينا تلك الليلة في الفندق، ومضت أيّام كثر...وفي صبيحة يوم كنت جالسة فيه على مكتب القسم مع رانيا الجمعة، أبصرت من النّافذة الطّلبة والطّالبات يصنعون دائرة بشرية محيطين بواقعة لم أدركها، نزلت ورانيا عبر الأدراج فبلغنا السّاحة حيث كان الطلبة والطالبات مجتمعين وقد أحاط بهم الهلع، فأرعبتني تلك الدّماء التي كانت تصنع خيوطًا وأشكالا مخيفة، إنّها دماء شحرورة، بعد أيّام علمت أنّ حبيبها خانها فانتحرت...

* الخراب الأسود *

عجز شبح سقيفة البؤس أن يتصدّى للزّمن، عجز في دحضه ولو لدقيقة، إنّ عسر الزّمن غائرٌ في يسرٍ اتّصف به، وببساطة ! فإنّ صفة الزّمن العبور من غير ازدحام، هل الزّمن يخالف فطرة الكائنات وشمولية عيشهم وينعزل عنهم فينجلي وينقضي ولا يأبه لهم؟ أو الزّمن يعني الكائنات نفسها حين تُقضى؟

البشر يتزاحمون وكذلك الأفكار في عقلٍ لا يمكنه أتّخاذ أي قرار، الكائنات في الغاب تتزاحم، الطّرق تتزاحم إلّا الزّمن فإنّه يعبر بهدوء ومن غير التفاتة، عبرت سنة ثمّ ثانية ثم ثالثة، مضت ثلاث سنوات من غير أن تزدحم أو أن تلتفت، أمّا أنا فقد اتّخذتني سقيفة البؤس عبداً، تعسر على المرء الرّؤى الرّائعة إذا فكّر في هجر سقيفة البؤس، ويسر عليه التّفكير في هجرها إذا قرّر بناء قصر أو قلعة.

أنا لم أفكّر في أي شيء، لا هجران السّقيفة، ولا بناء القصر، بل اكتفيت بالتّيه الأبكم، والنّظر الغير مُبصِر. أحاول إطفاء النّار غير المشتعلة، وإذا كنت قد فكّرت فأكيد أنّ تفكيري كان في بناء سقيفة بؤس أخرى. اكتفيت بإقناع نفسي أنّ الجسم بخير لأنّه لم يُحرق ولكن الرّوح ناقضت الجسم، وهناك يكمن السّقم الأعظم، وهناك جهنّم الحياة، إنّ أعظم إنجاز أنجزته هناك في ذلك الشارع هو أنّني صبغت سقيفة البؤس بلون أحمرٍ، والحيط صبغته باللّون الأبيض، لم تنقضي سنتين

حتّى غادر اللون الأحمر سقيفة البؤس بفعل الشّتاء والثّلوج وقطر لونه على رأسي مثل الدّم، أمّا الحيط الأبيض فصار أسوداً، لم أكن أدخّن إذا جاءت العجوز المنحوسة لتحتمي تحت رحمة سقيفة البؤس. هناك في شارع السّعادة ارتفعت عمارات جديدة وصُبغت أخرى بألوان فاتحة و رائعة، وبيعت منازل وتزوّج كثيرٌ من شباب شارع السّعادة، لقد سررت لزواجهم وباركت لأكثرهم، لقد أفرحوني حقّاً بإقامتهم الولائم والطرب والغناء، أحيانا كنت أرقص في أعراسهم سكراناً ثملاً فأدحض من الوليمة مثل شيطان قُرئت عليه آية فأخرجته، سررت أيضاً لمآتمهم وأحزانهم، لأنّ الجوع والشّقاء يجذبان البشر إلى الأعراس والمآتم متناقضي الشّعور، وأحيانا سعداء لأحزان الغيروهم لا يشعرون. انقضت ثلاثة سنوات من الحزن العذاب في شارع السّعادة، إنّ العذاب لا يسلب من الإنسان شعوره بالألم بل يجعله يكسب نمط الاعتياد، وفي ذلك الاعتياد تُفقد معاني الأشياء، ويفقد المعتاد إدراكه للعالم، ويشرع في البحث عن الحب أو الكره، يبحث عن شيء مفقود موجود، ممنوع مرغوب، يبحث عن أي شيء يسد هوّة أشرقت في مكان ما بداخل روحه، يبحث عن شيء تافه فيقدّسه لأنّه فقد شيئاً عظيما عليه فصار فؤاد عقله خاويا، ما هو الشيء العظيم الذي فقدته أنا؟ هل هو المنزل المبني من الطوب في القرية؟ لا أظنّ أنّه هو... في عمارة رائعة عالية في شارع السّعادة كان يسكن واعظ ولطيف، شابّان توأم، ملتزمان يشعّ

من وجههما نور البهاء، شعرهما فحميٌّ شديد الحلكة، وعيونهما أشدّ ظلاما من ليل الشّتاء، أمّا وجههما فكانا أسمرين عريضين ولهما منكبين واسعين، لا يفترقا إلّا في السّجود، كثيراً ما كانوا يأتون إلي ومعهم بعض الأكل وأحيانا إذا كانت اللفحة خبيثة يجيئون بقارورة ماء يعطوها إلي.

رغم مرور ثلاث سنوات وأنا هناك تحت سقيفة البؤس إلا أنّ التّوأم واعظ ولطيف لم يكونا يقضيان اليوم من غير أن يقطعا الشّارع وينعطفا بقربي نحو المسجد للصّلاة، يقولون سلاما فأقول سلام، قمصانهما قمرية فإذا رأيتهما تحسبهما قمرين يمشيان، إنّ الابتسامة لا تغادروجههما الأسمرين السّابحين في أعماق جمال الخلق، وكان والدهم صالحاً ولكن بعد أن حُكِم على أبيهم بالإعدام حدث لهما الرّزء والإذلال، نعم كان والدهم صالحا، وبعد أن سقط حكم الإعدام واستبدل القدر إعدام أبيهما بحكم السّجن المؤبّد وقعت وقائع ربّما يستحي إبليس من سماعها، ولكن والدهما لم يبقى أيضا في السّجن إلى الأبد، بل أمضى سنوات قليلة ثمّ خرج.

يا ليته لم يخرُج، ليس سهلاً أن يخرج الإنسان من جحيم فيجد نفسه في جهنّم ثانٍ، أو أن ينام آملاً في أصبوحة رائعة لأنّه سيذهب فيها لخطبة حبيبته التي اصطبرت معه دهراً هُدِر، وبعد أن انقضى على حبّهما زمن مزن من العشق فصارت المسكينة ولهى وهو ولهان، يا ليت والدهما لم يخرج من السّجن، حدث له مثل الحبيب إذا نام وحنين العشق يعانق

وسادته وحين استيقظ من نومته رأى أنّ الظّلام لايزال يعانق ليله فينام كرّة أخرى آملاً في تلك الأصبوحة ثم يستيقظ فيجد الظّلام أكثر حلكة، فينام تارة أخرى وقد براه الشّوق إلى شروق الشّمس وإبلاج الصّبحة فيستفيق ضربة ثالثة فيلقى الظّلام قطراناً في سواده، وينام ويستيقظ، وينام ويستفيق، وهو ينتظر طلوع الفجر فلا يطلع من النّهار شيئا، ولا يرى إلّا الظّلمة وكآبة اللّيل فيغشى عليه النّعاس، وكلّما استفاق يجد الظّلام الأعسر.

وفي يومٍ مشمس طرق بابه فاستيقظ، حين فتح عينيه ونوى فتح الباب، احتار في الطّارق الذي يطرق بابه والظّلام لا يزال حالكاً، وحين يرى القنديل الموضوع على يمينه يجده منطفئ، وإذا أراد مغادرة مضجعه ليرحّب بالطّارق يصعب عليه النّظر، لا يسمح له ظلام الغرفة بالرّؤية، ولأنّ حاسّة اللمس لاتزال حيّة لديه يفوّض لها ضرب الرؤية، فيغادر مضجعه ملامساً الجدار حتّى يبلغ الباب، حين فتح الباب أحسّ أنّ الحرارة شديدة وأنّ الحرّ يلفح وجهه الذي ينتظر إبلاج الصّبح لخطبة حبيبته الجميلة، فتح المسكين الباب فلفحت النّار وجهه فتعجّب من حرارة الليل، واحتار في لفح الظّلام، وحين أراد رؤية الطّارق لم يوفّق في ذلك لأنّ الظّلام كان أشدّ بؤسا من قبل، فتح المسكين الباب فعلى صوتٌ قربه يزجره ويلعنه ويقذفه بالخائن، وحين صفعته حبيبته ونفثت عليه مثلما ينفث الصّالح على الشيطان فرح لصوتها، إنّها حبيبته

تزجره عتاباً. زجرته وحذّرته من البحث عنها، ولكن المسكين استعطف حبيبته واسترحمها ووعدها أنّه في حين ما طلعت الشّمس سيأتي لخطبتها، فلا تلتفت إليه تلك الحبيبة وتسير في الطّريق تحت أشعّة الشّمس ماسكة بيد حبيبها الجديد، والمسكين لايزال واقفا لدى الباب يناديها ويحاول رؤيتها في تلك الحلكة، ويعدها أنّه سيأتي لخطبتها بعد الشّروق، ولكن المسكين لم يستطع أن يسمع صوتها ولم يستطع رؤيتها. وبعد مرور أيّام وهو يحيا حياة الشّوق في عالمه المظلم، وكانت الصّبابة تكوي قلبه الحاني إلى ضوء النّهار، وفي ليلة من الليالي وهو ينتظر شروق الشّمس انتبه إلى أنّ خيوطا طويلة تلامس جسده النّحيل الذي براه الجوع والعطش، فيلامس تلك الخيوط بيديه لعدّة ساعات، ويدرك المسكين أنّ شعره طال وأنّ الكثير من الأيّام قد مضت وهو ينتظر شروق الشّمس وأنّه أعمى.

كان الشّابّان واعظ ولطيف يذهبان لصلاة الجمعة مبتسمين فرحين، وذات يوم سمعتُ أحدهما يتمنّى لأخيه أن يبقى معه حتّى الموت، بل كان يتمنّى أن يدخلا جنّة الفردوس معا، وأن يلتقيا بالرّسل والشّهداء والصدّيقين، وأن يسعدا في جنّات النّعيم معا، وقيل أنّ تلك الأمنية قالها أحدهما للآخر قبل وداع بعضهما البعض، وأيضا كانت لهم في الدّنيا أمنية وهي إطلاق سراح أبوهما المسجون والمحكوم عليه بالمؤبّد، وبعد أيّام من توديع واعظ لأخيه لطيف سطع نور براءة أبيهما وخرج

من السّجن، يا ليته لم يخرج، قضى تلك السّنوات من غير أن يخبل أو أن يقطع اليأس، قضاها صابراً جلدا، قضاها متشوقا لعائلته يصلّي لها ويستأنس بذكراها، في كلّ يوم يرى في مخيلته أنّ ابنه لطيف يزيد طوله، لأنّه ورغم الشّبه الذي بينه وبين واعظ إلا أنّ لطيف كان أقصر من أخيه واعظ، وكان جميلا أيضاً.

أمضى الأيّام والشّهور والأعوام داخل السّجن والحنين يحرق جفونه المشتاقة لزوجته هانة، قيل أنّ زوجته هانة كانت جميلة فالتهبت روحه لها حبّا وهو في السّجن، وكانت لصّبابته وحشة موقدة في أعماقه لابنته نريمان ذات السّابعة عشر من العمر، كانت نريمان تمقت أخاها واعظ لأنّه يمنع عليها الحديث مع أي شاب في الجامعة، ولأنّ نريمان كانت تعشق الجلوس ليلاً خارج المنزل مع جارتها، فكان واعظ ينهاها في كلّ مرّة يجدها تجالس جارتها ليلاً، ويحاور أمّه هانة ويطلب منها أن تتحكّم في نريمان، وأن لا تسمح لها بالجلوس خارجاً، لم تكن أمّه تأبه به ولنصحه، ولم تكن تقبل حشر أنفه في أمور أخته، بل كانت تردّ الحجّة عليه وتقول "أنّت أيضاً تدخل متأخراً دوماً"، وتقول له أنّها هي المسؤولة عن تربية نريمان، وأنّ أمور البيت في غياب ربّه لا تسلكها إلاّ ربّته، وأنّهم جميعاً خرجوا من بطنها وهي المسؤولة الوحيدة لأمورهم كلّها. وتحذّره من المساس بأخته نريمان وتمنع عليه حتّى أن ينصح أخته، وتحذّره من أن يسيء إليها سواء بالجسد أو باللسان، وأنّه ليس من شأنه أن يصنع

حدوداً لأخته نريمان أو أن يلعب دور بطل العائلة، وحينما يريد واعظ أن يبرهن دخوله المتأخر فيقول لأمّه أنّه كان في المسجد يصلّي صلاة العشاء، تردّ عليه أمّه قائلة: " تصلّي...! يصلّي، وماذا تنفعك الصّلاة؟ هل نفعت الصّلاة أباك الذي قتل رجلاً بريئاً، شاباً مسكينا له زوجة وأولاد وأصدقاء يحبّونه؟ هل تريد السير في طريقه يا بُني؟ ماذا تفيد الصّلاة في المسجد أصلاً؟ عش الحياة، عش الحرّية فإنّك تموت موتة واحدة فلماذا تمنع نفسك والآخرين من التّسلية واللّهو".

انتقلت أخبار منزل السيّد عابد المسجون بين الألسن وفي مدّة قليلة انتشرت فضيحته في شارع السّعادة، و قصّها لي بائع مخدّرات كنت أبتاع من عنده الحبوب كان ضخما وعينيه مغمّضتين حتّى في صحوته، وجهه دائري وشفتيه عريضتين مرعبتين، ويرتدي سروالا داكن اللون وواسعا، حين يمشي في شارع السّعادة يهابه الجميع ويبتسمون له ابتسامة الذّنب، ولذلك أعجبني، أعجبت به لأنّه كان خبيثا وماكرا، يراوغ النّاس بأفكاره الشيطانية و كان يكذب على الجميع ويحتقرهم، وذلك ماكنت أريده للجميع، أردت أن أنتقم من جميع سكّان شارع السّعادة، وما وجدت السّبيل. انتشرت قصّة عابد المسجون، وجارهم هو النّاشر الأول للقصّة، فقد سمع ذلك الجار واعظ وهو يردّ على أمّه "يا أمّي، إنّ أبي لم يكن ينوي قتل ذلك السّارق الذي هجم علينا ليلاً، وإنّه أراد ردعه، وربّما وكزه فقتله، أمّا حديثك عن الدّين والصّلاة، فهو

خطأ أبي قبل زواجه، ولو تعلمين كم هو مؤلم وعظيم أن أقول لك هذه الكلمات، لهانت الجبال وثقلت عليك الأحاسيس التي توخز قلبي الآن بإبر تعذيب".

تتالت الأيّام فكنت أرى واعظ يقطع الطّريق وينعطف قرب سقيفة البؤس بلحيته الصّغيرة ذاهباً إلى المسجد لكنّه لم يكن يذهب مع أخيه لطيف الذي تمنّى يوما أن يدخلا الفردوس معا، بل كان يذهب إلى المسجد مع شابّ آخر اسمه عبّاس وكان يثق في عبّاس ثقة جمّة كانا ينعطفان يمين سقيفة البؤس صامتين محزونين لأنّ أمّ واعظ ارتدّت عن دينها وصارت ملحدة وكافرة، أمّا أخوه لطيف فقيل أنّه انقطع عن الصّلاة، وكانت المدلّلة نريمان تسخر من أخيها واعظ وتحتمي تحت ميل جدار أمّها، حين علم واعظ أنّ أمّه قد أقنعت أخاه لطيف وأخته نريمان بالكفر وأصبحا مرتدّين مثلها، وأمكنها الجهل من أن تعلّم ابنها وابنتها شيئا منه، أصبح المسكين يسير سيراً غريباً، وقيل أنّ واعظ اشترى لوازم الطّبخ وصار يطبخ منفردا، قيل أيضاً أنّ أمّه أرغمته على الكفر، وقالت أنّه إذا لم يرتدّ عن دينه ستحرمه من الإرث، ولن ينال متراً واحدا من الأراضي التي تملكها، فرفض واعظ كلّ ذلك وكان ينصحها بالاستغفار والتّوبة، ولكن قلبها كان يزيد قساوة على قساوة وتراكمت آثامها وشاعت كبائرها بين سكّان شارع السّعادة وانتشر بين النّاس أنّ أمّه تبيع الهوى فنفر منه النّاس وأصبح المسكين يُرى أنّه ديوث ومنافق، وأنّه كاذب وفاسق، وأنّه من شياطين الإنس.

اصطبر على أذى الجميع وعلى أذى الأعداء وعلى أذى أمّه، وحين قسى قلب أمّه أكثر فأكثر واشتدّت قساوة أخيه لطيف وأخته نريمان نحوه، وتبيّن له أنّ أمرهم بين إصبعي الله ولن يقلّبهم سواه انتهى عنهم وهاجر، لكنّه اشتاق لهم في غربته وكان يحن إلى الماضي ويشتاق لأبيه، وفي ليلة من ليالي الاغتراب التقى واعظ شاباً من أقربائه فأخبره هذا الأخير أنّ أمّه مريضة فجاء المسكين وعاد إلى منزله آملاً في أن يهدي أمّه، جاء آملاً في أن يغيّر شيئاً في قلب أمّه أو ربّما يهدي أخوه لطيف إلى الهداية أو يرشد أخته إلى الرّشد، قيل أنّه حين بلغ شارع السّعادة وقف بعيداً عن منزل أمه فرأى رجلاً يخرج من الدّار وآخر يدخل. ابتسم لأنّ أمّه لا تزال مكانتها في قلوب الأقارب حيّة فلو لم تكن لها مكانة عظيمة لديهم لما جاءوها زائرين سائلين عن حالها، ليست إلّا هنيهة حتّى أبصر أخته واقفة مع رجل في الشّرفة وما إن رأته حتّى اختفت. ولم يتيقّن من هو الرّجل أهو خاله فيصل أو عمّه فاضل؟ في كلّ مرّة يدفع قدميه للتقدّم إلى الأمام وعبور الطّريق ليدخل منزله يشعر أنّ روحه تدفعه للرّجوع إلى الخلف وعدم عبور الطّريق والخروج من زمنه العقيم، قيل أنّ المسكين قاوم نفسه ليقترب من منزله وقيل أنّه حين دخل المنزل وجد أمّه مثل شجرة خانها اللّحاء في حضن جاره، فابتسمت له فصُعق ولم يلبث حتّى رأى أخته مثل الثّلج يسطع على معطف صديقه عبّاس الضّخم القبيح، أمّا أخوه لطيف فقد كان جالساً مع رجل على دكّة خشبية وضعت للجلوس

وهو يحاكي رجلاً اتّخذه زوجاً وقيل أنّه كان يطالب بالزّواج منه. في تلك اللحظة لم يستطع واعظ أن يُلقي موعظته أو أن ينطق بحرف يكسبه الأجر، وقد رأى أمّه تنبس له ببنت شفّة وأخته تقهقه لمّا رأت دهشته، أمّا أخوه لطيف فقد ارتعش رعشة مرعبة حين رأى أخاه واعظ، كأنّ جسمه زلزل ثم هوى على الأرضية حيث كانت الرّائحة الكريهة، ترك الرجل قدم لطيف بقوة وارتدى ثيابه وخرج مصعوقا خائفا، أمّا واعظ فكان منتصبا مذهولاً وكأنّه جبل وتد لا يحرّكه صرصر، ثم نادى لطيفٌ أخاه واعظ ولمّا اقترب منه هذا الأخير من غير يسر وبعسر شديد، قال له لطيف "واعظ...أخاف أن لا ألتقي بك في تلك الدّار، أشعر أنّ ملك الموت يقف عند رأسي، قل لي يا واعظ فأنت الأخ الصّالح، ماذا أقرأ من الآيات لأطرد ملك الموت؟ هل من تعويذات يا واعظ؟ إني خائف من الجحيم يا واعظ، أظنّ أنّها..." قيل أنّ الرّوح خرجت من جسد لطيف وهو بين ذراعي واعظ وقبل ذلك ودّع لطيف واعظ، ضحكت كثيراً حين سمعت بموت لطيف، ولكن الشيء الذي خفته وأنا تحت سقيفة البؤس هو أنّ الكثير من سكّان شارع السّعادة أصابهم مرض السّيدا، حتّى عبّاس لم يفلت أمره، وذلك الجار أيضا لم ينجو.

انقضت أيّام وشاءت الأقدار أن تحرر عابد من سجنه بعد أن حُكِم عليه بالإعدام لأنّه قتل رجلاً ظنّ أنّه لص ثم تبيّن أنّ اللص ليس إلّا صديقا لزوجته هانة منبع السّيدا، في يوم خروج عابد ربّ الأسرة من السّجن اكتشف النّاجون من المرض منبعَ السّيدا فغضبوا غضباً شديداً فأحرقوا منزل واعظ وكان هذا الأخير قد رحل من العاصمة إلى وجهة لا يعلمها إلّا الله، ولكن هانة أمّ واعظ وابنتها كانتا حزينتين على لطيف وكانتا داخل المنزل فتحولتا إلى رماد، حين كان يسرع عابد إلى بيت امرأته وبنيه وكان مشتاقا لهم، كان اللّهيب يحرق جثّة زوجته وابنته، بلغ مجمع منزله فوجد عنده ضربا من الجحيم، فقُصّت عليه القصّة فاصطبر يومين ثم وجدوه ينتعل نعلا واحداً وقدميه مترنّحتين في فضاء نفس الغرفة التي أُحرقت فيها جثتي زوجته وابنته، لقد وجدوه مشنوقا فحاولوا إنزاله على رمادٍ اتّخذه زماناً جنّة ضجوع، لكنّهم فشلوا وأبقوا على محاولتهم حتّى نزل جسده منفصلا عن الرّأس، لم ينزل رأس عابد وبقى عالقا في الحبل داخل الخراب الأسود.

* الحب الجميل والفراق *

في ثانوية السّيّدة عائشة التقيت بيوسف الشاب الذي جاءت به الأيّام من غير موعد سابق، يوسف الشّبيه بالبدر، منذ أن رأيته لم أعد أستوعب الدّروس، كان ذا شعرٍ أسودٍ وعينين زرقاوين ووجه بشوش حفّه البهاء والحياء، شابه في طباعه طباع رانيا التي ما انفكّت يوماً عن حديثها المتعلّق بالكتب والدّين، إلا أنّ يوسف كان ينتقد الثّانوية ونظامها الذي قال عنه أنّه لم يبني للطّلبة روح العقيدة كما سمّاها، وكان البعض يقولون له أنّه لا وجود لشيء اسمه روح العقيدة بل توجد العقيدة ولا سواها، وإذا شرحها للطّلبة يقول أنّها الرضا بالإسلام وأركانه رضاء إحسان، والقناعة به قناعة مفروضة وليست ملفوظة، وتعليم شرائعه تعليما عَمَليا فتعمل به الأرواح والجوارح وليس تعليماً عِلمِياً تحفظه الذّاكرة، وكان يقرأ الكتب الدّينية أكثر من الرّوايات والقصص، وذات يوم قال لنا مقولة أعجبتنا نحن الطّلبة والطّالبات، والشيء الذي رأيته فيه عظيما هو قراءته ومطالعته لمختلف الكتّاب والأدباء، ومثال ذلك في مقولات يقولها لنا فندرك وساعة ثقافته ورونق روحه الأدبية، كان يعشق الأدب ويدافع عن عقيدته، ومن أوسع ثقافة وحكمة من متديّنٍ مسلم أديب؟ قال لنا مقولة (لستيفن كوفي) وهو كاتب ومؤلف أمريكي شهير بكتاباته في التّنمية البشرية، وكانت المقولة كالآتي: "نحن لسنا بشر في رحلة روحانية، بل نحن أرواح في رحلة بشرية" ولذلك كانت

مطالبه تتعلّق بروح الإنسان وعقيدته، لا بالمادّة والجسد، وكان يوسف يقول أنّ العقيدة ليست تقليد وراثي يأخذه الإنسان من أجداده بل هي علم مكتسب يسأله الإنسان من العلماء والحكماء. كانت أفكاره شبيهة بأفكاررانيا الجمعة، رانيا التي لا تتحدّث إلا عن الحجاب.

لمّا أراه وأرى عينيه يرفرف القلب إلى تلك السّماء التي يتيه فيها العاشقون، إلى ذلك الفضاء الواسع الذي ينشرعلى النّاس أحاسيس مختلفة الألوان، إذا رأيته في الشّتاء يتحوّل هذا الأخير إلى الرّبيع، وأرى الشّجر اليابس أخضراً، وأرى الشّمس في سطوع وجهه وأرى جنّة النّاس في عذوبة صوته الحنون، كان مثل درّة في زجاجة، والزّجاج كأنّها كوكب هادئ، صعب هو شراك الحب! فحين يصطاد النّاس يكسرلهم تلك اللؤلؤة المخفية في داخلهم فيجعلهم سعداء أو تعساء ويصنع لبعضهم جنّة الرّاحة والاطمئنان، ويجعل آخرين يعيشون العذاب، إذا أويت إلى النّوم في الفندق أتذكّره، وإذا استفقت ليلاً أراه في وجه القمر، وإذا أشرقت الشّمس تحجبها عنّي صورته الدّافئة، في حضوره أرى نفسي مثل سمكة تائهة في أعماقه وهي تتمنّى العيش في برّ الهيام، ثم تتخيل نفسها أميرة في قصرحبّه، وفي كل مرّة كان يغضّ بصره، كنت أراه مثل كتلة جليدية ترفض رؤية الشّمس خوفا من الذّوبان، ولكنّه لم يدرك أنّ تلك الفتاة قطعة جليد تذوب في عينيه

السّماويتين يوما بعد آخر، لقد كسر الجمود الذي احتل القلب فجعل منّي شاعرة حتّى أنّني كتبت فيه كثيراً من القصائد والخواطر، وذات يوم كتبت هذه القصيدة ووضعتها في محفظته البسيطة.

وَدَدْتُ عِنَاقَ سلامَ الغَرِيب*

وَأهدي ورداً لودّ الحَبِيـــب*

رَميتُ سِهاماً وقلتُ لِسهمٍ*

توارى بِعمقِ الحَبيبِ الغَرِيب*

فَعادَت سِهامِي إلي ومـــاَ*

أصابَت فؤادَ البَعيدِ القَرِيب*

فَيا ذو الغُرورِ جَلَبتَ ضرَر*

فَتَحتَ جِراحا وأنتَ الطَّبِيب*

ثَمِلتُ ودَمعي ودمعَ القَلَم*

يُواسِي بِشعرِي خُدُودَ النَّحِيب*

أَبيتُ اللّيالِي أُحَاك القَمَر*

وأَنتَ النّجومُ فَويحَك تَغِيب*

في صباح اليوم الموالي وقبل الدّخول إلى القسم مشيت في فناء الثانوية مع صديقتي رانيا فرأيته، كان ينظر إلي نظرة الخفاء ولكن نظرته كانت خالية من الابتسامة أو أي إشارة منه، كنت أنتظر بشوق ابتسامته لصديقه عامر والذي يشبهه فكرياً، كأنّني الوحيدة غير الصالحة بينهم، وكأنّ الأقدار حاولت صنع منّي فتاة غير أنا فجمعتني بهؤلاء، ولكن العالم لم يرضى ذلك، كانت هيئة صديقه عامر مختلفة عنه ولم يكن جميلاً مثله، من الأشياء التي تُعتبر الدّاء والدّواء في نفس الوقت هي ابتسامات من نحب إذا لم يكونوا محبّين لنا، كان يوسف سماء الحياء والحشمة في الزّمن الذي أحبّت فيه الطّالبات الطّلّاب الذين يدخّنون وأصحاب الأجساد الضّخمة فُتِنتُ أنا بلحيته، فُتنتُ بكلامه ونعومة روحه كنت تائهةً في غرام لم أحلم به يوماً، في كل مساء أعود فيه إلى الفندق وأجلس على كرسي مكتب الاستقبال أتمنّى رؤيته يدخل الفندق ليحجز شقّة، وددت أن يدخل الفندق ويقول أنّه يريد شقّة في الطّابق كذا فأشير إلى القلب وأقول له الشقّة هاهُنا، ما أتعس القلوب التي تُجن لمّا ترى الحسن، وما أغبى العقول التي لا ترضى بالتّفكير في بلاط العشق، فإذا حدث ذلك سيصير القلب والعقل متصارعين ولن تحدث بينهما الهدنة حتّى يُبرى الجسد، افترقت مع رانيا في الفناء لأنّها ذهبت للبحث عن فتاة من أقربائها لأمر شخصي.

وبينما كنت أسير بمفردي إذ بي أسمع صوتا نادى باسمي، ولمّا استدرت إلى الخلف ألفيت المنادي عامر وكان عامر صديق يوسف، سألني عامر عن صديقتي رانيا واستفسر إذا كانت مخطوبة أو لا، فقلت له أنّها غير مخطوبة، شعرت أنّه سألني كارهاً لي لأنّني كنت متبرّجة أرتدي ذلك السّروال الجينز الأحمر، لم يكن يدري أنّ حياتي شبيهة بالغرابة، أو أنّها مثل غصن أخضر يترنّح على شجرة يابسة، كان عامر ذا وجه أسمر منتفخ أفطس وقبيح، وعينين سوداوين كأنّهما يودّان الهروب عن وجهه المريب، ولم يكن محبوبا عند أي طالبة، كانت تفاحة آدم تُرى ضخمة أسفل ذقنه وأذنيه كانتا كبيرتين مقعّرتين وكانت جبهته مستديرة مثل صحن، ووجهه المنتفخ المكوّر مخيف، ولم يكن يحبّ الحديث مع الفتيات، والشيء الأكثر غرابة هو جسمه النّحيل الحامل لوجهه الضّخم القبيح، وكان يعرج في مشيته، ولأنّه لم يغيّر سرواله الأسود المخطّط بالأبيض منذ دخولي الثّانوية قبل ثلاث أعوام فكنت أراه غريبا في شكله مريبا في مظهره، وكان يُرى مثل متشرّد بائس لم يعد يطلب من الحياة سوى الموت، نظر يمينا ويساراً كي لا يسمعه أحد وطلب منّي أن أسأل رانيا إذا كانت موافقة على زواجه منها فضحكت مقهقهة عليه دون سيطرة على نفسي، لم ينبس بكلمة ولم يرفع رأسه واستدار إلى الخلف وسار عائدا إلى يوسف الجالس في الجانب الآخر على الكرسي الخشبي الذي وضعه أستاذ الرياضة خصّيصا له، غاب مثل بومة هاربة من ضياء الشّمس،

ولكنّه لمّا يقترب من يوسف أو لمّا يتحدّث معه أراه جميلاً. وأحيانا أتمنّى أن أكون هو بقبحه لأحاكي يوسف، في ذلك اليوم حدث مالم يكن في الحسبان، مزيجٌ بين التّديّن والتمرّد، خليطٌ بين الحكمة والجنون، ولنبسّط الحديث نقول أنّه نوع من الفكاهة والتعقل، دخلنا القسم وجلس يوسف وعامر كعادتهم في أوّل طاولات الصّف الأخير البعيد عن الباب ثم دخلت أستاذة التّاريخ إلى القسم كانت تلبس بنطالاً وقميصا شبه شفّاف، ورغم وساعة البنطال الذي تلبسه إلا أنّه كان يُرى ضيّقاً على جسدها الأوسع، وكانت تسريحة شعرها الطّويل حتّى الخصر رائعة، وكنت أنا أجلس مع رانيا الجمعة في الطّاولة خلف يوسف وعامر، لم ترضى رانيا تغيير مكانها المعتاد ولكنّني أرغمتها على ذلك.

ولأنّ رانيا كانت جزءً مني فكانت لا تنفك عن ناظري وتجلس بجانبي في الطاولة، لمّا تحرّكت تلك المعلّمة على المصطبة بجسدها الذي فُتن به الطلبة، سمعت عامر يقول ليوسف: "أنظر...ارفع رأسك وانظر يا يوسف، أليس النّظر في وجوه الصّالحين عبادة؟ لا تنسى، كاد المعلّم أن يكون رسولا، انظر!"

سمعت أنا ورانيا تلك الكلمات فانفجرت ضاحكة، استدار يوسف نحونا بنظرة مفترس، ثم بعدها غضّ البصر وقبل أن تنتبه الأستاذة إلى أنّ الطّالبة التي ضحكت هي أنا كنت قد أطبقت شفتاي وطفقت في الكتابة وكأنّ شيئاً لم يكن، انتصبت المعلّمة المتبرّجة في هيئة عسكري وقد كان

وجهها ناعما أكثر من الجبن وقالت "إنّ هذه الطّالبة التي ضحكت الآن عديمة الأخلاق والتربية، وإنّها تمثّل صورة عائلتها وتمثل والدتها وأبيها" ثم حرّكت نهديها واستدارت بجسدها الضّخم إلى السبّورة لتكمل كتابة الإشكالية، شعرت بالأذى ولكن لم أتأذى كثيراً لأنّني كنت معتادة على أذى النّاس، أمّا بخصوص قولها حين قالت أنّني أمثل أمّي فربّما كانت على حق، لأنّ أمي التي تعرّضت للجنون قبل ثلاث سنوات وخرجت إلى الشّارع من غير ملابس، كنت أشبهها قليلا في الملابس التي أرغمني صاحب الفندق على ارتدائها إذا كنت أودّ البقاء في العمل عنده، وربّما كانت محقّة في شأن أبي لأنّني كنت ضائعة مثله، كنت أبحث عن الحب في ذلك الفتى يوسف وتمنّيت أن يعمر حبّه مكان أمّي وأبي.

راقبته فلم يرفع رأسه ليرى المعلّمة واكتفى بغضّ بصره، وبعد مضي دقائق استدارت المعلّمة تشرح لنا الدّرس وهي تذهب وترجع على المصطبة، ولمّا شرعت في حديثها ونصحها لنا، وقالت أنّ موعد اجتياز شهادة البكالوريا قد اقترب ولذلك وجب علينا المثابرة أكثر، وقبل أن تنهي كلامها سمعت عامر وهو يسأل يوسف "هل تدرس في الجامعة يا يوسف؟" فقال له يوسف "لا أعلم، وهل سمحت لنا المتبرّجات بالتّعليم؟"، راقبته ولم يرفع يوسف رأسه لرؤية المعلّمة حتّى صرخت هي في وجهه قائلة "هاااي أنت أنا أتحدّث معك يا يوسف! إمّا أن ترفع رأسك وتتابع الدّرس، وإمّا أن تذهب هناك وتقابل الحائط واقفا حتّى تنتهي الحصّة".

رفع يوسف رأسه ونظر إلى المعلّمة وهو ماسكاً لحيته الصّغيرة وتابع الدّرس مرغما، وكنت أضحك عليه أحيانا إذا بحث عن مكان للصّلاة فلا يجد إلّا سخرية الطّلبة والطّالبات، أكثر ما تمنّيت بقاء يوسف عليه هو وحدته إذا غاب عامر عن الثّانوية، فإذا غاب عامر يبقى يوسف بمفرده، ولأنّه كان يسعى بالمعقّد فلا طالبة من الطّالبات كانت تودّ محادثته، ارتحت أنا كثيراً لذلك ونسيت إخبار صديقتي رانيا بحديث ذلك القبيح الوجه وبطلبه قبل دخولنا القسم، لم أضع مكانا لعامر في الذّاكرة، انقضت ساعتين درسنا فيهما مادة التاريخ فخرجت أستاذة المادّة من القسم مختالة في لباسها الرّائع وبقيتُ ورانيا هناك في القسم ننتظر دخول أستاذة الشّريعة، أمّا يوسف فقد كان متناقضا في حيرته، رأيته وهو يحدّث عامر بغضب ويقول له "مللت من المدرسة ومللت من هذا المنهج، يدّعون الإسلام ولا يطبّقونه، يريدون بناء عقل لنا معلوماتي ويكسرون لنا العقيدة، يزعمون الإصلاح بالعلم وهم مفسدون في الأرض، يطمحون لبلد آمن وهم يهاجمون أفكار الإنسان وطموحاته وكل ما يتعلّق بروح العقيدة يريدون أن نعيش الإسلام لفظاً وليس فرضاً، كأنّ هدفهم الوحيد هو أن ننطق بالإسلام من غير أن نطبّقه وإذا طبّقنا نطبّق من غير أن نفهم، يودّون أن نكون مسلمين بالوراثة، يريدون إفقادنا الجزء الرّوحي الأسمى والذي فيه تكمن السّعادة والهناء، وفيه منبع القناعة وسحر الجمال والبهاء، يريدون منّا أن نكون مجرّد بطاقات

ذاكرة، تحفظ وتحفظ وطوبى لمن له ذاكرة قوية، يأتون بعناوين وأسماء ويطلبون منّا حفظها، قل لي يا عامر...! حين يجيئون مثلا باسم العالم الألباني أو ابن باز أو ابن عثيمين، أو مثلاً يجيئون باسم الأديب طه حسين أو دوستويفسكي وربّما هيمنجواي و جبران خليل جبران أو محمد ديب أو غيرهم من الأدباء، ثم يأمروننا بالحفظ والحفظ هل ذلك الحفظ يجعلنا مثل الألباني رحمه الله، أو غيره من العلماء أو الأدباء؟ قل لي يا عامر...! هل العلم يعني أن نعيش ماديين بعيدا عن روح العقيدة، أو أن نعيش علمانيين من غير أن نشعر؟ هل يريدون أن يبقوا على اسم الإسلام و يمنعوا الالتزام بشرائعه؟ لماذا يريدون أن نعيش التّناقض وأن نبقى دائما في حيرة.

لقد أصبحنا لا نفرّق بين الخطأ والصّواب، أخرج الآن يا عامر وانظر ماذا يحدث في الفناء على أعين الأساتذة والمراقبين، لا يوجد جدار خالي من طالب وطالبة علم يفسقون قولا وفعلا والجميع يرى، هل تعلم أنّه لو بقينا هكذا سنصبح أضحوكة تضحك من جهلها الأمم، وسنعيش في ظلام لن تتمكّن العلوم والتّكنولوجيا من إخراجنا منه؟ هل تنفع قلوبَنا المعلوماتُ والتّواريخ وهذه الأسماء التي نحفظها وهذه التّعريفات؟ العلم هو ذلك النّفع الذي يجعل الإنسان يبصر الحقيقة ويعمل بها لينفع نفسه والنّاس، أمّا العلم الذي يجعل الإنسان يتحصّل على علامة ممتازة في الامتحان فقط! فهو مجرّد خدعة، أنظر إلى الحقيقة من غير

عينين، هل أصبحنا عميٌ ونحن نرى؟ أو عُميت القلوب فلم نعد نُبصِر؟ إنّنا نعيش في زمن وجب علينا فيه أن نُبصِر لا أن نرَى"

حين أكمل حديثه أخرج من الدّرج رواية كانت للكاتب الفرنسي ألبير كامو، وكان عنوانها "الغريب" حين سمعته يتحدّث عنها وعن معنى من معانيها اقتربت منه وسألته أن يعيرني إيّاها ليومٍ أو اثنين، لقد جعلتها ذريعة للحديث معه، بمجرّد أن نظرت في عينيه الزرقاوين استحى وأعارها لي، كان خجولا يملؤه الحياء، جميلاً ينيره البهاء، مثل قمر في ليلة الدّجى، حين أردت الحديث معه لمزيد من الوقت أزعجني عامر القبيح الأفطس صاحب الجبهة الشّبيهة بالصّحن والوجه المكوّر المنتفخ وسألني إن كنت قد سألت رانيا عن الزّواج به، وقال أنّه يحبّها منذ سنتين ولم يخبرها بذلك وقد كانت رانيا خلفنا تتحدّث مع فتاة أخرى وهي مثل الجوهرة في جلبابها الأسود، ولأنّ التّفكير يُنفى في مجلس الحب، أجبت عامر القبيح وقلت له "نعم إنّها تقبل الزّواج منك، اذهب واطلب يدها، وبما أنّك تحبّها فأكيد أنّك تعلم منزلها" فرح عامر القبيح ووقف مسروراً فرحا وكاد يصرخ، فأمسكه يوسف وأجلسه مهدّئا إيّاه، ثم شكرني يوسف على الخبر الذي سرّ صديقه فاستحيت بأعجوبة، وانقلب السّحر فصار يحدق في وجهي وأنا غاضّة البصر، ما شاء إنزال عينيه ولمّا رأيته يرمقني براني حبّاً، أخذت رواية الغريب وجلست على مقعد في آخر طاولة الصّف الأخير، ولمّا دخلت معلّمة الشّريعة متأخرة قليلا واعتذرت عن

التّأخير وصمت الجميع وعاد الكل إلى أماكنهم إلّا عامر بقي واقفا عند مكتب القسم وهو ينظر إلى صديقتي رانيا التي احتارت في نظراته، أمّا أنا فجلست على الكرسي أرى يوسف الذي كان ينظر لأستاذة الشّريعة الإسلامية محتاراً تائها في جلبابها الواسع، لم أسمع من الدّرس شيئا سوى مشاركات يوسف التي لا تكاد تنقطع.

انقضت ساعة الشّريعة فدخلت أستاذة اللغة الأجنبية وكانت بلباس شبه عاري، ولمّا دخلت الأستاذة بلباسها الذي أعجبني قام يوسف من مكانه منتفضا مثل المجنون ثم جلس غاضّا للبصر، وإذا كانت أستاذة التّاريخ عطوفا أمرته بالوقوف مقابلا الجدار، فإنّ أستاذة اللغة الأجنبية أمرته بحمل الكرسي والوقوف عند الباب في حالة ما التفتت إليه ووجدته لا يتابع الدّرس، كان اليوم يمضي كالدّهر ولكن سنوات الحب تمرّ ثواني، خرجت من الثانوية وركبت السيارة التي اشتراها لي باديس مدير الفندق وعبرت شوارع المدينة والمنعرجات وصورة يوسف بين عيني، كنت أرى يوسف في كلّ منعطف، وأراه في كلّ سيارة تمرّ على يساري، وأراه في كل كائن وجماد، ولمّا بلغت الفندق وقد كان موعد العمل في مكتب الاستقبال على السّادسة مساءً، كنت قد كتبت قصيدة أخرى قبل أن أخرج من الثّانوية ووضعتها في محفظته.

تَأمّل وَسَائِل سُفُوحَ القمـــم *

تُدَمدِم بشتمٍ يَرُدُّ الجَـــبَل*

وإن قُلت كم أنت جميلٌ صدى*

يرُدُّ الجميلَ بنفسِ المَثـــَل*

فكم من طبيبٍ أماتَ سُقـــم*

ومَاتَ مِن بعدٍ بِنَفسِ العِلَل*

وتهت هياما بسقمٍ ســـــرى*

في ليل الغرامِ وبالمقـــــَل*

وأنت الكفيل لقلب الجـــنى*

وأنت لجاني فهل من كفـَل *

تجارت دموعي بخدّ بُـــــرى*

والنّاس عُميٌ أو عيني زُحـَل*

تمادت علي أسقام الـــــورى*

وأنت الطّبيب وأنت العِلَل *

في تلك الليلة قرأت الرّواية التي أعارها لي يوسف وكانت رواية الغريب مؤلمة، لأنّني شعرت أنّني عشت بعض أحداثها، تحدّثت عن دور الفاقة والحرمان في قتل الشّعور الإنساني، حتّى أنّ بطل الرّواية حدثت له أشياء قاسية لم يتحدّث عنها الكاتب، ولكن تلك الأحداث يفهمها القارئ بعمق، وقائع مؤلمة يمكنها تحويل الإنسان إلى جماد يصعب عليه ذرف الدّمع، كان البطل لا يأبه لأي فاجعة تحدث له، كأنّه كان فارغا من الرّوح فلمّا طُلب منه الحضور إلى المركز وأخبروه أنّ والدته ماتت لم يتفاجأ، بل كأنّ تلك الكلمة يسمعها دوما، وحين سأله المدير إذا كان يريد رؤية أمّه لآخر مرّة وقد كانت في النّعش رفض رؤيتها ولم يبك عليها، إنّها رواية مؤلمة وحزينة، فكيف ليوسف أن يقرأ مثل تلك الروايات؟ إنّ كلّ صفة كان يتّصف بها يوسف لا تكون إلّا نوعا من السّعادة.

جاء الليل فنمت بعد أن انتهى وقت العمل، استفقت كثيراً في تلك الليلة التي أنارها القمر، وفي الصّباح تمنّيت أن يكون قد وجد تلك القصيدة في محفظته وقرأها، لم نكن لندرس في الصّباح لأسباب تتعلّق بالإدارة، وبعد الظّهيرة دخلت الثّانوية ولمّا كنت أسير نحو الفناء التقيت عامر القبيح المكوّر الوجه، في كلّ مرّة يبتسم فيها بوجهه المكوّر يُرى على جبهته الشّبيهة بالصّحن تجاعيدُ شيخٍ في الثمانينيات من العمر، اقترب منّي بسرواله المخطّط بالأبيض وأهداني بعض الحلوى حين رأيته أدركت أنّني التقيت بالقبح والملل، أمسكت علبة الحلوى ودخلت القسم فألفيت كلّ

الطاولات موضوعة عليها علب الحلوى، سألت صديقتي رانيا عن الذي حدث، فقالت أنّها حلوى بمناسبة خطبتها فسألتها عن الخاطب فقالت أنّه عامر، فذهلت ووقفت مندهشة عاجزة عن التّصديق، أحبّها عامين ولم يسألها إن كانت مخطوبة أو لا، ولمّا كذبت بالأمس وقلت له أنّ رانيا موافقة على أن تكون زوجةً له، فلم يمضي عليه سوى إشراقة واحدة وكان قد خطبها، والأعجب الذي أذهلني أكثر هو أنّ رانيا وافقت على الزّواج من ذلك القبيح المنتفخ الوجه، والنّحيل الذي يعرج في مشيته، إنّه حبّ يسير سهلٌ عذب وجميل.

تتابعت الأيّام وقبل اجتياز شهادة البكالوريا كنت قد تعرّفت على يوسف وتعرّف علي، ولأنّ رانيا الجمعة خطيبة عامر القبيح كانت ترشدني دوما لألبس الحجاب، فمللت من ذلك وأخبرتها أنّ سروال الجينز والقميص الضيّق الذي ألبسه هو أمر من مدير الفندق الذي أعمل عنده، وأنّ باديس مدير الفندق لن يسمح لي بالعمل عنده إذا لم أكن أنيقة تلبس اللّباس الذي يريده. ولمّا وددت الحديث مع يوسف على انفراد لأصارحه بالمكنون رفض لأنّه لا يتحدّث مع اللّائي يلبسن مثلي لكنّه كان دائم النّظر إلي، كان مثل الفتى المراقب للفراشة، وبعد أيّام أرسل لي يوسف رسالة مع رانيا خطيبة عامر القبيح، وكانت الرّسالة قصيدة

أغَارُ عليكِ بِليلِ الظّـــــلامِ*

وأفرح إذا لَم يراكِ القمـــَر*

أغَارعليك من غمزِ النّجومِ*

إليكِ فتفسد عليَّ السّمَـــر*

تجُول بعيني ورود الرّبيـــعِ*

وأنتِ زهورٌ وعِبقٌ عَطِـــــــر*

وأهدي الثّنايا لِقلب وديع*

وقلبي ينوح أظنّه كُسِـــــــر *

ستدفئ جذورٌ بشمس الصّباح*

وتُسقى بذورٌ بِحُبّ المطـــــر*

لَأطلُب فؤادَك لنور الـــــزّواجِ*

أهديكِ الحياةَ أهديكِ العمُر*

فهَل تقبلِين شروطَ القِـــــرانِ*

قرآنٌ صلاةٌ وجِسمٌ سُتـــــرِ*

في تلك الأيّام أراد يوسف خطبتي من باديس مدير الفندق، ولكنّني كنت أرى نفسي خائنة، خائنة لأنّ مدير الفندق اعتدى علي قبل ثلاث سنوات، فهل أصارح يوسف، أو أقبل الخطبة من غير مصارحته؟ حين قلت ذلك لرانيا أخبرتني أنّ الله إذا ستر العبد فليس من الحكمة أن يفضح العبد نفسه، رضيت بالخطبة ولكن كنت كارهة لها، كارهة لها لأنّني ظننت أنّني خائنة والحقيقة هي أنّني كنت أعاتب نفسي، كلام رانيا بخصوص ستر الإنسان لنفسه كان صائباً صادقاً. الشّروط التي اشترطها يوسف قبل الخطبة هي أنّه أمرني بالصّلاة ولبس الحجاب، وهذا أكيد أنّ باديس مدير الفندق لن يقبل به، وفي ليلة من ليالي العمل هناك في مكتب الاستقبال وكنت قد اجتزت امتحان البكالوريا وكان يوسف قلقا على الخطبة أكثر من النّتائج، كان قلقاً لأنّ أمّه أرادت التعرّف على عائلتي فأخبرها عن حالتي فأرادت أن تجد لي حلًّا و أن لا أبقى في العمل. في البداية لم ترضى بالخطبة لأنّ عملي لم يعجبها، ثم قرّرت أن تفتح لي منزلها الواسع، الذي قال عنه يوسف أنّه واسع وبإمكانه إيوائي حتّى موعد القِران، فأمرني يوسف بترك العمل، وفي تلك الليلة جاء باديس صاحب الفندق إلى فندقه وطلب منّي أن نتعشى معا فوافقت. أكملت خادمته تحضير مائدة العشاء فقعدنا نحن الثّلاثة حولها، في تلك الأيّام كان باديس قلقا بسبب شركاته ومشاريعه، أخبرته أنّ شابا يدرس معي في الثّانوية اسمه يوسف يريد خطبتي منه فغضب، لم يوافق وحذّرني

من إعادة الحديث في هذا الموضوع، وقال أنّ سبب مجيئه إلى الفندق هذه الليلة هو أنّنا سنخرج من العاصمة غداً، ونرحل إلى ولاية أخرى وسأكمل دراستي هناك في الولاية الجديدة، وكان الفراق...

إذا استطاع القاعدُ تحتَ العذابِ والغدقِ أن يُقنِع الرومنسيين أنّه جالسٌ هناك لأنّه يعشق رائحة الغبار فتأكّدوا من أنّه صادق، أمّا الذين صدّقوه ! فهم الكاذبون ...

* الفاجعة الكبرى *

تخلخل القمر بزينته وأبلج نوره بعدما اختفى خلف سحب سوداء، فأسندت ظهري إلى حائط سقيفة البؤس محاولا النّوم، عاب نومي بعد أن نتن الجرح وغاب النّعاس، لا أدري متى جُرحت، رفض الجفن إنزال ستائره وتلألأت مجوهرات سماء العاصمة فتخلخل الليل في خلخاله الوامض، تعسّرت الآناء في الانقضاء فنمت فطلعت الشّمس فألقت حرّها على جسدٍ كالّ فاستفقت من غير معرفة متى نمت! ألقت الشّمس دفئها على جسد العجوز النّائمة على الكرتون وكان اليوم يوم السّوق الأسبوعي، فُتحت أبواب الحوانيت ومُلئ شارع السّعادة بالحياة فطفق الصّخب يزعج باقي الكائنات. بين الزّحام المخيف حيث لا يجد المرء موضعا لوضع نعله رأيته، رأيته فتسارعت دقّات قلبي وولج بداخلي الشّوق لألقاه، لم يتغير كثيراً سوى أنّه كان عرجا في مشيته مسربل في سربال قطرانٌ لونُهُ، حين رأيته يمشي مهرولا بين الزّحام شققت بجسدي سبيلا بين الورى لألحق به، دفعني الشّوق نحوه وحين بلغتُ المكان الذي أبصرته فيه لم أجده، كان مثل سراب بقيعة، تلاشى كالنّجم إذا ظهر ثم أخفاه الغمام، بحثت عنه بين النّاس ولكن دون جدوى، توارى بين الورى كالشبح الذي يتجلّى للبشر ثم يتلاشى، رغم سلسلة السّنين المنقضية والذّاكرة المتناسية لصور الرّيف أين كنّا نسكن إلا أنّ الحظّ أمكن عقلي من التعرّف عليه. كان أبي يخترق الزّحمة

مضطربا في مشيته ثم اختفى تصدّرت الشمس صدر السماء ثم مالت إلى المغرب فأتى المساء، جاد هذا الأخير على البؤساء بنسماته العطرة الممزوجة برائحة الشّواء الشّهي المنبعث من مطعم الكرم فاستسلمت للجوع، وفي كل مرّة أتذكّر صورة أبي يتذبذب جسدي، لقد اشتقت له، اشتقت لمداعبته إذ يستلقي على ظهره ويحملني فوق رجليه فيجعل نفسه أرجوحة، أتذكّره فأرى أنّه البشري الوحيد المملوء بالحب، ومن غيره لم تستطع سقيفة البؤس إقناعي أنّ كل من يخرج من رحم الأنثى يسمّى بشرا.

انتهى مساء يوم السّوق فألقى الظّلام لعناته على شوارع العاصمة، انطفأ ضوء النّهار وأنار الليلَ القمرُ تكوّرت الأحزان بداخلي ووُضعت على شكل كرة حديدية داخل قلبي فأصبحت أشعر أنّ فؤادي أثقل من جسدي، خلى شارع السّعادة من الحياة وخلى الجميع إلى قصورهم، وأويت والعجوز تحت سقيفة البؤس، لم تبقى سوى الأكياس البلاستكية الرّاقصة مع الأشباح في شارعٍ خالٍ من البشر، في الشّارع تجلّى سوادٌ على هيئة إنسيٍّ آتٍ، كان يقترب منّا مهرولاً والعجوز شاخصةٌ فيه، اغترف اليأس من جسدي، نهب الليل من الحزن الجاري داخل الجوارح التي لم تجد لنفسها روحا للحياة، كأنّ القمر غضب من كوكب ملأ قلوب المتشرّدين رهبا ورعبا، كان الليل ينحدر إلى منتصفه ببطء شديد فخُيّل

لي أنّ الزّمن يحتقر الضّعفاء، كان السّواد يقترب أكثروالليل يعزف على حلكته سمفونية صاخبة، تصاعد نباح الكلاب عند المزبلة وقد كنت جالساً القرفصاء تحت سقيفة البؤس أرى العمارات العالية المزيّنة بأضواء مختلفة، فأحسست إحساس الشّيطان النّاظر إلى الجنّة وهو مدرك أنّ الجحيم هي المأوى، انفجر بداخلي إحساس زعزع روحاً تتألّم فأرسلت تنهيدة هادئة، كان إحساساً يخلق الألم ويلعن السّعادة الغارقة في حزن مصطبغ بخذلان الدّهر وشر البشر، كانت الرياح الخفيفة تدمدم بأصوات مريبة وحفيف بعض الشّجيرات يوحي أنّ الأشباح الحزينة تقيم عرسا في شارع السّعادة، اقترب منّا السّواد فعرفته إنّه بائع المخدرات، ولأنّه كان يثق في، وقد كنت أبتاع من عنده الهلوسة، رمى إلي وأنا تحت سقيفة البؤس كيسا وأمر بإخفائه وأكمل الرّكض، في المرّة الأخيرة لم يشأ أن يبيع لي الهيروين لأنّه لم يكن معي المال حين رمى الكيس كنت بحاجة إلى الخمر أو أي مادّة تجعلني أفقد الوعي، فتحت الكيس فوجدته مُلِئَ بالكيف. انتشر الهدوء الرّاكب على أجنحة الليل انتشار الأرواح يوم الوغى وبينما كنت ألفّ سيجارة المخدّرات وأنا مسند الظّهر على حائط سقيفة البؤس خائفا من أن تنتبه العجوز المتسولة لما أفعله، زمجرت سيارة الشّرطة وانعطفت على يمين السّقيفة واخترقت هدوء الشّارع وأزعجت الأشباح في عرسها، تمنّيت أن تتوقّف وينزل منها شرطيان مثل العادة ويفتّشان العجوز وأنا، تمنّيت أن يجيئا ويحملا

العجوز النّائمة على الكرتون ويأخذانها إلى المقر لتتدفأ قليلاً، وتمنّيت أن تأخذني الشّرطة وتجعلني أنام في الزّنزانة، فهذه الأخيرة لا تعذّب الأجساد مثلما يفعل شارع السّعادة، انتظرت إبلاج الصّبح كالعريس في ليلته الأولى أو ربّما كمجرمٍ حُكم عليه بالمؤبّد، وحين بلغ مئة عام من العمر أخرجوه، وكان السّجين لا يزال يأمل في الزّواج بحبيبته الهالكة قبل سبعين سنة، كنت زاهداً أكثر من صالح تبرّأ من الحياة، البرهان الوحيد المتمكّن من إقناع روحي أنّها لا تزال حيّة هو نسبة الأكسجين المستهلكة. في آناء الليل الهادئ كنت والعجوز نصارع صقيع سقيفة البؤس، وكانت العجوز نائمة على الكرتون المفروش على جلفة البلاستيك، سُرّت كثيراً حين وجدت الكرتون غير مبلّل حتّى أنّها خافت من أن يأخذوه منها، وكانت مختمرة بخمارٍ أبيضٍ جاءت به من المزبلة فألقته على رأسها الصّغير وتكفّنت به فصارت تشبه حبّة خردل موجودة داخل كيس فارغ يمكنه حمل قنطارٍ من الخردل، هضمتها النّحافة، كأنّها هيكل عظمي أخرجه الباحثون من القبر وألبسوه كفنا للمرّة الثانية، ثم حنّطوه من أجل أن يجعلوه آثاراً في المتحف، فقدت جميع أسنانها، كانت سحنتها توحي أنّ العجوز جاوزت الثّمانين من عمرها، ما دريت مدّة تشرّدها في شارع السّعادة، كأنّها غرابة في هيئة عجوز شعرها منتفش، جعلتني أشعر أنّها عاصرت الأساطير وأنّ اللّعنة أصابتها فجعلتها تخلد، وجهها المخيف كان يسير إلى الانتهاء وقد جذبت الجمجمة مقلتيها إلى الدّاخل وتركت القذى متراكما على أطرافها.

واصلت الأشباح عرسها في شارع السّعادة فاختلطت أمواج الهدوء والرّيب لتألّف الخوف المعهود في زمن الهدوء الصّارخ، جزع الكوكب بفعل الرّعد المفاجئ فانفجرت السّحب فأسحمت السّماء وأغرق الغدق الكائنات الواهنة، صبرتُ والعجوز للسّاعات المتبقية من الليل، ابتسم الكوكب الملتهب لكوكب الأرض في يوم جديد بعد أن انتظرنا الشّروق بشوق، أشرقت وألقت دفئها على العاصمة فخرج النّاس من قصورهم فمنهم من يأخذ أبناءه إلى المدرسة وآخرون لفتح محلّاتهم، وجاء بائع المخدّرات وأخذ كيسه بعد أن شكرني كثيراً، ذهبت إلى مقهى الميناء وأشعلت سيجارة بيدين ترتجفان ثم طفقت أرقب البحر شارد الذّهن، كانت مقهى الميناء تجانب السّفن والقوارب وكانت تقابل الشّاطئ ولها ساحة واسعة عن يمينها ويوجد على جانب السّاحة طريق خاص لدخول المركبات التّجارية، أمّا جلبة الصّيّادين وأصواتهم المرتفعة كانت تتخثّروتتضخّم مع أصوات النّوارس ثم يبتلعها الهدوء، قعدت في ساحة المقهى على كرسي خشبي والسّاقين الطّويلتين النّحيفتين تسبحان داخل سروالٍ أسودٍ عريضٍ اشتريته في السّنوات الميّتة وكنت أنتعل حذاءً له لسان يجعل النّاس تضحك إذا رأوه، ولكنّهم لا يضحكون في وجهي لأنّهم يعلمون أن هذا الشّاب أشرّ من الشّر، وكان الصّالحون يرونه شيطاناً لأنّه يشرب الخمر والدّخان وله ملابس قذرة ولم يكن أحد صديقه من غير بائع المخدّرات، ظننت أنّ روحي هاجرت إلى كوكب آخر وغادرت

جسداً يحيا مثل جثّة تتمشّى فوق الأرض، ولأنّ شعري كان مشعثا منتفشا جعل الجميع يرون أنّ هذا المتشرّد غير صالح للحياة، حين أرى وجهي في زجاج سيارة أو شاحنة وأرى البشرة السّمراء فحمة والعينين الخضراوين يفقدان لونهما على الوجه الطّويل المملوء بالدّمامل أنفر من نفسي، أغرب ما أراه في وجهي إذا قابل زجاج سيارة هو وجه صاحب القبّعة والغليون، إنّ كلّ ثانية كانت تغادر هذا الزّمن كنت أراه فيها، لم يكن يظهر في شارع السّعادة أو في فندقه أين تشتّتنا قبل ثلاث سنوات، سبحت في الماضي ثم أعادني صوت طائر النّورس إلى الحقيقة فانتهت إلى أنّ السيجارة قد انتهت من غير أن أشعر، لم أتذكّر كيف انتهت أو متى دخّنتها، بينما كنت جالسا في ساحة المقهى أشاهد طائر النّورس السّابح في سماء البحر ثم يرمي بنفسه على زرقة اليمّ إذ بأحدهم يضع يده على كتفي، لقد جاء من الخلف، كان وجهه مظلماً يوحي أنّه انغمس في غيمة حزن، ذو بشرة مزيّفة صبغتها صروف الدّهر المظلمة كان مخيفا بمظهره المرعب، حاول وجهه المكفهر أن يكفر التّجاعيد التي شقّت خدوده المنفية إلى عمق السّحنة الواهنة ولكنّه فشل، اختفت عيونه السّوداء القاتمة تحت الحواجب الكثيفة والموحشة، عيونه واسعة كأنّ الشّياطين تسكنها، كان وجهه المقوّس الآخذ في الذّوبان يتفحص وجهي باعتذارات مهينة وكان مخدوشا تظهر عليه جروح ملتئمة، حاول أن يخفي حزنه خلف الابتسامة الكاذبة الكاشفة لأسنانه المسوّسة

والأنياب التي عانقها الظّلم الفائح، امتزجت رائحة عرقه مع رائحة زجاجة الخمر حين سقطت من معطفه الأسود فانكسرت بحسرة مارد فقد سحره، كان مظهره يعكس الجريمة والعدل والظّلم والحقيقة، كلّ ما فيه كان متناقضاً، امتزجت نظرته بالصّراحة و الكذب، تكفّن بالحزن الخفي والظّاهر على إنسانٍ أقسمَ أنّه بخير، إنّه أبي...لم أتفاجأ لرؤيته ولم أندهش من ألاعيب القدر، لم أطفئ السّيجارة ولم أبعدها عن الشّفاه، بل أحرقتها بين شفتاي حرقا وهو يرى، ثم وبكل برودة رفعتُ يدي وأنزلت يده، فتح ذراعيه ليعانقني فلفظت عقب السّيجارة وأرسلت آخر غيمة دخّانية إلى أعلى، ثم رجعت القهقري - عثمان...! ولدي!

ابتسم لي والدّموع في عينيه، أراد أبي أن يعانقني من جديد فأبيت، لم أنبس له ببنت شفّة ووضعت كفّي على صدره كحاجز بيننا، انتصبت في هيئة شيطان يرفض الارتباط بحورية بسبب كبريائه، تدفّقت بداخلي العداوة فملأتني خيبة الدّهر فشعرت أنّ الأرض لم تعد تحتوي إنسان يمكن للألفة أن تجعل بيني وبينه، خطى أوّل خطواته نحوي ثم انسكبت دموعه على خدّيه و حمل يديه ليطلبني إليه ثم اهتزّ جسمه ومال إلى الانهدام. اقترب نحو الكرسي أين كنت أجلس أنا فابتعدت عنه خطى خطوات أخرى وهو يعرج حتّى جلس على الكرسي وكنت قد ابتعدت عنه وأشعلت سيجارة أخرى وضع كفّه على صدره وفتح فمه كمن يريد

الصّراخ فلم يستطع أن يصرخ ولا أن يغلق فاه، كان يحاول أن يتنفّس لكنّه لم يستطع أن يفعل، وضع يده اليمنى على صدره ودفع بها إلى الدّاخل فبدى كأنّه يدفع جلمود صخر موضوع على قلبه، فجأة اقترب منه رجلٌ كان ينتظره في السّيارة السّوداء المتوقفة جزئياً على الرّصيف يمين المقهى الميناء، إنّه رجل طويل القامة عريض المنكبين يرتدي بذلة سوداء وله وجه مخيف وكان يرتدي نظّارات شمسية مظلمة وعلى رقبته وشم عقرب، كانت سحنته مثل حرّاس الرّؤساء وأصحاب النّفوذ، حين اقترب من أبي وساعده على النّهوض وأركبه السيارة ثم انطلق به ضحكت عليهما، كان في الأربعينيات من العمر وكان الوشم مضحكا على عنقه. بعد أن أقلعت السيارة ضحكتُ على أبي وعلى ألمه، لقد غادرني الشّوق إليه، حين شعر أبي بالألم أحسست أنا بالشّفاء، تمنّيت رؤيته يتألّم أكثر، فرحت كثيراً لنقمته. تمنّيت من البؤس أن يفعل به ما فعله بأمّي حين غاب عنها وتركها في القرية تعاني الفاقة والمصائب، كانت الشّمس ترسل أشعتّها من وسط السّماء وكنت أسير في شوارع العاصمة مثل مجنون يبحث عن بقايا عقله في مزبلة عفنة، إنّ رائحة العرق النّتنة كانت تجذب الذّباب المزعج العاشق إلى وجهي، في كل خطوة أخطوها تعيدني ذاكرتي إلى الماضي، إلى الأيّام التي كنت فيها أنام مع أمّي وأبي وعفاف في فراش واحد، تلك الأيّام التي كان يتحوّل فيها أبي إلى أرجوحة استمتع بها. أرى كلّ الماضي فأشتاق إلى الطّريق الجبلي أعلى القرية ولكن لا اشتاق إلى أبي.

في المساء ذهبت إلى الشّاطئ مسرورا لما فعلته بأبي كان مساء البحر أمواجا عالية تتصارع مع صخور الشّاطئ، اتّخذت صخرةً سوداء هائلة وضخمة متّكأ أجلس تحته، تارة أجلس أعلاها وتارة أسفلها وكان لونها مثل جبل ابتلعته النّار، أخرجت علبة السّجائر من السّروال الواسع عن ساقين نحيلتين وطويلتين أجرّهما بمشقّة وأخذت في تدخينها سيجارة تلو الأخرى، ألقى المساءُ الشّمس إلى مضجعها وانجلى مودّعا آخر دقائق عمره، جنّ الليل وطلّ القمر من خلف الغيوم ليسخر من الكوكب في كرّة أخرى، توهّجت النّجوم وغمزت لبعضها البعض مثيرة لشهوة الدّجى العابسِ، أوى الكل إلى منازلهم وتدثّروا بالحرير داخل غرفهم الدّافئة وزوجاتهم الأدفأ، أطفأوا أضواء الغرف فحلى لهم السّمر، إلّا أنا جلست على الشّاطئ أسفل الصّخرة السّوداء أرى الأمواج العالية تحت نور القمر، بقيت أستمتع بمآسي الشّياطين المقذوفة بالشّهب وأتذكّر صاحب القبّعة والغليون حين حشرنا في الفندق الماخور ثم ألقى علينا لعنته فجعلنا شتات، مع كل موجة ينير لطمتها القمر أرى وجه صاحب القبّعة والغليون، أراه على الأمواج وهو يحمل الوثائق القانونية ويلوّح بها على وجه عفاف، إنّها وثائق قانونية تثبت ملكيته لأرض القرية كلّها، عذّبنا بالقانون، أراه وكلّ النّوائب التّابعة له، تذكّرت مصائب الفندق وبائعات الهوى وتذكّرته حين جرّ أمّي من أرجلها وأدخلها غرفتها الحزينة، وتذكّرت أمّي حين خرجت إلى الشّارع عارية من غير عقل،

اجتررت الأحزان النّاقمة لجسدي، كل المصائب عُرضت على الذّاكرة فأحسست أنّ جميعها تحدث وأنا أثمل على الشّاطئ أسفل الصّخرة السّوداء. آلمتني الذكريات الحقيرة الممقوتة فصرت أرى أنّ الحاضر مؤلم أكثر من الماضي، كانت أفكاري التّائهة تتلاطم مع الأحاسيس مثل تلاطم أمواج البحر، في كل مرّة تجعلني أضطرب أكثر، كان الليل حالكا والبحر يزخر خاشعا، انتهت علبة السّجائر من محتواها فاحتوتني أحقاد جعلتني أقرّر أن أبعث ركون صاحب القبّعة والغليون وأن أنتقم، لم يكن صاحب القبّعة والغليون يظهر في شارع السّعادة ولا في المدينة أين فندقه الماخور، وحين أتذكّر قول حارس الفندق الماخور أنزعج، قال لي أنّ صاحب القبّعة والغليون يعيش في مدينة أخرى وأنّ الفندق صار ملكاً لرجل آخر، كأنّ لعنة الحزن والأحقاد أصابتني فجعلتني أرى أنّ الانتقام ضرباً من العدالة، صرت أرى أنّ الانتقام من صاحب القبّعة والغليون مقدّس مثل عقيدة كاهن أو راهب تجاوز عن شهوات الحياة جميعها ورضي بالزّهد، سكرت على الشّاطئ حتّى الثّمالة ثم عدت إلى سقيفة البؤس فنمت مثل الجثّة، كانت العجوز نائمة فلم أشأ إيقاظها، فالنّوم في الشّارع شبيه بحظ مقدّس لا يتجلّى لأصاحبه كلّ ليلة، تسارعت الأيّام وانقضى من الزّمن شهوراً منذ أن رأيت أبي ولم أعانقه، كنت قد تحوّلت إلى إنسان حاقد على وشك فقدان إنسانيته. إنسان يعاتبه شعوره ويمقت العالم مقتا كبيرا، لهذا سحقت الشّعور

بالحب اتجاه البشر فصرت أراني كائن ليس من الإنس، كلّ نبضة قلب تؤلمني، كنت أرى أنّ الماضي عبارة عن زجاجة ذنوب حقيرة، ليست ذنوبي ولكنّها زجاجة قُدّمت لي كهدية في عمر لا يعرف المناسبات، هدية من بشر تجاهلوا وجودي باحتقار ساخر، تجرّعت ذنوب النّاس المقدّمة لي في زجاجة فجُرحتُ كثيراً لأنّ الانكسار كان في العمق، أصبحت على عكس ما كنته سابقاً، الجميع أصبح يراني مجرماً ومهيباً، ورغم رائحتي النّتنة السّابحة على الهواء المستنشق إلى أنّهم أصبحوا يبتسمون لي كلّما رأوني. إنّها ابتسامة الذّنب الخبيثة والواقية من شرّي، إنّ بعض البشر لا يبتسمون للإنسان إلّا لجذب حبّه وخيره، وإذا لم يجدو فيه الحبّ والخير ابتسموا له لإبعاد كرهه واتّقاء شرّه، والبعض الآخر من البشر لا يبتسمون إلّا لإرضاء من رضى عنه الدّهر، فإذا رضى عنه الدّهر رضوا، وإذا انقلب عليه الدّهر بما لا يشتهي انقلبوا. يبتسمون للبشري السيّئ إذا كان صكّه حسن ويكشّرون للبشري الحسن إذا كان صكّه سيّئ، إنّ ابتسامة هؤلاء ليست صدقة بل هي ذنب، التقيت بالرّجل ذي البذلة السّوداء فطلب منّي أن أناديه بالأفعى، هو نفسه رأيته مع أبي في آخر لقاء وقد كان يشبه حارس الشّخصيات السّياسية الممتد ذراعها في الحكم، هو نفسه الذي ساعد أبي على الوقوف وأدخله السيّارة وذهب به حين فرحت لمأساة أبي، حين توقّف الرّجل بسيارته السّوداء وأصعد الدّولبين اليسرين على الرّصيف كنت أنا قاعدا على الكرسي الخشبي في ساحة المقهى أين ألتقيت هذا الرّجل وأبي قبل أشهر.

- أي عثمان...عثمان، يا ابني!

سمعت صوته في البداية فاستدرت نحوه بتعجّب، ليس من العادة أن يناديني أحد بهذا الأسلوب، الكل ينادونني بعثمان الرّايس إلّا هو نادى من غير تبجيل.

- ليس لي أب، لا تعد المناداة بالابن...!

- هكذا إذاً! كبرتَ ولم تعد الفتى الغريب والمقبّل للقطط، لقد أخبرني أبوك أنّك كنت تعشق التحدّث مع الجراء والرّقص معهم.

- في صغري كنت أعشق التكلّم مع القطط والجراء أمّا اليوم فأنا أكره الحديث مع الكلاب، ماذا تريد؟

أخرج رأسه من نافذة السيّارة وأركم شفتيه المنتفختين واحدة فوق الأخرى ثم هزّ رأسه تكرارا معبّرا عن الدّهشة، اسودّ وجهه وازداد في الاكفهرار ثم تدحرجت قباحته وتحولت إلى شعور جعله يخرج قدّاحة وسيجارة فألهب السيجارة منزعجاً ثم ترجّل من السيّارة وجاء فجلس على الكرسي بجانبي، أخذنا في النّظر إلى بعضنا البعض وهو يضع النظارات الشّمسية على جبينه فرأيت الوشم العقرب على عنقه، كلٌّ منّا كان ينتظر سماع حرف الآخر، بعد لحظات أخبرني الرّجل أن أدعوه الأفعى، وقال أنّه جاءني ببشارة مفرحة، حين سألته ماهي؟ قال أنّني لن أرى أبي مجدّداً، من بين اللحظات الأليمة هي لحظة يكذب فيها الإنسان على نفسه أو لحظة تجعل الإنسان تائها لا يستطيع تحليل ما يشعر به، هل يفرح أو يحزن؟ إنّها مفاجآت يصنعها القدر في

عالم محجوب عن الأعين لنعلم عمق الجراح الغائرة في أعماق الرّوح ونستبين أي أفئدة نحمل، إذا كانت الجراح غير عميقة نتفاجأ وربّما نذرف دموعا قاسية، وإذا كانت الجراح أعمق نتزلزل من غير أن تذرف مقلنا ماءها، ويذرف القلب قساوةً أقسى لا تلفظها الأعين، وإذا كانت الجراح أعمق من العمق لن نتألّم، ولن نذرف أي نوع من الدّمع، بل نكتفي بالشّرود المريب وربّما نقهقه ونضحك للفاجعة ونحن في عمق أعماق الآلام سابحون، في هذا العمق نكون أحياء أكثر من أي إنسان آخر، ولكن الكثير من البشر يظنّون أنّ قلوبنا قد ماتت فلم نعد نشعر، سمعت كلماته فرُميت في متاهة جذب الأرواح لتسلب منّي روح الحياة، نظر الأفعى في وجهي النّحيف ليسخر من سحنتي المتصارعة مع الشّعور الخائن، شعور اخترق الزّمن الذي أعيشه فلم أستطع تحليل ما حدث وقد كنت في لحظة الشّرود المريب، كأنّها لحظات دخيلة على الزّمن، قرأ وجهي الواجم مثلما تفعل المشعوذة بأيدي الجاهلين الذين فقدوا إيمانهم ثم سألني:

- هل تريد الذّهاب إلى أبيك؟

حينما سمعت سؤاله اندهشت، شعرت بالحيرة، قبل قليل قال أنّني لن أرى أبي، والآن يسألني إذا كنت أريد الذهاب إليه!

- لقد سألتك، هل تريد الذهاب إلى أبيك؟

- كان هذا في الماضي، أمّا الآن فلا أريد أن ألقاه ولا أن أراه.

- لا يهم يا عثمان، إذا فكّرت يوما في أن تراه فاعلم أنّه ينتظرك في الجحيم.

- كيف؟

- لقد مات أبوك.

خُيّل لي أنّ صفحات العالم طويت، كأنّ القدر يقدّم لي في كل يوم هدية مغلّفة بحمم الجحيم، وحين أفتح المغلّف أرى نفسي أسبح في عمق جهنّم الدنيوية، لا أذكر يوما قلت فيه لأبي كلمة (أحبّك)، في قاموس الذّاكرة بحثت ولم أجد، كنت هادئاً هدوء مثل ليلة الدّجى إذ زيّنها القمرُ، أمّا بداخلي فقد كنت ثائراً ثوران النهار الذي انفجرت فيه جميع براكين الكوكب، ليس ثوران حزن لموت أبي، بل لأنّ الأحقاد حين تتراكم داخل قلب الإنسان تبني له قلعة مظلمة يسكنها متمنّياً أن ينزل بها باقي البشر، ولكن كلّ بريء في أعماقي كان يصرخ، لم أبالي لأبي الميّت ولم أبكيه، لم تذرف العين دمعة، بل ضحكت ثم قلت للأفعى:

- هل جئتني لتخبرني أنّ أبي مات؟ وما دخلي فيه؟ أنا لست إله، ولم أخلقه، وما العجيب في الموت؟ الكثير من النّاس قد ماتوا، وأنت ما دخل ذنبك في ذنب الآخرين؟

حرّك ذراعه ليرى السّاعة مزدرداً جميع كلماته ولم ينبس، كادت مقهى الميناء أن تخلو من النّاس فرأينا بعض البغايا يترنّحن بأعطافهن ويتمرّغن بأجسادهن العارية على زبد البحر ثم يقتربن من المقهى ليجذبن نحوهن

غبياً استعبده الهوى، لم يعزّيني الأفعى لموت أبي واكتفى بالصّمت السّاخر دون أن يدرك أنّه يجلس أمام جسد شبيه بكوكب تشقّقت قارّاته، كان يستمتّع بالكائنات الرّاقصة على الشّاطئ ثم قال:

- انظر إليهن يا عثمان، إنّ الجّو بارد ولكنّهن...

قاطعه النّادل حين اقترب منّا مفاخراً ببطنه المنتفخ كان النّادل معروفا باسم الدّب، قبل أن يصل إلينا الدّب فكّرت في أن أبقر بطنه بالخنجر المخفي في جورب ألبسه، كان الحزن ثقيلا داخل فؤادي كصخرة وُضِعت فوق قارب نجاة خفيف لا يتحمّل أكثر من جسد واحد. اقترب الدّب يرتدي مئزراً انتثرت عليه بقع سوداء

- مرحبا بالرّايس، كيف حال صحتّك؟

- أنت لست طبيباً، بل أنت سمين وأصلع، لماذا تسأل عن صحّتي؟ أنت ترى أنّني بخير أيّها السّمين.

كنت معروفا لدى الدّب معرفة تجاوزت السّطحية حيث أنّه يعلم أنّ طاولتي لا يجلس فيها بشر ولن يشاركني فيها أحد، الكأس الذي كنت أشرب فيه لا أظنّ أنّ الدّب كان يغسله ويعيد السّقاية به، كان الدّب قصير القامة سمينا ذا وجه أبيض شبيها بنفّيخة كبيرة، إذا هرول في ساحة المقهى يفزع ضربُه الأرض النّاس جميعا، إذا رآني أدخل المقهى يتأفف بتذمّر وكأنّه رأى شبحا أو أنّ لعنة ما زارت المقهى، كان يظهر حبّه ويكفر كرهه وكلّما نادته فتاة لتطلب شيئا أضحك عليه وأسخر منه

فيسخط خفية، كنت أكرهه لأنّني سمعته يوما يقول لصاحب المقهى "لا يمكنني طرد عثمان المتشرّد" كنت أكرهه أيضاً لتحمّله سخرية المومسات حين يسخرن منه إذا ذلّه صاحب مقهى الميناء، كان رأسه كبيراً أصلعا يمكنه أن يعكس أشعّة الشّمس.

- هذه ليست سمنة يا عثمان، بل لحم الطول انحدر إلى العرض، على أيّة سأقنع نفسي أنّني لم أسمع وبما أنّكما لا تريدان شيئا فسأذهب... لم يكن الدّب هادئا أورزينا، لم يكن متخلّقا أيضا وكان شيطانا يقود الغزلان لمضاجع الذّئاب، لم يرد على كلامي بوقاحة لعلمه بأنّه يتحدّث مع شوكة بإمكانها فشّه.

- حين تقنع نفسك بذلك سأعيد لك كلامي مرّة أخرى...يا لك من دبّ سمين.

نظرت إلى الأفعى الجالس بجانبي مثل الأبكم، لم ينطق بكلمة منذ أن أخبرني بوفاة أبي، أشعل سيجارته فتذكّرت أنّه لم يبقى معي المال لشراء الحبوب والسّجائر، كنت هادئا فقطع الهدوء قائلا:

- لأوّل مرّة في حياتي أرى إنسانا لا يبكي لوفاة أبيه.

نظر إلي نظرة مخرج الأفلام الذي عجبه مشهد حزين لكنّه كان يفكّر في إخراج المشهد أكثر من أن يفكّر في بعث السّعادة في نفسية الحزين، استلهمت القوّة من الكون الذي ظننت أنّه وجد من أجل تعذيب الرّوح ألهمني العالم طاقة غريبة لأسيطر على نفسي وأنطق من جديد:

- مات وانتهى...ماذا تريد منّي، أن أحييه مثلاً؟ وبما أنّه كان صديقك في العمل وقد ذهب الآن إلى الجحيم هل تريد منّي أن أخرجه من الجحيم وأجيء به إليك؟ ابحث عن صديق آخر غير أبي، كيف مات، هل مات شنقاً أو بالرّصاص؟

لا أدري كيف مات بدقّة يا عثمان، ولكن أخبرني مدير العمل أنّ أباك مات مثل الخنزير، لقد كان أبوك مجنونا لقد هاجم سياسيا يدير أفخم الفنادق في البلد، وعلى ما أظن أنّ هذا السياسي أخرج عائلة أبيك من منزلها قانونياً واغتصب ابنته وشرّد زوجته وأنت أعلم بحالك منّي، وحين علم أبوك أنّ القانون يدافع عن صاحب الملكية، وقد كان أبوك شبيها بالمملوك عند هذا المدير وكان يعمل عنده في الجريمة، ولم يكن أبوك مالكاً لشيء غير طاعة الأوامر، وكانت عائلتك مثل مزرعة أنبتت سنبلة واحدة، وكان مدير أبيك ينتظر نضوجها ليقطف حياة السّنبلة، فأُرغِم أبوك على عدم العودة إلى منزله، وخيّره مدير الفندق بين أن يبقى هنا في العاصمة والعمل عنده في صمت أو أن يكشف مستوراً يجعل أباك يُسجن مدى الحياة، أو الحكم عليه بالإعدام. ولقد كنت أنا وأبيك نعمل عند المدير نفسه، وحين علم أبوك أنّ المدير لم يفي بوعده ونقض العهد وأخرجكم من منزلكم واعتدى على أختك، وشرّد زوجته، وبعد أن بحث أبوك عنك ووجدك هنا قبل شهور فرح فرحاً شديداً لكنّك رفضت معانقته أو الحديث معه فكاد أن يموت، فساعدته أنا وأعدته

إلى سجنه في قصر المدير. إنّ أباك حاول في نفس اليوم أن يقتل مجرما لم أستطع يوما التفكير في التمرّد عليه، لم أفكّر يوما في الاعتداء على باديس ولكن والدك فعل.

- هل هذا باديس يرتدي قبّعة ويحمل غليوناً؟

- نعم...نعم يا عثمان، إنّه هو.

- ليس لي دخل في موت أبي، هل تقصد أنّ هذا المسمّى باديس هو مخرجنا من القرية ومن منزل الطّوب؟

- نعم...نعم أكيد، هذا أكيد يا عثمان، لقد قصّ علي والدك ماذا حدث لعائلتك، هل أنت بحاجة إلى مساعدة يا عثمان؟ هل تحتاج إلى مساعدة؟ سأكون صريحا معك يا عثمان، أنا الآن أعمل لصالح باديس، وأيضاً أبيع أجود المخدّرات، إذا أردت العمل معي فلا بأس فكّر في الأمر جيّداً يا عثمان، إنّها تجارة مربحة ستتغيّر كلّياً في أسبوعك الأوّل، وسترتدي ثياباً جديدة غير هذه، تذكّر هذا جيّداً يا عثمان، أنا أعمل لصالح باديس لا تنسى! نادني الأفعى، هذا هو اسمي المستعار أنا أعمل عند باديس مخرجكم من الطوب إلى العذاب. رام الأفعى ساحة المقهى وركب سيارته من غير تبقية خير، أنزل زجاج نافذة السيارة وكرّر اسمه المستعار تكرارا كي لا أنساه، "الأفعى...لا تنسى، الأفعى".

أسرعت ساعات النّهار في السّير من غير أن تلتفت انطفأ المساء وانطفأ معه جسدي سكرانا على شاطئ البحر أسفل الصّخرة السّوداء، هوى

العقل إلى عالم آخر شبيها بكوكب استعمره التّيه فصار سكّانه لا يفقهون بين الليل والنّهار، ولأنّ شمسهم تشرق ساعة وتغرب مئة عام ظنّوا أنّهم لُعنوا، والحقيقة هي أنّ عقولهم تفكّر ساعة وتنام مئة عام، كنت أشبه بجثّة محنّطة داخل مصلحة حفظ الجثث ولكن الرّوح فيها وصاحبها لم يمت، تقاتل الليل مع آنائه من غير أن يشعر البشر بقعقعة سيوفه السّوداء، إلّا أنا تمر ساعات الليل علي مثل الصّارم إذا ولج في بطن الحامل. شربت كثيراً حتى ثملت ثم وقفت ورجعت إلى سقيفة البؤس بعد أن ترنّحت في شارع السّعادة وتململت مثل الهالك، جلست القرفصاء قرب العجوز النّائمة على الكرتون ولم ألبث حتّى أغشي علي، لا أدري إذا كانت صرعة أو نوم، استفقت مفزوعا لجلبة ارتفعت وكانت مثل أقدام الجنود يوم الوغى، انتبهت للعجوز المقهورة بالصّقيع، استفاقت هي أيضاً بسبب قرقعة أحذية أناس كانوا يركضون، لقد أزعجوني والعجوز لمّا كانوا ذاهبين إلى المسجد للصّلاة، كانت الرّابعة صباحا فانسحبت العجوز وخرجت من تحت سقيفة البؤس وجلست قرب جدار منطوي وحزين واتكأت على عمود كهربائي يرسل مصباحه ضوء خافتا تسبح عليه حشرات ليلية، فابتسمت ضاحكا من المشهد، أنزلت يدها السّفلية تأمل التقاط دنانير من أيدي الرّحماء. كانت أشبه بالشّمعة إذا قاربت من الانتهاء، لقد بلعها الزّمن ثم تقيّأها من دون أن يرحم عمرها المنهوش جسده، إنّ خمارها صار أوسع من ذي قبل، وهذا ما دفعها لتجزئته من غير أن تخيطه فأصبح يرسل خيوطا تتدلى على

جسدها النّحيف، أمّا الحجاب الأسود الدّاكن فقد كان ينسحب خلفها مثل الملكة، وهل يوجد ملكة تبيت خارج القصر، وإذا نامت الملكة خارج القصر فأين الأمراء؟ وأين جنودها؟ وأين شعبها؟ وأين البشر؟ هل يمكن للملكة أن تنام خارج القصر وينام أهل القصر هانئين سعداء؟، تمزّق حجاب العجوز وتوسعت رقعة التمزّق على ظهرها المقوّس، بمجرّد مرور أي إنسان بقربها تخنخن له طالبة صدقة، الجميع أشفق عليها وبسط يده منفقاً طالبا دعوة خير، انتهى الجميع من الصّلاة فخرجوا إلى منازلهم وآخرون اتجاه أشغالهم، أبلج الصبح بشمسه الدّافئة وتعبّق الجو برائحة الأزهار المختلفة أنواعها، خرج البشر إلى عيشتهم اليومية فرحين مسرورين حامدين الله شاكرين له، كان اليوم مزدانا بهدوء الطّبيعة ودفء الكوكب الأخضر. فتحت عين واحدة وأنا متّكئ على جدار سقيفة البؤس ثم أردفت العين الأخرى، قمت بمسح القذى المحيط بأطراف عيني الخضراوين ثم أسندت ظهري على حائط سقيفة البؤس ودفعت بها الجدار ليعين جسدي المتعب على الوقوف، ألصقت الكف الأيمن على الأرض لأدفع نفسي إلى أعلى مساعدا باليسرى استويت واقفا فأصابني الدّوار، كأنّ السّكر لم يذهب تمنّيت أن أصحو، كان شعري منتفشا مشعثا يملؤه الغبار فأجبرني على الحكّة، وكان وجهي أسمراً مكفهرّاً عابسا يخيف المارّة، كان قميصي الأسود المثقوب على الصّدر يلتصق بجسدي منذ شهور، كان قياسه أكبر من جسدي حيث

أنّ القميص كاد أن يصل إلى الرّكبتين العاريتين، تخلّت عنهما قطع سربالي البالي، كنت أنتعل نفس النّعل الشبيه بالمعدوم شنقاً. أدخلت يدي في جيبي لأخرج علبة السّجائر والقدّاحة فلم أجدهما، لقد نسيتهما في البحر ليلة أمس لمّا كنت أثمل تحت الصّخرة السّوداء، نسيت حتّى الخنجر، لم يبقى معي دينار واحد، فكّرت في أن أطلب من العجوز القليل من المال التي تدّخر في منديل تخفيه داخل صدرها، وحين نظرت إليها وكانت مستيقظة تحت جدار سقيفة البؤس ابتسمت لي، يا ليتها لم تبتسم. أدرت وجهي لأتجاهل ابتسامتها، حاولت إقناع نفسي أنّها لم تبتسم وخُيّل لي فقط، ولكن العقل كان يبرهن ويعلّل أنّها حقّا ابتسمت، انتبهت للصّور المعلّقة على جدار سقيفة البؤس، إنّها صور لم تكن موجودة من قبل إنّها صوّر رجال سياسيين ترشّحوا للانتخابات، رأيتهم فتبلبلت لغة الإحساس لدي فشعرت أنّ أظافري تطول. من بين الصّور المعلّقة على جدار سقيفة البؤس رأيت باديس صاحب القبّعة والغليون، رأيته وقد بعثرنا قبل ثلاث سنوات وشرّدنا جميعا لأنّه أراد بناء شركة في القرية أين كنا نسكن نحن وبعض الجيران القلائل. وخزت أوّل الصور بأظافري ثم جررت هذه الأخيرة مثلما يجرّ الجرّار محراثه حتّى مزّقت كل الصور وألقيتها على الرّصيف، بينما كنت أنكش الصور بقدمي إذ بي أسمع صوت رجل يشتم أيّامي، كان رجلا ذو وجه واسع ولحية بيضاء مع أسنان مرصّعة تمسك بعود آراك، وعلى ناصيته كانت موضوعة نظّارات شمسية سوداء، على صدره موجود جيب به قلم وحمّالة صغيرة بارز شكلها وكان قميصه أبيض اللون، كان يقوم بفتح

سيارة رائعة فعلا صوته قائلاً:

- تخلّق يا عديم التربية.

قالها وهو ينظر إلي نظرة جعلتني أشعر أنّني لست من البشر.

- هل عندك في المنزل من تستطيع تربيتي؟

تتابعت اللعنات من أفواه أناسٍ تداعوا الملائكية والصّلح، بعضهم يلعن حياتي وآخرون يستغفرون باستمرار حتّى جعلوني أشعر أنّني فرعون نفسه، أغلق صاحبنا باب سيارته البيضاء ثم قبض أسفل قميصه وطار نحوي كالصّقر إذا رأى فريسته، كادت يداه أن لا تصلا إلى رقبتي لأنّني أطول منه فلوى رجله على رجلي، ولأنّ جسدي صار نحيفا بسبب المخدرات قام بطرحي أرضا ثم رفس جسدي تكراراً، حاولت النّهوض والإفلات منه لكنّه لطمني فأرداني أرضا قبض رقبتي بكلتا يديه ثم أوقفني على الحائط وشرع في ضرب ظهري على جدار سقيفة البؤس بعنف، حين حاول شنقي وهدّدني بالقتل بصقت على وجهه وركلت أسفل بطنه بقوّة فجعلته ينحني راكعا ثم ركلت وجهه عدّة ركلات فجرى الدم على وجهه، فجاء المصلحون من أجل أن يبعدوه عن ركلاتي المتتالية، حين حاول قتلي كانوا يستمتعون بالمشهد البطولي وهم يستغفرون ولمّا أتى دوري أصبح الكل يطالب بأن ألعن إبليس لأنّه السّبب في النّزاع، وتحوّل الجميع إلى ملائكة يعشقون السّلام، بينما كانت الفوضى تثير الرّصيف وتقلق أصحاب المحلّات إذ بي أسمع صوت كبح سيارة وزمجرة رهيبة قذفت الرّعب في قلوب النّاس فابتعد الجميع عنّا وتوجّهوا نحو الوقيعة، سالت الدّماء من أسناني حين ضربني الرّجل ضربة قوية فنشفتها

بقميصي البنّي الحزين وهرولت نحو الحادث، البعض أمسكوا رؤوسهم من تأثير الصّدمة وآخرون اختفوا خلف بعضهم البعض لأنّهم ما استطاعوا مشاهدة الحادثة وما استطاعوا أن يوقفوا السيّارة، رجعت السيارة إلى الخلف ثم انطلقت مسرعة محاولة الفرار فداست الجثّة من جديد ففجّرت أمعاءها وقصمت عمودها الفقري فتحولت الجثّة إلى نصفين تقريبا، لكن السّائق كان سكراناً فاصطدم بعمود كهربائي فتوقّفت السيارة السّوداء ذات الزجاج المعتم وصعدت غيمة دخّان من مقدّمتها فخرج السّائق من غير جراح، تفجّر رأس الجثة وعمودها الفقري وانبثق المخ وانفصل جزء من الوجه منفصلاً عن بقية الجسد الملطّخ بما خرج من الأحشاء، كانت الجثّة مغلّفة بثياب ممزّقة ظهرت في هيئة قذارة متعفّنة مخيفة، أبى الجميع أن يقترب من الجثّة حين صدمتها المركبة، التوى عنق الجثّة ليعاكس اتّجاه النّهد المنفرد بنفسه والهارب من الثياب المصبوغة بالدّم، حين رأيتها شعرت أنّ صاعقة نزلت على فؤادي، كأنّ سماء الدّنيا انزلقت نحوي وقعدت على قلب بائس فجعلت منّي صما بكما، جرى دم الجثّة بين أرجل مصوّرين ابتعدوا عن مجرى الدّم خوفا من مهاجمة أشباح الموت لهم، جرى خيطٌ من الدّم ملتويا منعطفاً حتّى بلغ سقيفة البؤس وخيوط أخرى أحاطت بالجثّة ثم تخثّرت لتبوح بأسرار الأرض حين رفضت شرب دماء الهالكة، تكوّرت بشاعة المشهد وامتزجت مع روحي فأحسست أنّ روحي غادرت الجسد وهي تعانق روح الجثّة النّافقة الهامدة المتعفنة وكانت الفاجعة الكبرى، إنّها أمّي...

وصلنا...

في بعض الأحايين يجب علينا أن ننسى من أجل الصّمود، وقتها يكون النّسيان دواء روحيا يمكن لنا محاربة الماضي الأليم به، ومنهزمٌ من تمرّدت عليه ذاكرته، أُعلنت نتائج البكالوريا وكان اسمي مع النّاجحين، نقل باديس مدير الفندق الملف الدّراسي الخاص بي إلى جامعة الولاية الجديدة وفرح بنجاحي وقرّر توظيفي عنده في شركة من شركاته إذا أكملت دراستي وتخرّجت، غادرت الثّانوية والعاصمة وجميع الذين عرفتهم هناك، ابتعدت عن يوسف وعن رانيا وكلّ من عرفتهم في الثّانوية، مضت الأيّام والشّهور والسّنوات وأنا أدرس في جامعة الولاية الجديدة محاولة نسيان يوسف وصديقتي رانيا والعاصمة كلّها، في جامعة الولاية الجديدة التقيت بكثيرٍ من المجانين الذين يعشقون المرح وتحويل الأوهام إلى حقيقة، ينتظرون عطلة الأسبوع بلهف يغمرهم شوقا إلى خوض مغامرات جديدة، وفي بداية كل أسبوع يقصّون علي قصصهم المثيرة والمشوّقة التي عاشوها عطلة الجمعة والسّبت، في بعض الأحايين تكون قصصا مرعبة أشبه بما يحدث في أفلام الرّعب، وأحايين أخرى تكون مماثلة لما نقرؤه في الرّوايات البوليسية، وفي الغالب يذهبون إلى أجمل الشّواطئ أو إلى الغابات الخضراء الرّائعة لينصبوا الخيّام والمتعة، لا تزال ذاكرتي تحتفظ بجميع أحداث السّنين الثّلاثة هناك في الجامعة، في آخر سنة وقبل أن أتخرّج أخذ منّي باديسُ السيّارة

التي اشتراها لي في الثّانوية، وفي نفس السّنة تعرّفت على الطّالبة سارة ونسرين وعاصف البدين، وأيضا تعرّفت على رامي الضّخم الوسيم، وفتاة أخرى اسمها جبيلة.

طيلة السّنة الأخيرة هناك في الجامعة كانت الطّالبتان سارة ونسرين يودّان منّي التّخييم معهما، وكانتا متشوّقات إلى استضافتي معهما لكنّني كنت أرفض ذلك، كان عاصف البدين ورامي والضّخم الوسيم يعشقان الموسيقى الصّاخبة، أمّا سارة ونسرين كانتا شغوفتين بالبحر والتجوّل في الحدائق والغابات، أما الفتاة الهادئة جبيلة، فقد كانت الوحيدة التي ليس لها هواية، لا تعرف سوى المرافقة بدون أي سؤال، في الأيّام الأولى التي تعرّفت فيها على هؤلاء الخمسة ظننت أنّ جبيلة مريضة نفسيا، أو أنّ الانطواء الهادئ أخذ منها روحها فصارت تعشق الانعزال، طباعها تناقض طباع سارة ونسرين اللّتان لا تفترقا، سارة ونسرين كانتا أشبه بالجسم والرّوح وإذا اختفت إحداهما فهذا يعني أنّ الموت دخل بينهما، أمّا جبيلة الغريبة فكانت تعني الهدوء والصّمت وكأنّها الموت في هيئة أنثى، لقد أُعجبتُ بأخلاق جبيلة وفُتنتُ بهدوئها. جمعتني بهؤلاء الخمسة الجامعة في تمثيلية مزيّفة تعرّفت عليهم ذات صباحٍ وقد كنت مستغرقة في النّوم داخل قاعة الدّرس على طاولة من الطّاولات، وكنت قد أمضيت الليلة أعمل في مكتب الاستقبال داخل الفندق الجديد، نضح أحدهم وجهي بالماء فاستفقت فلم أجد أي شخص، ولم أجد

محفظتي المملوءة بالوثائق التّابعة لإدارة الفندق وبعض الوثائق الأخرى والنّقود، وقفت مفزوعة واستدرت خلفي فلم أجد أي طالب أو طالبة. طفقت أبحث عن المحفظة ففوجئت بالثّنائي سارة ونسرين لمّا خرجا من تحت الطّاولة، ابتسما لي وأثنيا علي ثناءً فما أدركت ما يوجب علي فعله اتّجاه المزحة والثّناء الوقح، رغم الغضب الذي ملأني إلى أنّ الصّدق والسّلام اللّذان يسكنا داخل روحي جعلاني أبتسم لهما بلطف، عرّفاني بأنفسهما وأخبراني أنّ منزلهما قريبٌ من الجامعة فاحترت لهما، فما دخلُ منزلهما؟ بعد دقائق من حديثنا سألتهما عن صديقات جدد تعرّفت عليهن في السّنوات الثلاثة التي انقضت في الجامعة، وكنّ صديقات سطحيات لم يأخذن مكانا في الحياة مثلما أخذته صديقتي رانيا التي تعرّفت عليها في ثّلاث سنوات الثّانوية هناك في العاصمة، فقالتا نسرين وسارة أنّ صديقاتي لم يدخلن اليوم الجامعة، سألتهما لأنّهما كانتا يحادثنهن في بعض الأحايين، ولمّا هدأت وغادرني الغضب دخل إلى قاعة الدّرس عاصف البدين ورامي الضّخم الوسيم، وكانا يتحدّثان على مغنيين أمريكيين، كانا لابسين سراويلٍ ممزّقة من الواجهة وعريضة عند الفخذين وضيّقة من الأسفل لدرجة أنّ الهواء لا ينسرب منها، وقميصين واسعين يتدلّيان من خلفهم ومرسومٌ عليهما رسومات مخيفة. قبل ذلك اليوم كنتُ أراهما في الفناء يحادثان الطّالبات وعلى صدرهما سلسلة فضّية طافت بأعناقهما، أعلى رأس رامي الوسيم

وُضعت تقية تشبه جناحي عصفور وكان رامي وسيما وله جسم ضخم ورياضي، اقتربا منّا بحركات تشبه حركات المجانين أو السّكارى. يتحدّثان بأسلوب مثير للغرابة حيث أنّ أيديهم لم تكد تكف عن الحركات الغريبة التي تصنعها أصابعُهم المملوءة بالخواتم، أمّا عاصف البدين فقد كان معتدل الطّول غريب الحركات تترنّح في أذنه قروط ذهبية لمّاعة لم أرى مثلها في حياتي، أعادت لي نسرين محفظتي واعتذرت لي عن اللعب غير المحبّب، بعد مرور أيام من معرفة سارة ونسرين ورامي الوسيم وعاصف البدين تعرّفت على صديقتهم جبيلة، ولم تكن قد بلغت العشرين من عمرها وكانت جبيلة سمراء جميلة لها عينان حدقتهما شتاء مثل طبعها الغريب. شعرها أصفر وشفتيها بريئتين رقيقتين لغتهما العطف والبرودة، ناسب طولها جسدها الفاتن فكانت وردةً كالرّبيع، الشيء العجيب فيها هو أنّه لم أتمكّن من تقدير نوع الهدوء الذي كانت تعيشه جبيلة رغم قراءتي لكتاب سوزان كين المعنون (الهدوء قوّة الانطوائيين في عالم لا يتوقّف عن الكلام) عسر علي فهم هدوئها أهو هدوء الانطوائيين أو الانبساطيين؟

في الأيّام الأولى انتبهت لجبلية التي كانت تسير خلف رامي الوسيم مثل الخادمة، إذا أمرها تُطِع وإذا نهرها تتبكّم، وإذا طلبها تخضع وتضرع، في أمسية من أمسيات الجامعة زُلزلت أرض الجامعة زلزلة روحية وجلت منها قلوب الخبيثين وأشفقت لها القلوب القاسية والرّحيمة، وأفزعت

قلب الصّالح والفاسد، كان الجميع يقف حول الوقيعة المحزنة مرعوباً، بعضهم يبكي وآخرون وضعوا أيديهم على أعينهم وأفواههم غير مصدّقي المصيبة، اقتربت من المكان لأرى تلك الحادثة وقد كانت العيون تدمع والقلوب خُشّع، وددت معرفة السّبب الذي جعل الكثير من الطّالبات ينحبن في بكاء هستيري ولمّا بلغتهن فزعت لجثّة فتاة غارقة في أحمر العروق، أثارت الخوف في صدور النّاظرين إليها، فتذكّرت الطّالبة التي انتحرت مثلها لمّا كنت أدرس في ثانوية العاصمة، وجلت أنا أيضا من رعب المشهد، كان شعرها ملتصقا بالأرضية و الدّماء متخثّرة عن جنبيها، لم تفزعني رؤية الجثّة أكثر من فزعي حين علمت أنّ الفتاة التي انتحرت هي جبلية الهادئة، جاء المكلّفون بالأمن والتّحقيق وشرعوا في تحرّياتهم وتحقيقاتهم محاولين معرفة الحقائق، لم أتقبّل القول الذي انتشر بين أفواه الطّلبة والطّالبات إذ قالوا أنّ سبب انتحار جبلية هو مشاكلها العائلية والظّروف القاسية والصّروف الأقسى من بينها الفاقة والحرمان. تذكّرت رانيا صديقتي في الثّانوية لمّا قالت أنّ سبب الانتحار هو الجهل، ولكن جبيلة لم تكن جاهلة بل كانت متعلّمة تتحصّل على علامات ممتازة، منذ أن رأيت جثّة جبيلة التي انتحرت تزعزعت جسور الأمن المعلّقة في داخلي، تألّمت كثيراً فبكيتها، سألت وبحثت عن سبب انتحارها فقالوا أنّ طالباً اعتدى عليها، وقال آخرون أنّه كان حبيبها، لمّا استرسلت في الاستفسار والأسئلة علمت أنّ جبيلة لم تكن تخالط

الطّلبة ، وكانت ضدّ الاختلاط السّافر في الجامعات، حزن أولئك الطّلبة والطّالبات يومين أو ثلاث ثم عاد إليهم ابتهاجهم وضحكاتهم، وددتُ لو أنّ جبيلة علمت أنّه لم يحزن عليها إلّا والدتُها ووالدُها، تلك الأم التي حملتها تسعة أشهر في بطنها وأبوها الذي كلّ متنه وهو يموت قهراً في عمله من أجل تعليمها، انتحرت وأحرقت قلبا والديها.

ما انقضى الأسبوع الأوّل بعد انتحار جبلية حتّى نادتني سارة ونسرين إليهما وكانتا جالستين حول طاولة في ساحة الجامعة، نادتني نسرين التي تخلّل خدّيها بياضٌ ناصعٌ فكان وجهها مثل القمر وكانت لها عيون سوداء وأشفار مزيّفة و صبغ شفتيها الرّقيقتين أحمر الشّفاه. كدت أحسدها على ذلك البنطال الرّبيعي والقميص الأحمر الذي تناسق مع أحمر الشّفاه، نادتني إليهما فاقتربت منهما.

- مرحبا عفاف، هل أنت بخير؟

- بخير وأنتما؟

- نحن دائماً رائعات، هل رأيتِ إحدانا يوماً عابسة الوجه؟

- لا أبداً، حتّى يوم انتحار صديقتكما جبلية رأيتكما مسرورتين!

نظرت نسرين إلى سارة نظرة مريبة ثم تناولت كأس العصير لتشرب، ابتسمت لي سارة النّحيفة ذات الوجه العطوف والبشرة السّمراء والعيون الليلية ثم ملأت لي كأس عصير وقالت:

- إنّها الحياة، كلنا سنموت، رحمها الله.

ناولتني سارة كأس عصيرٍ وهي تتبادل النّظرات مع نسرين، نظرات مريبة جعلت قلبي ينفر من الجلوس معهما، كنت ارتشف العصير لكنّني شعرت أنّ حلاوته إذا بقيت معهما ستكون حلاوة العلقم، رمقاني بسخرية فتجرّعت الكأس جرعة واحدة ثم سألتني سارة السّمراء النّحيفة:

- إلى أين أنتِ ذاهبة يا عفاف؟

- إلى المنزل، بل إلى الفندق، سأشرع في العمل بعد ساعتين.

- هل تمضين الليل كلّه مستيقظة؟

- نعم، ولكن ليس دوماً، يوجد موظفة أخرى أعمل معها بالتّناوب.

- ماذا لو قضيتِ هذه الليلة نائمة يا عفاف؟

حرّكت رأسي وهززته بقوّة يمنة ويسرة، حتّى تحرّر شعري الأصفر الذّهبي الكثيف وانتشر على جسدي. في كلّ مرّة أحاول فتح عيني ينغلقان، شعرت أنّ شيئا ما يجري داخل روحي، كان وجهي الأشقر عابساً وشيئا ما جعلني أشعر أنّني أقابل المرآة وأبتسم. أحسست أنّني في عالم آخر أتأرجح على أرجوحة معلّقة في أعلى غصن شجرة سامقة، لكنّ الشّجرة كانت تنثر السّعادة، كنت أشبه بالورقة التي أرقصتها الرّيحُ على إيقاع الخريف، والواقع أنّ الأغصانَ طردت تلك الورقة فعانقها الرياح وجعلتها مسخرة بين الفصول. كنت أرى كلّ العالم بإحساس صبي يشاهد بهلوانية ليس لها معنى، ولكنّ الصّبي كان يبتسم لتلك التّفاهات. حاولت العبوس ولكنّني ضحكت وكأنّني كنت أركب سفينة

الحزن وأدفع بالمجذاف إلى المجهول، ثم رميت المجذاف في البحروغصت وراءه حتّى بلغت سعادة العمق، كنت استنشق الهواء وأحاول التّمييز إذا كان له ذوقٌ، هجرني الوعي وفقدت الحكم على اللحظات التي شعرت فيها أنّني أسعد فتاة في العالم، كأنّ روحي كانت متّكئة على كرسي من الإبريز داخل قصر مبنيٌ من الذّهب والألماس، كنتُ مثل أميرة تعيش بين الوهم ونقيضه، انفلتت منّي الأفكاروالقرارات فطلبت منّي نسرين ذات القميص الأحمر الخروج للعشاء معهما فوافقت من دون تفكير، ركبت معهما السيارة وكانت الموسيقى صاخبة، تدفّقت المتعة بداخلي دفقا فراقت لي الفوضى داخل السيارة التي لم أعرف نوعها، كنت ونسرين وسارة السّمراء النّحيلة نجلس على الكراسي الخلفية، أمّا رامي الضّخم والوسيم فكان يقود السيّارة عاصف البدين كان قاعداً على المقعد الأمامي يرقص بيد واحدة، أمّا يده الأخرى فكانت تمسك بقارورة زجاجية يرفعها إلى أعلى وهويصرخ ثم ينزلها ليشرب بهدوء، لم أكن أدري إلى أين كنّا نتّجه ولم أسأل، أكمل عاصف البدين زجاجة الخمرة ثم تقيّأ داخل السيّارة، لمّا أوقف رامي الضّخم الوسيم السيّارة بجانب الطّريق، انتبهت إلى السّاعة وكانت الخامسة مساء، إنّه طريق غابي مخيف، أخرج رامي الضّخم الوسيم أوراق السيجارة وأخذ في لفّ سيجارة، انتهى من صنعها فناولها لسارة السّمراء النّحيلة، والثّانية لنسرين الشّقراء، كان الجميع يضحك بوحشية حتّى بلغ المزاح درجة الرّذائل والقذارة،

استدار عاصف البدين نحونا و ارتمى القذر النّتن الفائح برائحة الخمر بيننا على الكراسي الخلفية، كانت الرّائحة القذرة تخرج من فيه في كلّ مرّة يتجشّأ فعانق نسرين و كانت سارة النّحيلة هادئة هدوء الجثث المحنّطة، أكملت نسرين قارورتها فاقترب منّي هذا البدين الفائح القذر، كانت رائحته الكريهة تخنقني، حاولت فتح الزجاج المعتّم لكنّني لم أفلح في ذلك، اقترب منّي أكثرونفخ في وجهي غمامة من الدّخان فدفعته حتّى عانق رامي الوسيم الضّخم فأسقط له زجاجته، استغرق عاصف البدين دقائقاً وهو يحاول استعادة توازنه، ثم دفعه رامي الوسيم نحونا فضحكت نسرين بريب، لم يغضب عاصف البدين لأنّني دفعته وأخرج من محفظته قارورة خمر وأهداها لي مبتسماً، رفضتها بقوّة ففتحها وأفرغ قليلا منها داخل المحفظة التي كانت تحفظ وثائق إدارية للفندق، شتمته فأرغمني على الشّرب فأرغمته على الابتعاد، خوّفتني ملامحه التي تظهر عليها آثار الجراح القديمة فأمسكت القارورة، غربت الشّمس فصحوت من ضربة الكأس فانتبهت للوقت، وقد كنت متأخرة عن العمل بنصف ساعة، كان من المفترض أن أكون في الفندق عند السّادسة مساءً، إنّ الرّجل الذي جعله العم باديس مديرا للفندق لا يقبل التّأخر.

- أنا متأخرة عن العمل يا رامي، هل يمكن أن تعيدني إلى الفندق؟

لم أتلقّى جوابا أو أي كلمة من أفواه الأربعة، وبعد دقائق نطق رامي وقال:

- لا تقلقي يا عفاف، إنّ هذه الليلة ستكون رائعة، إذا منع عليك المدير الذي تعملين عنده أجر هذه الليلة سأعطيها لك أضعافاً، لا تقلقي أنتِ في أمان بيننا، ما به وجه الجميلة مكفهراً عابساً؟ نحن لسنا شياطين، هل فهمتِ يا عفاف! نحن لسنا شياطين! مفهوم أو لا؟ أنا أتحدّث معك...مفهوم أو غير مفهوم؟ تكلّمي!

ضحك الجميع بسخرية فازدردت ريقي وشعرت بضيق في صدري، ألححت في طلبي ولكن بدون نفع أرغموني على الاستسلام، مضت أكثر من ساعة منذ أن توقّفنا على جانب الطّريق الغابي، جاء الليل ونشر ظلامه فتبادل رامي الوسيم وعاصف البدين قيادة السيّارة، فانطلق البدين إلى وجهة لا أعلمها، عجبت لنفسي! كيف ركبت معهم من دون أن أسأل؟ ندمت على ذلك اليوم الذي رأيتهم فيه، وتمنّيت أنّني لو لم أتعرّف عليهم.

- لا تعكّري مزاجنا! اشربي...عند ما أقول اشربي امتثلي للأمر، مفهوم؟

كان الخنجر بين إصبعي الوسيم الرّياضي يُفتح ثم يُغلق، أمسكت القارورة وتظاهرت بأنّني أشرب. صمت الجميع فعاد الهدوء التّام إلى السيّارة وبعد دقائق انتبه الوسيم إلى أنّ القارورة لاتزال مملوءة فخنقني بيديه بعنف، في البداية ظننت أنّه سيتركني بمجرّد أن اعتذر له ولكنّني لم أستطع النّطق، لم أستطع الاعتذار. تدخّلت سارة لتنقذني من براثن الوحش السّكران، وقبل إفلات رقبتي من أظفاره تقيّأ على

الزّجاج، أرخى أصابعه عن عنقي وبدون أي تفكير تجرّعت أوّل جرعات الخمر في حياتي، قبل ستّة سنوات لمّا كنت في الفندق مع أخي عثمان ووالدتي حدث لي حدثٌ مشابه ولكنّني في ذلك الزّمن لم أشرب الخمر، حتّى ثلاث سنوات الثّانوية لم أشرب فيها ولم أفكّر في ذلك. سلِمت عنقي من مخالب رامي فرمقني نظرة الحاقد فأكملت القارورة بسرعة فأصابني الدوّار، عادت الفوضى إلى داخل السيارة وبعد مرور أكثر من نصف ساعة من السّير، بلغنا مكانا غريباً بدى أنّه منزل صغير أحاطت به أشجار نثرت بعض أوراقها على الزّجاج الأمامي للسيارة، أخفض رامي الوسيم صوت الموسيقى فسمعت نباحاً أرعبني، انتشى عقلي فانتهيت من القارورة، فسمعت الوسيم الرّياضي يقول "وأخيراً ها قد وصلنا"

* الانفلات من الزّمن *

حدث الرّزء فانتقم القلب من الجسد، وغاب العقل عن منطقه فقضى الوجومُ حكمه، تكفّل العم عيسى بجثّة أمّي المرمية وسط الطّريق وغير البعيدة عن سقيفة البؤس، العم عيسى هو نفسه ذو الوجه الواسع واللحية البيضاء مع أسنان مرصّعة تمسك بعود أرآك وعلى ناصيته كانت موضوعة نظّارات شمسية سوداء، على صدره موجود جيب به قلم وحمّالة صغيرة بارز شكلها، وكان قميصه أبيض اللون، تكفّل بمراسم الدّفن وتشييع الجنازة وأنا ندمت لأنّني صارعته قبل أن تصدم السيارة أمّي، و قبل أن تجعل جسدها شبيها بكون انتثرت كواكبه، وقبل أن يلقاها البصر مكسورة الظّهر ملقاة همداً في شارع السّعادة، شعرت بكرب لعنة الاحتقار والحزن يثوران داخل القلب، ولكن ما بكى القلب لموتها، وما تفاجأ العقل لما رأى، ساعدت العم عيسى في جمعها وحين سألني؟

- لما تساعدني و قد تشاجرت معك قبل قليل؟

- أنا لا أساعدك، أنت من يساعدني.

- ابتعد عن الجثّة يا عديم التّربية، أنت نجس والخمر يفوح منك.

- لن أبتعدَ عنها، أنتَ من وجب عليه الابتعاد عن جثّة أمّي!

نظر إلي العم عيسى مصعوقاً، صعب عليه الكلام وهو يحاول ستر أمّي بإزار تبرّع به أحدهم، حينما قلت له أنّ الجثّة هي جثّة أمّي لم يتبيّن له

إن كنت أمزح أو أقرح، كأنّ الأشياء لم يعد لها معنى، كأنّني لم أكن بشرياً، كأنّ الجسد لم يكن إلّا مادّة، وما أقسى الرّوح إذا صارت جماداً لا تشعر بالألم وهي تمتطي قساوته ولا تحنو إلى الحب وهي بحاجة إليه، ولا تأسف للشّقاء وهي تغوص في أعماقه، ولا تطلب الهناء وهي فاقدةٌ له، إنّ العم عيسى واساني حين الوقيعة، تكفّل بكل شيء حتّى آخر رفش من مراسم دفن أمّي، إنّها أيّام مظلمة جعلتني أشعر أنّني في جحيم دنيوي، فشفع لي العم عيسى فجازت شفاعته وأُخرجت من جهنم الدّنيا. أكمل ستر أمّي بالإزار ثم عانقني بشدّة فسقطت نظّاراته فانكسرت، في نفس اليوم انتشلني العم عيسى من شارع السّعادة وخصّص لي غرفة في منزله ذي الطّابقين وغير البعيد عن العاصمة، كان يسكن في الجانب الشّرقي وقريبا من الشّاطئ نفسه أين اعتدت على السكر، كانت الغرفة في الطابق الثّاني مملوءة بالأثاث ويوجد بها تلفاز واسعةٌ شاشته معلّق في الزّاوية اليسرى، مقابلا المضجع المزدوج الجميل المفروشةُ عليهِ ملاءةٌ حمراء، وكانت جدران الغرفة مصبوغة بلون مشعّ وباقي ألوان الأثاث رائع، بعد أن دُفنت أمّي دُفن معها جوهر الحياة، لم أبك في ليلة المصيبة بل وددت أن أثمل، عانق سكّان شارع السّعادة جسدي وضمّوني إلى صدورهم بقوّة وهم يعظّمون الأجر، ورأيت دموعهم ومآقيهم تجري مثل حمم البراكين إذا جرت على الحياة، لقد أحرقت الدّموع خدودهم أكثر

من بكائهم يوم شاهدوا مسرحية الموت داخل مقهى الرّحمة، ما جرت المآقي على وجهي الأسمر الشّاحب، ولم تذرف عينيّ الخضراوين حمماً مثل البراكين، بل نزلت دمعة واحدة بسرعة فبلّلت الملاءة الحمراء وأغرقتني في عالم لا يُرى، كأنّ الدّمعة عمرت الغرفة حتّى السّقف فسبحت أحزاني بداخلها.

سار الزّمن بأيّامه القلائل، وفي يومٍ من أيّامه، ألقيت جسدي على المضجع الأحمر المقابل للتّلفاز فرأيت المذيعة تخبر أنّ الانتخابات الرّئاسية قرُب موعدها وأنّ البلد سخّر المليارات لإنجاح هذه الانتخابات، أمّا ثاني خبر فكان يخص مشاريع اقتصادية، أكثر ما أضحكني وأنا أشاهد التّلفاز هي مبالغ مالية لم أحفظ أرقامها لأنّها كانت كثيرة، قالت المذيعة أنّ هذه المبالغ خُصّصت لإخراج فيلم لوصف حالة الفقراء، ومبالغ أخرى لبناء ملاعب وتطوير الجانب الرّياضي، حين انتهت المذيعة من آخر خبر وكان متعلّقا بالعلاقات السّياسية بين البلد وبلدان أخرى، قهقهتُ حزيناً وشعرت أنّ القدر كشّر لي ضاحكاً، انزعجت من التّلفاز فأطفأته.

في البداية شعرت أنّ منزل العم عيسى فارغ لا يسكنه سوى أنا وبعض الأشباح كانوا يأتون إلي لإعطاء آرائهم مع بعض المردة، شياطين أكاد أن أشعر بدخولهم إلى الغرفة، شياطين وأشباح تقترح علي آراءها ثم تنام داخل الغرفة، أتذكّر باديس صاحب القبّعة والغليون حين أخرجنا من القرية بوثائق قانونية تثبت امتلاكه أرض القرية كلّها، فتقترح علي

الشّياطين أن أنتقم منه، كثيراً ما فكّرت في ارتكاب جريمة ضدّ نفسي، في نفس الغرفة تعرضت لكثير من الوساوس الممتزجة مع هواجس مخمورة جعلت تفكيري ثملا يتخيّل حدوث أشياء مرعبة، أحيانا أتوهّم أنّ كوكب الأرض هو جنّة الأغنياء، وحين أرى أنّ الكثير منهم بخلاء وشياطين، أصحو من الوهم فأتذكّر أنّ الجنّة لا يسكنها هؤلاء، إذا أردت مغادرة منزل العم عيسى والذّهاب إلى شارع السّعادة لن أنزل عبر الأدراج إلى الطّابق الأوّل ثم أخرج من باب هذا الأخير، بل يجب علي أن أنزل عبر السلّم الحديدي الموجود في الجهة الخلفية للمنزل وأتمشّى لعشرة دقائق فأصل إلى الشّارع أين توجد سقيفة البؤس، مقهى الميناء، والشّاطئ أيضاً لم يكونوا بعيدين، أخبرني العم عيسى أنّ منزله ليس فارغا، وأنّ زوجته وأبناءه الثّلاث وابنته الوحيدة ذهبوا لأقربائهم فتمنّيت أن يتأخروا في العودة لأنّ الغرفة أعجبتني، كانت جدرانها وردية اللون وجميلة، أمّا السّقف كان رائعا ناصعا ومصباحه قمراً فكانت الغرفة مثل الحديقة المدهامّة ليلة البدر، السلّم الحديدي المركّب خلف المنزل قال عنه العم عيسى أنّه ركّبه للتّيسير على العمّال بلوغ الطّابق الثّاني قبل انتهائهم من الأعمال النّهائية للغرف الأخرى، ولمّا انتهت الأشغال تركه راكبا، والحقيقة أنّه ركّبه من أجل ستر زوجته وابنته من العمّال، داخل الغرفة الرّائعة يوجد خزانة بنفسجية اللّون دبّجتها مرآة أدمنتُ النّظر إليها، كان للعم عيسى ولدين وبنت، صارع الحياة من أجل توفير لهم كلّ

ما يلزمهم للدّراسة، أكمل ابنه الأكبر عصام دراسته الجامعية وتخرّج قبل أخيه الأصغر عماد بثلاثة أعوام أمّا عماد فقد تخرّج في نفس العام مع أخته صفاء الحالمة بدخول عالم الصّحافة والإعلام، يا ليتني رأيتها قبل أن أفقد حب البشر وألفَتهم، كانت صفاء مثل التّعويذة في لسان الخاشع، ومثل سحر السّاحر في الماء الدّامع، وكانت النّجمة المتلألئة في ليلةٍ خانها القمرُ. كأنّها ومضة من ومضات الملائكة المخلوقين من النّور كأنّها الحورية الهاربة من جنّات البهاء والجمال، جعلت روحي ترفرف على انكسار الظّلام لتنير قلباً بور، كان عصام ابن العم عيسى يختفي في النّهار ولا يُرى إلاّ في اللّيل.

ماتت أيّام وحيت أُخرٌ فعلمت أنّ الشّهادة المتحصّل عليها لم تنفعه في الحصول على وظيفة، وجعلته يمقت السياسة مقتا كبيرا لأنّه ظن أنّ السياسيين هم السبب في ضياعه، التقيت به في إحدى الليالي خلف المنزل وكان الوقت متأخرا، كانت السّماء سوداء يغشاها الغمام فلا يرى فيها النّجوم ولا القمر، غادرت الشّاطئ والصخرة السّوداء متّجها إلى منزل العم عيسى حيث توجد الغرفة الجميلة، ولمّا اقتربت من السلّم الحديدي أترنّح سكرانا رأيت عصام يقوم بإشعال سيجارة، ولأنّه كان متّكأ على السلّم المنار بمصباح ركّبه العم عيسى لم أشأ إزعاجه، أوربّما استحيت من أن يراني أدخل منزل أبيه ثملاً فتكركر قراري عن أمر دخول الغرفة الجميلة واستدرت راجعا إلى الشّاطئ حيث الصّخرة السّوداء.

بينما كنت أتمايل في المسير راجعاً إذ به يقبض كتفي بيده العريضة، استطاع معرفتي حين رآني أترنح تحت أضواء الطّريق التّرابي.

- الوقت متأخر، ادخل إلى المنزل يا عثمان.

رأيته أوّل مرّة داخل الغرفة الجميلة، كان طويلا واسع الظِهر يرتدي سروالا عريضا وقميص لاعب كرة سلّة، عينيه الكبيرتين سوداء مثل الليل الحالك وشعره طويل وأكثر حلكة، إنّ هيئته الرياضية تخفي خلفها مروّج مخدّرات أدمن على الكحول، أراه فأتذكّر أباه فأستحي منه، تمنّيت أن يعود بي الزّمن إلى ما قبل اللقاء بالعم عيسى، فمنذ أن تشاجرت مع هذا الأخير وبصقت على وجهه صرت أرى سفاهتي كلّما قابلني وجهه ولحيته البيضاء أو أبناءه، شعرت أنّني أقذر المخلوقات وأنّ الانتقام من القذرين الأشحّاء هو إكرامهم، رأيت نفسي سفيها ليس له الحق في أن يخلط أنفاسه بهواء الصّالحين، أحسست أنّ شعور البخلاء إذا أكرمهم الكرماء هو شعور الأمراء حين تقدّم لهم جواريهم أطباقاً من الجمر، في يوم وفاة أمّي جاد علي العم عيسى ببدلة زرقاء رائعة، وكان يأخذني معه في سيارته، طالما قال "لا تقلق يا عثمان، أنت بين إخوتك ولن تحتاج إلى شيء ما دمتُ في الحياة"، ظننت أنّ بيني وبين القدر عداوة، فكلّما حاولت التغيير قصفت الأقدار نحوي مصيبة، تثاقل كياني بعبء الحياة المتوترة والمضطربة، حتّى خطواتي تغيّرت بعد حدوث الوقيعة الفاجعة لفؤادي، لم أعد أحمل ذرّة إيمان توحي بأنّ

الحياة ستنتهي عن إعداماتها المتتالية لأقرب الأحبّة، حتّى العم عيسى المملوء قلبه إيمانا وهدوء، لم يستطع تهدئة روحي الثّائرة، العجيب في ثوران الأرواح هو أن الأجساد تصبح أكثر هدوء من البحر إذا دخل في هدنة مع الرّيح، كنت انفلت صباحا من الغرفة وأنزل إلى الشّارع، حيث أجد العجوز نائمة تحت سقيفة البؤس، ولا أعود إلّا بعد منتصف الليل، و من غير أن أشعر جعلني العم عيسى أستحي حتّى من ظلّه.

بعد مرور أسبوعان من الصّدمة رأيت الأفعى الرّجل الذي أخبرني قبل أيّام أنّ أبي مات، وسألني إن كنت أريد العمل معه في توزيع المخدّرات، وقال أيضاً أنّه يعمل عند باديس صاحب القبّعة والغليون، رأيته يخرج من مقهى الميناء وهو يعرج، دفع ثمن المشروب ودلف نحو سيارته مطمئنّاً، لمّا أطلق المحرّك وهمّ بالانطلاق صنعت قعقعة على زجاجه المعتم، فغاص الزجاج داخل غمده آليا فاندهش الأفعى في سحنتي.

- واو! لقد أكرم القبيحَ جمالُ المومسات! هل جادت عليك السّماء في ليلة مباركة؟

- جميع الليالي في زمن أمثالك ملعونة، أنا موافق على العمل معك.

ازدرد الأفعى ريقه مع ابتسامة سخرية أفصحت عن إعجابه وتعجّبه في نفس الوقت، وضع الرباعيات الاصطناعية لفكه العلوي ببشاعة، ثم سأل:

- كيف وافقت يا عثمان ولماذا؟ هل لأنّني أعمل لصالح باديس مُخرجكم

من النّور إلى الظّلمات؟

- لستُ في استجواب لدى المخابرات، إذا لم تكن تريد التعفّن في سربالك القذر، فلا تسأل كثيرا، وإذا أردت منّي الولوج إلى عالم الجراد البائع للسّم، وافق من غير أسئلة كثيرة، إنّ العقرب الموشومة على رقبتك الطويلة مثل الزرافة خطرة، احذر من لسعاتها.

لم أشأ الإلحاح عليه ليوافق، قد يشك في ما أريد فعله. إنّه السّبيل الأمثل والجسر الوحيد والمعبر الأوحد إلى حياة باديس صاحب القبّعة والغليون لأنتقم لعائلتي المدفوعة إلى الشّارع من غير رحمة.

- هل تقرأ الكتب يا عثمان؟

- وهل ترويج المخدّرات مهنة يجب على صاحبها أن يكون قارئ؟

- اسمع يا عثمان! إذا أردت العمل معي لا تتنطّع في الكلام كثيراً، إذا كثر الضّغط انفجر الصمّام، حتّى وإن كنت يا عثمان متشرّد بائس ومن أهل الشّارع، يجب عليك أن تتأدّب إذا حدّثتني، مفهوم؟

- هيه...متشرّد بائس، وأنت من؟ دكتور مثلا...دكتور؟

- نعم، أنا دكتور يا عثمان، ستتأكّد من هذا لاحقا يا صاحب الحدس الخارق، قل لي، هل تصلّي؟

- لم أدخل المسجد في حياتي.

- هل أنت متدين؟

- لا أعرف كثيراً عن الدّين.

- إذن، هل تعلم أنّ قتل الظالم واجب مقدّس؟

- عرفت رجلاً واحداً ليس ظالماً وهو العم عيسى، و أنت لا تعرفه، سألتك إذا كنت موافقا على أن أعمل معك في توزيع السّم، ولم أسألك أن تلقي علي موعظة حتّى خطب الجمعة لم أكن أستمع لها، بل كنت أقضي زمنها نائما تحت سقيفة البؤس، ولا أظنّ أنّك تعرف هذه أيضاً.

- رائع أنت يا عثمان، فأنت غير متديّن، ولا يمكنك التّفريق بين الليل والنّهار، ولا تقرأ، وإنّك لتحمل حقداً كبيرا، أكبر من حقد الشّيطان المارد للعبد الصّالح، هل تعلم يا عثمان أنّك ضربٌ من ضروب الجحيم؟ على أيّة حال يا عثمان سأبحث عنك لاحقا لتشرع في العمل معي، أمّا الآن فأنا ذاهب لتوصيل بعض الدّواء لبعض المرضى، إلى اللقاء يا عثمان.

رام الأفعى ساحة مقهى الميناء، ركب سيارته ومضى.

انتظرت رد الأفعى و موافقته على ترويج و بيع المخدّرات معه بشوق، أموال العم عيسى لم تكن تكفي لشراء الخمر والسّجائر، وكنت أرفضها أحيانا لأنّني أستحي حتّى من ظلّه، أحيانا ينفصل الظل عن جسده ويأتيني خفية، أحيانا يكون العم عيسى في السّوق وظلّه يكون معي داخل الغرفة، بإمكاني رؤية ظلّه حتّى في الظلام، أراه حتّى في ليالي السكر على الشّاطئ، أراه وهو يمسح الدم من وجهي بعباءته النّاصعة، أراه في الصّحوة و في المنام، كنت أستحي حتّى من قميصه الأبيض الطّاهر إذا غسلته زوجته ونشرته خلف المنزل ليجف، وإذا لبس قميصه النّاصع

أراه مثل الملاك إذا مشّى فوق الأرض، إنّ لحيته البيضاء كانت مثل البدر تزيّن وجهه المنار بنور التّقوى والهداية، في كلّ مرّة يراني فيها كان يبكي، دائما يطلب منّي أن أذهب معه للصّلاة لكنّني كنت أرفض، وحين أرفض لا يرغمني عليها، ويكتفي بالدّعاء لي بالهداية، لم أكن أدرك معنى الهداية أو الصّلاة، فإنّ النّاس كانوا يسارعون إلى المسجد وينعطفون على يمين سقيفة البؤس ولا أحد منهم كان ينصح لي، كان الجميع يرى أنّ الفتى سيخلد في الجحيم، سواءً حين كنت في الثّانية عشر من عمري أو لمّا بلغت الثّامنة عشر.

طال انتظاري للأفعى ولم يظهر، ولكنّني التقيت بإنسان آخر يشبهه تماماً، إنسان لا يعي معنى الحب أو الرحمة، إنسان ملعون أكثر من هو شرّير وكان اسمه الثّعبان، اختفى الأفعى فظهر الثّعبان! قد يستغرق الإنسان كثيراً من الزّمن ليفهم أنّ بعض المصائب ليست مضحكة، بل هي بهلوانية أكثر من ممثل كوميدي، إنّ الأقدار أحيانا تصنع الأشرار من نفس البيئة ورغم أنّهم لا يحملون الدّماء نفسها، إلا أنّهم من نفس العائلة الإبليسية، كان الأفعى يعمل عند باديس صاحب القبّعة والغليون، أمّا الثّعبان فقد عرّفني به النّادل المشهور باسم الدّب، وكان يتاجر في كلّ حدب وعدواً للجميع، عدوّاً حتّى لنفسه، يخاف حتّى من ظلّه.

ذات يوم قال لي الثّعبان أنّه يخاف من الهواء فسألته كيف يخافه؟ فقال "إنّ الشّر أحياناً يجعل أصحابه يعتقدون أنّ الهواء مسموم فيحاولوا أن لا يستنشقوا نقاءه فيموتوا مختنقين في الهواء العذب" وقال لي أنّه يفكّر في شراء خوذة فسألته لماذا، قال "إنّي أخاف أن ترسل علي السّماء شهابا".

حين جاء الثّعبان يبحث عنّي في ساحة مقهى الميناء كنت جالسا على نفس الكرسي الخشبي أين التقيت سابقا بالأفعى، أدركت أنّه صديق الدّب يا ليتني لم ألتقي به. لقد جاءني باقتراح السّفر مع الأرواح، السفر في قطار لن يعود، كان يعلم أنّ الرّوح التي أحملها أصابتها لعنة الحقد فلم تعد ترى في الحياة إلّا شيئا واحداً اسمه الانتقام للعائلة، ولن أتحرّر حتّى تتحرّر روح باديس من جسده، رابني أمره في البداية، يا ليته لم يستطع إقناعي أنّ قتل باديس قتل مقدّس، كان يعلم كلّ صغائر وكبائر حياتي في القرية وبعد التشرّد، كان دائما يكرّر لي تعويذة "إذا أردت قتل باديس، فوجب عليك الانفلات من الزّمن" كلّما ألتقيه يعيدها مثل تلاوة الكاهن في صلاته، لم أفهمه في البداية! الانفلات من الزّمن يعني الخلود، التدحرج نحو المجهول، يسمّى عند الحماسيين مغامرة، أمّا عند الحكماء فهو شبيه بالغباء، اصطنعت قرارا من غير رضى، قرار يشبه القمر المشقوق إلى نصفين، النّصف الأوّل بين يدي، والنّصف الآخر خطفه الخوف والرّيب والشك والبرودة والاضطراب

وكل ما هو مريب لدى الإنس، قراريشبه الهلال أو أكمل منه بقليل، قرار مثل شريعة ترغم الإنسان على صوم نصف حياة، وأن يفطر نصفها، وإذا التقى النصفان سيفطر الصّائم في زمن بعيد عن هذا الزّمن، تماما في الجحيم، قرارلن ينتهي بمناسبة عيد بل ينتهي إلى إقامة يوم ذكرى لمجزرة ضحاياها مئات، استطاع الثعبان أن ينسخ خبثه إلى شيطاني المارد، يا ليتني لم ألتقي به، تأنّى الزّمن في سرعته ليمهلني أيّاما أخرى في التّفكير العقلاني ولكن العاطفة المقيدة بشرارة الحقد جعلتني أدفع السلحفاة بسرعة إلى الانتهاء، سابقاً ظننت أنّ السبيل الوحيد للانتقام هو العبور عبر جسر الأفعى والانزلاق نحو باديس بخبث، أمّا الثعبان فقد جعل لي جسراً آخر، جسر طوله سنتمترات فقط ولا يحتاج إلى خطّة مثلما يحتاج إلى تقديس روحاني، جسر مختزل في معطف صغير يمكنه وقايتي من الصّقيع، معطف يمكنه حمايتي من الصقيع لأنّه يرميني مباشرة إلى جهنّم، بطريقة ما، ومن غير أي تفكير، وبحرارة خلقها الحقد والماضي وضياع يسكن الحاضر، ومستقبل لم أعد أفكّر فيه، وبتعويذة الثّعبان "إذا أردت قتل باديس فوجب عليك الانفلات من الزّمن"، مع روح أمّي حين اغتصبها الجنون فخرجت إلى الشارع عارية، وذكرى عفاف حين دخلت الفندق ذات مساء في حالة لم أرضى رؤيتها، وروح أبي حين علمت أنّ باديس زهقها. وبسبب المنزل القصديري حين أخرجنا منه باديس بوثائقه القانونية لأنّنا لم نكن نملك عقد ملكية،

وبسبب الكثير من المتشرّدين حين خطفهم البؤس فعانقهم الشّارع، ثم خطفتهم شياطين الإنس فنزعت أعضاءهم ورمتهم في المزابل، ولذكرى قرنفلة الفتى الصّغير وبسبب شارع السّعادة حين رآني إنسان غير صالح منذ البداية، وبسبب الإذلال والظّلم في بلاد الرّحمة ولابتسامة العجوز حين قضت عمراً تتشرّد، وبسبب الغباء غير المتناهي والأنانية الواسعة حين ظللت حياتي، ولأنّني كنت بعيد كلّ البعد عن الحق، رضيت بالحزام النّاسف ورضيت بالانفلات من الزّمن.

* إيقاف نبضات القلب *

أوقف عاصف البدين السيارة على مقربة من الدّار الغريبة التي وصلنا إليها، فنزلنا منها متمايلين مثل الأغصان التي تحركها الرياح في يوم عاصف، نزلت من السيارة غير مسيطرة على الجسد الذي شعرت أنّه ثقيل ولا يمكنني التحكّم فيه، أمشي خطوة أو خطوتين ثم أكاد أهوي على الأرض، فلولا مساعدة رامي الضّخم الوسيم الذي كان يمسك جسدي بيديه كي لا أقع لكنت قضيت الليلة فرشي التّراب وغطائي الفضاء. فقدت الإدراك الذي عبث بالعقل السّائح في التّيه أو القلب السّابح في العبث، لم أدرك أنّني موجودة فوق كوكب تقيّده الجاذبية، كأنّ هذه الأخيرة رفضت جذب أقدامي فخلت أمرهما للثّمالة، كأنّ الجاذبية كانت تنفر من جسدي، كنت مثل المنطاد الذي يحلّق في السّماء عالياً فتختلي به الأجواء ولمّا تنتهي منه ترسله رياحها إلى شوكة صمّاء خالية من اللّين فتفجّره، كان القمر يجذبني إليه بابتسامة خائن والنّجوم تغمرني ريبا بالغمزات والهمزات التي تحذّرني بالتّحوّل إلى شبح وأتلاشى من المكان، كان الليل يخوّفني من خطواتٍ أخرى أخطوها نحو ذلك المنزل الذي تقدّم إليه عاصف البدين ولمّا انتهى من سير الدّهليز بلغ الباب المريبة وأدخل يده من فوقها، فأوقد المصباح بكيفية مخيفة أفزعت الحشرات الليلية التي أحاطت بالمصباح المتدلّي على الجدار المشقوق، كانت يداي ملتويتان على عنق رامي الوسيم كي لا أسقط، دخلت نسرين خلفنا وهي

تحمل محفظتي التي تحفظ الوثائق المتعلّقة بالفندق، أمّا سارة السّمراء النّحيلة تبعتنا تحمل محفظة ملؤها الخمر، دخلنا المنزل فألفيته حجرة واحدة يضيئها مصباح يتأرج، حجرة عريضة تغزو زواياها العنكبوتات والحشرات العجيبة، جدرانها غير مستوية بها نتوء منتفخة وبدى أنّها مطلية بمادة الجير، لها نصف نافذة وكانت الحجرة مغطاة بالقصب وأرضيتها مفروشة بحصير تراكمت عليه الأوساخ، وهنالك تحت النّافذة المكسورة رأيت سريراً مائلاً فقد قاعدته، أخرج عاصف السّمين من جيبه سيجارة وأشعلها و نزع رامي الضّخم يداي وأبعدهما عن عنقه فاستلقيت على الأرض، في الصّباح استيقظت من الغيبوبة فألفيت الأرضية وسخة نتنة وأنا مثل عصفورة داخل قفص. كان السّرير خاويا من أي إنسان والحجرة محشورة في صمت رهيب يدفع الفؤاد الهادئ إلى الصّراخ ويحرّضه على التّمرّد، اخترقت أشعّة الشّمس سواد الحجرة من أعلى الباب الخشبي المغلق والمهضوم أعلاه، حرّكت الرّياح الخفيفة النّافذة الحديدية ذات المصراع الواحد فعزفت على مفصّلاتها نغمات مزعجة، البلاط المحفّر الذي يشبه الأرض الصلبة التي نهشتها المقاريع الحديدية مُلئ بالقيئ وكانت الحجرة فارغة، قمت من مكاني مثل الحمّال الذي ناء بحملٍ ثقيل ودلفت نحو الباب المعلّقة عليها كل ثيابي. وددت الخروج من الحجرة لكنّني لم أتمكّن من ذلك لأنّ الباب عسيرٌ فتحُه، أُغلق بمزلاج من حديد وسلسلة ضخمة جمعت بين الباب

وإحدى عضادتيه الحديديتين بقفل أضخم، صرخت صرختين فردّت على الصّراخ الجدران والعناكب الضّاحكة، هززت الباب هزات وبعد آخر صرخة رجعت إلى السّرير أبحث عن محفظتي والوثائق، هنالك في الجانب الثّاني من السّرير رأيت مفتاحا مع ظرف، فحملت المفتاح و هرولت بألم نحو الباب لأجرّب فتح القفل ففتح، شعرت بالحرّية وانفتح القفص، عدت إلى الظرف فألفيت فيه الكثير من المال ورسالة مكتوب عليها "مرحبا...قلت لك أنّ الليلة ستكون رائعة، نلتقي في الجامعة، لا تنسي مشاهدة المفاجأة التي تركتها لك في معرض الصور، استمتعي بالمال...إلى اللقاء عاصف".

جلست خائرة النّفس وتدفّق العرق من أعلى الجبين وامتزج مع ماء العينين، فقدت الشعور بالحرّية التي شعرت بها قبل قليل وتمنّيت أنّني لم أجد المفتاح والرّسالة، تمنّيت لو لم يفتح الباب وظلّ مقفلا، تكهرب قلبي، تعقّد لساني وسُحبت كلماته، هدأ الجسم وهدأت صرخاته، هل أعيش الحقيقة أو الخيال؟ في معرض الصّور رأيت صوراً لي وللطالبة جبيلة التي انتحرت قبل أيّام، رأيت حياتي مثل صورة ضمّها برواز يحترق، برواز هش تتلاعب به النّيران، غادرت السّرير ودلفت نحو الباب ثم خرجت لأرى أين أنا، كان يوماً جميلاً منغّماً بأنغام العصافير المغرّدة، شيئا ما بداخلي كان يدفعني للصّراخ وكنت أرى أنّ كلّ شيء يغيّر لونه مبتسم وجهه إلّا أنا رفضت البشاشة، تصدّر وجهي مثل الحرباء التي تأبى

تغييرلونها إلى لون اليوم الجميل واكتفيت باللون الحزين، بينما كنت أرى المنطقة الرّيفية مخلوعة الفؤاد إذ بي أفزع لشرس هاجمني، من حسن حظّي أنّ ذلك الكلب كان مقيداً في سلسلة، اكتشفت أنّ الحجرة القبيحة تبعد عن بعض البيوت المترامية بمئات الأمتار، إنّها شبيهة بالتي كانت في قريتنا قبل ستّة سنوات وكانت مبنية على دسكرة كساها الخلى الرّطب، دخلت وأغلقت الباب بالسلسلة وأقفلت القفل وشرعت في الصّراخ حتّى صعقت العناكب، بكيت حتّى جفّت الدّموع من منبعها وأدركت سبب انتحار جبيلة، وأنّه السّبب نفسه الذي أعيشه أنا الآن، لقد خانتني سارة ونسرين والوحشين الآخرين فعادت ذاكرتي إلى الماضي فتذكّرت صديقتي رانيا الوفية، الصّديقة الصّادقة التي لم تكن تتحدّث إلّا عن الحجاب، الصّديقة التي كانت تكره الاختلاط السّافر وتتمنّى وضع نظام يفرق بين الطّلبة والطّالبات، رانيا التي كانت ضدّ التفتّح الذي يسمح لنا بالحديث مع الشّباب والجلوس معهم وإذا لم نفعل نسمّى معقّدين. رانيا التي نصحتني بالحجاب وعدم مخالطة الشّباب الذين ليس لهم بي قرابة فأبيت التّحجّب ورضيت بالعمل في الفندق، رانيا التي كانت متردّدة بين أن تكمل دراستها في الجامعة إذا تحصّلت على البكالوريا وبين هجران التّعليم لأنّها لم تكن راضية بالنّظام التّربوي. رانيا التي كانت تقول دوماً أنّ المصائب التي تحدث في الجامعة مصدرها البعد عن الشّريعة والمنهج الإسلامي وأنّ جلّ النّوائب التي تقع في المدارس

بمختلف أطوارها هدفها تحطيم عقيدة الطّلبة والطّالبات بطريقة غير مباشرة، فينتج عن ذلك مصائب تسيئ إلى حياة الجميع وتقضي على المبادئ والقيم الجوهرية للمسلم. فيعيش هذا الأخير متناقضاً بين دينه ودنياه، متناقضاً بين نسبه وأخلاقه وبما يسمّى بالتّفتّح والتّحضّر، رانيا التي كنت أسخر منها وأقول أنّها تصلح لإمامة المصلّين يوم الجمعة، ما أصعب السّخرية من الحقيقة ورفضها مختارين، ثم تتجلّى لنا نتائجها عذاباً ونرضى بها مرغمين، داخل الحجرة القبيحة شعرت أنّني أتحوّل إلى كائن آخر، كأنّني أعيش نفس الصّباح الذي عاشه سامسا غريغور داخل غرفته في رواية التحوّل لفرانز كافكا، غريغور الذي استفاق من نومه فألفى نفسه حشرة، كنت شبيهة به، فلمّا استيقظتُ أنا من النوم ألفيت نفسي أدنى قيمة منه، شعرت أنّني أقبح من حشرة، وإذا كان قد تحوّل إلى حشرة عملاقة داخل غرفته في منزل أبيه، فأنا تحولت إلى ما لم أتمنّاه يوماً وأنا داخل ذلك الكوخ الذي يحرسه كلب جائع، إذا فقد غريغور هيئته البشرية ثم فقد نفعه ووجوده وذاته ومكتسباته، وتجلّت له الحقائق البشرية من أقرب النّاس إليه خائبة، فأنا شعرت أنّني فقدت أكثر من ذلك، ثم مات غريغور بالتّفّاحة التي توغّلت بداخله بعد أن قذفه والده بها، أمّا أنا! فلم تكن التّفّاحة من قتل حبّي للحياة بل كان كأساً من العصير، أو ربّما كانت تلك الجلسة حول الطّاولة، أو ربّما كما قالت رانيا أنّ السّبب الرّئيسي هو الاختلاط السّافر، في ذلك اليوم

تمنّيت أن أنتهي مثلما انتهت جبلية، أو أن يجعل منّي الألم جثّة نافقة مثل سامسا غريغور، لمّا كنت مستلقية على السّرير المائل والذي فقد توازنَ قاعدته وصلتني رسالة من المدير الجديد الذي نصّبه العم باديس مديراً لجميع فنادقه، علمت قبل عدّة أشهر أنّه دكتور وأخبرني العم باديس أنّ والدتي في مأوى المرضى العقليين وأنّها ستشقى قريبا، وقال أنّ أخي الصّغير الذي خرج إلى الشّارع غاضبا في الثّاني عشر من عمره قد مات في محاولة هجرة غير شرعية، أمّا والدي، فكدت أن أقتنع أنّني وُلدت من غير أب، لمّا فتحت الرّسالة قرأت "أنت مطرودة من العمل يا عفاف" هكذا كان نص الرسالة التي أرسلها الدّكتور صاحب الوشم على رقبته، قرأتها وبحثت عن أي وسيلة داخل تلك الحجرة يمكنها إيقاف نبضات القلب.

* بحر يتبخّر إلى الفضاء *

بين وجه زيف السّعادة وحيرة أشباح غرفة الجمال كنت أغدو من مضجع الملاءة الحمراء إلى المرآة المركّبة على وجه الخزانة البنفسجية لأرى سحنة كاهن فقد إيمانه، منذ أن وافقت على الانفلات من الزّمن عبر تذكرة ملعونة صرت لا آبه لا بالحياة ولا بالموت، لم أسأل الثّعبان عن سبب مساعدتي في الانتقام وإهدائه لي الحزام مجّاناً، أو لماذا يسمّي العملية التّفجيرية بالمقدّسة، تغيّرت إلى إنسان قبيح يخاف من نفسه أكثر من خوفه من الرّجوع إلى سقيفة البؤس أين تنام العجوز المحدودبة الظّهر، صرت أخاف من أن أرى جسدي في المرآة ومقتّ هذه الأخيرة مقتا كبيرا حتّى أردت أن أحطّمها، ما أقبح المرآة حين تخون سيّدها فيرى فيها غيرَ وجهه، ويرى فيها غير نفسه، ويروم روحه الجسدُ، وما أقسى المرآة إذا عكست تعاسة الرّائي بدل صورته، وما أتعس الحزين إذا خانته صورته، أردت تحطيمها ولكن تذكّرت أنّ المرآة ليست ملكا لي، وأنّها للعم عيسى فرجعت عن الأمر، قضيت أيّاما سجينا حزينا في غرفة الجمال ملقى على الأرض أو مضطجعا على مضجع الملاءة الحمراء، تتشابك أصابع يداي وتشدّ الرّأس كأنّها تريد اقتلاع هواجس خبيثة من أعماق الهوس، أخاف أن يسمع العم عيسى تنهيدة الأنين فينزعج، لم أكن أريد أن أزعج أي بشري فوق كوكبٍ عذّب روحاً أحمِلُها وما ألهمها هدوءها. ألقي جسدي على المضجع فيخيّل لي أنّ لونه الأحمر هو دم

البشر القبيحين فانزعج وأنهض وأستلقي على أرضية كأنّها جليد، إذا لطّختُ هذه الأخيرة أنزع البذلة وأنظّف بها المكان المتّسخ، ومن أجل أن لا ينزعج ظلّ العم عيسى كنت لا أشعل مصباح الغرفة، إلّا إذا سمعت خطواته وهو صاعد إلى الطّابق الثّاني ليمدد جسدي بالغذاء، إنّ فكرة الانتقام كانت أيسر ولم تكن مؤلمة مثل مصيبة العم عيسى حين حلّت به، كأنّني نحس جلب له تعاسة العيش والحزن الضّاري، لقد أبكى الزّمن العم عيسى بكاءً شديدا حتّى نسي أنّه في الطّابق الثّاني لبيته يوجد شاب اسمه (عثمان)، مصيبته حلّت وجاءه المنون ضيفاً قاسياً فسلب منه ما عاش آملاً في إسعاده، في ليلة مكفهرة رجعت سكراناً وصعدت عبر السلّم الخلفي بعسر شديد ودخلت الغرفة فسمعت النّحيب والنّواح في الطّابق السّفلي، لم أكن أعلم لما البكاء لأنّني قضيت الصّباح مع الثعبان فطلب منّي الاستعداد للرّحيل لأنّ باديس الذي صار وزيراً سيلقي خطابه داخل قاعة بعد أيّام قلائل وهناك تضرب صاعقة العبور إلى الجحيم، تاه العقل بين النّحيب المسموع وباديس صاحب القبّعة والغليون الذي صار وزيراً، كيف أصبح وزيراً؟ وماذا كان من قبل؟ سمعت قرع أحذية تصعد الأدراج محدثة جلبة وسمعت ضحك صبية، دخل أحدهم الغرفة وأوقد المصباح ففزع الفتى حين رأى شبحاً يرتدي بذلة زرقاء ممزّقة على ركبتيه النّحيفتين وساقيه الطويلتين، ورأى جسما أعلاه عاري عمرته الدّمامل ووجه مسائيٌّ متعب غربت شمسه فأصاب الصّبيَّ

الوجلُ وفزع الصّبية الباقون ونزلوا مرعوبين إلّا هو بقي متحيّراً في شبح يحاول إخفاء قارورة الخمر تحت ملحفة المضجع، سألت الفتى عن النّحيب والبكاء والصّراخ في الطّابق السّفلي فقال أنّ النّاس وجدوا أبناء العم عيسى ميّتين على الشّاطئ بعد أن لفظهم البحر وأبى حملهما إلى الضفّة الأخرى لمّا كانا في رحلةٍ غير شرعية، وألماه...! مؤلم للعمق أن يموت الإنسان وهو يبحث عن الحياة، أو أن يضحّي بحياته من أجل أن يعيش، في نفس الزّمن هاجر الكثير نحو المجهول، ويوجد منهم من هاجر نحو المعلوم المصرّح بأنّ أعماق البحر طهّرتهم وعانقتهم وضمّتهم إليها بحنان، ومعلوم آخر صرّح أنّ بعض المهاجرين أعادهم الموجُ إلى أهلهم أمواتاً، وآخرون هاجروا حقّاً نحو المجهول فلم تُسمع عنهم سمعة خير أو فأل، حين أخبرني الصّبي بالمصيبة شعرت بإحساس غريب إحساس دخيل لم أشعر به من قبل، وقفت غاضباً دون سبب فكسرت مصباح الغرفة، كأنّه أحرق كياني. كأنّني كنت إنساناً آخر لم يُفلح المصباح في إنارة قلبه وهل تنير القناديل قلوباً سكنها الحزن؟ كسرته فانهار الجسد في ظلام قبيح وحين شرقت الشّمس على يوم المأتم غرب العم عيسى ولم أعد أراه، عجز الضّياء على أن يقنع الرّوح أنّ اليوم هو يومٌ جديد وعلى إضاءة قلاع البؤس، وهل يمكن للشّمس والقمر أن ينيرا قلوباً سكنها الليل، رأيت وجودي في منزل العم عيسى مثل ذبابة تزعج الرّاهب الورع الخاشع في صلاته أو مثل النّحس المتبوع رزء المنون، تلوثّت

الغرفة برائحة السّجائر وروائح الخمور ولم تعد جميلة، إنّ شعري الرّطب ذا الجناحين السّوداويين صار مشعثا منتفشا مخيفا، أمّا البدلة الزرقاء تغيّر لونها بعد مرور شهر وصارت عكرة المظهر، اصطدمت بكثيرٍ من الجلاميد على شاطئ البحر في ليالي السكر فجرحت عدت جراح، البعض منها شفي وجراح تحولت إلى دمامل معفّنة، منذ أن حطّمتُ مصباح الغرفة عجزت عن رؤية سحنتي في مرآة الخزانة البنفسجية، دُفن الشّابّان ولم تنفعهما الشّهادات في صراع هوج البحر وهما على قارب خائن، اختفت ابتسامة الظّل، خانه الحظ في رؤية أحد أبنائه طبيباً والآخر معلّماً، منذ أن هُلك أبناءه كفّ العم العيسى عن صعوده إلى الطّابق الثّاني أين كان الجسد يصارع الرّوح باحتقار، فلا الرّوح خرجت منه ولا الجسد صفّده الهدوء، أروح وأجيء على الفسيفساء المختفية تحت شبح الظّلام فحينا أصطدم بالخزانة وأصابعي متشابكة فوق الرّأس، وحيناً آخر أُهاجم الحيطان بالجبهة أو القفى، أظلمت الغرفة والحياة معاً واختفى ظلّ العم عيسى والمقراة، اختفى هو وما اختفى جودُه وكرمُه، في ليلة من ليالي البؤس سمعت صوتا حزيناً ينادي ما تبّقى منّي وكان الصّوت يأتي من الأدراج وكنت ممدّداً على أرضية الغرفة المظلمة مثل جندي الحرب إذا قضى في أرض الوغى، اتّكأت على الجدار أرى السّواد المتجلّي في هيئة بشر وهو ينحني لدى الباب، وقبل أن يتلاشى رمى حروفاً حزينة بريئة سمعتُها فأحسست أنّ الليل وخز الفؤاد بإبرة مسمومة.

كأنّ الليل أكرم مجرماً بصوتها العذب فأرعب نغمُها مسامع الثّمل فكدتُ أن أصحو، إنّه صوتُ صفاء ابنة العم عيسى، الجوهرة الباقية في بيت الكنز، حين قالت أنّها جلبت لي العشاء خفت من أن تضيء الغرفة بنور وجهها فأردت إخفاء الزّجاجة فزلّت من يدي وانكسرت فهربت العذبة صفاءُ، حال الظّلام بيني وبينها فاشتريت في اليوم الثّاني مصباحين، لقد كُلّفت صفاء بإطعامي ووُكّل إليها واجب إكرام الضّيف؟ وأي ضيف؟ ظنّ أبوها أنّه يكرم أعوجاً ليستقيم، جاءت في اليوم الثّاني بالعشاء فألفت الغرفة مضاءة، والمضجع مزيّن بالملاءة فدخلت صفاء إلى الغرفة على استحياء فاستحيت منها حياء الصّالحين، خفت من أن أخون ربّاً أكرمني فأعسرت النّفس على أن لا تنظر إليها ولم ألبث حتّى عصيتُه ونظرتُ إليها لأرى منبع الصّوت الذي نادى إسمي فاشتريتُ مصباحين، بئس العيونُ السّوداء في وجنتيها ذُنوب، ونعم الحياءُ في روحها يذوبُ، ربّ الجمالُ إذ هدى العاصي وربّ الصّالح إذ في الحبّ هذى، جاد الحياء على النّفس فكَرُمت، ونسائم الليل جادت بالجمال فعبقت، وطفق المجرم المتشوق لتفجير نفسه يفكّر في الجنّة، وقد كان يرى أنّ الانفلات من الزّمن أجمل من الحياة على كوكب فصوله ربيع. أنارت صفاءُ صفاءَ الرّوح وكأنّها انتشلت شقياً من جحيم الدّنيا، كانت الرّبيع في هيئة أنثى، كأنّها حورية هاربة من جنّة، وبطريقة ما! كانت أجمل وأبهى من الحزام النّاسف، وأخطر منه، لم يرضى الليلُ ولا النّهار

على أن أستسلم لهواها، فإذا تذكّرت العائلة وسقيفة البؤس أفقد الإحساس الجميل وأمتنع عن العيش في عالم لا أصلح له، في كل مرّة تجيء صفاء بالصّينية وتضعها عند الباب وتنزل إلى الطّابق السّفلي أقهر قهرا، تمنّيت أن أقول لها كلمة أطول من "شكراً لك" وإذا سألتني إذا كنت محتاج إلى شيء أتمنّى أن أُسمعها حرفاً غير" لا "، إنّ آلام الكلام هي تعبيرات لا نستطيع أن نبوح بها، أو هي أحاديث طويلة مسجونة داخل أفئدة محكوم عليها بالقسوة، إنّها كلمات ماكرة غائرة جائرة ثائرة في عمق أرواح بريئة هادئة عقيمة لا تلد إلّا هواجس قاتلة قابلة لشق صدور قائلة أنّ صدق الكلام هو ذاك الذي لا يُنطق به، تتالت الأيّام ولم يظهر العم عيسى، انتفخ زاد الجود فصارت صفاء تنتظر عودتي متأخراً ليلا فتدخل الغرفة وتضع المائدة ثم تنزل إلى الطّابق السّفلي لتجلب العشاء، لم أسألها عن سبب غياب العم عيسى، فكيف أسأل عن الصّالحين وأنا المتشرّد البائس الفاسد؟ في ساحة مقهى الميناء التقيت بالثعبان فقال أنّه وجب علي أن أتجهّز للعملية فسررت للانتقام، وكانت مراجل الحقد تغلي في أعماقي ولأنّ السفر نحو الجحيم لم يتبقى له سوى أيّام قلائل فكان الثّعبان يسألني "ماذا تريد أن تأكل، ماذا تريد أن تشرب؟ هل تريد الذهاب إلى مكان تحبّه؟" إنّها نوع من أمنيات المحكوم عليه بالإعدام، أو ربّما كنت مثل أمير سيشنق في الصّباح وكانت أمنياته أن يتحكّم في القصر مدى الآناء، كل شيء يأتيني بمجرّد رمش الطّرف، كل مرغوب

تمنّيت أن أحصل عليه في سقيفة البؤس جاء مقابل لعنة التّذكرة إلى الجحيم، لم أوافق على خدمات الثّعبان، بل أردت شيئا واحداً وهو أن أذهب إلى الرّيف أين كنت أسكن وعائلتي قبل ستّة سنوات، وأن أدخل إلى بيت الطّوب المغطّى بالقصدير وأن أرى البيت المهجور أين كان أبي يمازحني في نزاع مزيّف ويسمح لي بالغلبة، وأن أصعد إلى طريق الجبل وأرمي البيوت في الأسفل بالأحجار لأفزع النّائمين، وأن أركض خلف الفراشات وأقطف الزّهر على ضفاف النّهر، وأن أضع القفص أعلى شجرة الكستناء لأصطاد العصافير، وأن أرى أشجاراً غرستها أمّي.

بعد انقضاء أشهر قليلة على هلاك أمّي وأسبوعين على لفظ البحر لأبناء العم عيسى، وفي مساء يوم سبت أخبرني الثعبان أنّ العملية تبقّى لها أربعة أيّام، أخبرني أنّ يوم الأربعاء هو يوم السّفر إلى العالم الآخر، قال أنّني يوم الأربعاء سأصبح بطلاً يقضي على الظّلم والعبودية المتحكّمة في مصائر العباد، قال أنّ يوم الأربعاء بداية حياة جديدة للبلد، وأخبرني أنّ التّذكرة موجودة، إنّها رحلة بلا رجعة، ركوب قطار لن يعود قطار يتجه إلى عالم آخر، ولأنّه سينحرف وينفلت من الزّمن ! فكانت محطته الجحيم، أوه...يا لها من رحلة! كنت أرى أنّ الإقلاع يكون من جحيم الدّنيا والنّزول يكون في جهنّم الخلود، إنّها التّعاسة السوداء السّاخرة من إنسان هُلك بين دفّتي كتاب السخط.

في بداية الأسبوع، وقد كان اليوم يوم الأحد، اتّجهت إلى الرّيف حيث كنّا نسكن قبل ستّة سنوات وقد كنت آنذاك في الثّانية عشر من العمر، لم أنتظر شروق شمس يوم الأحد، بل خرجت باكراً، ليس لأنّه تبقى ثلاثة أيّام للعملية، بل لأنّ الليل خطف جلالة النهار وقد كنتُ أفضّل الليل على النّهار، خرجت من الغرفة ونزلت على السلّم الحديدي الصّدئ ودخلت العاصمة المغمورة بالحياة، أيّ حياة؟ كنت أرى أنّ كلّ النّاس موتى، حتّى أنا كنت أراني جثّة تسير بين الورى مثقلة. إنّها حياة الصّباح الباكر المضطهدة بين الباعة وأصحاب الحوانيت، أعطى لي الثعبان مبلغاً ضخماً من أجل أن أستمتع قبل أن أنفجر، دخلت العاصمة ومررت عبر شارع السّعادة أين رأيت العجوز نائمة تحت سقيفة البؤس فاقتربت منها ووضعت تحت الكرتون النّائمة عليه أوراق نقدية ومضيت دون أن أوقظها، ركبت سيارة الأجرة وسارت هذه الأخيرة نحو القرية، حين بلغت وسائق سيارة الأجرة الجبل العالي وكانت القرية أسفله، تراءت لي أشباحٌ تتصاعد إلى السّماء، تارة تراقص بعضها البعض وتارة أخرى تراقص الطّيور ثم تتلاشى إلى العدم، أدخنة المداخن تتجلّى في هيئة أرواح محروقة تغادر الكوكب بهدوء. أذهلني ما رأيته، كانت القرية كلّها مصنعا واحداً واسعاً مثل بحر يتبخر إلى الفضاء.

غربة البُؤس لا يشعربها المرء إلّا إذا صارت الرّوح غريبة عن الجسد، فلا الجسد يكون راضيا بالرّوح، ولا الرّوح تكون هادئة في داخله.

* انكسر الكأس *

ما تمكّنت من إيقاف تلك النّبضات المؤلمة فاختلى بي الوجوم والخيبة في ذلك الكوخ الفائح، تعرقل الهواء في السّباحة والطّواف حول الجسد الذي كان شريفاً فخليت من المرح وملئت بالقرح، ما ألفيت شيئا يمكنه القتل. لقد ذهبوا كلّهم وتركوا صديقتهم في ذلك الكوخ تقاتل الخيبة، بين نتانة الكوخ أدركني نوعٌ من الصّمود الشّبيه بالتّفكير المنبوذ في الواقع المندحر تحت أقدام أتعس الحظوظ، ذلك الحظ المتدحرج أسفل رايات التفاؤل وإذا ارتقى إلى نصف رمح ينغرز ويلج إلى عالم الروح المضطربة لينشر فيها بعض الهدوء والطمأنينة، طمأنينة تكذب على أمل أبلج في أعماق قلب لجلج، اختلج داخل الفؤاد ضمير فأراني هوجل تبيع هواها بغباء فأرصادق الأفاعي وصادقها. راودني هاجس ثقيل على العقل المحتفظ بذاكرة تعيد بث الصّور القبيحة على المخيّلة آليا، تولول القلب من غير نواح، وامتنع الدّمع عن السّيل، واكتفى الكوخ بتعذيب فتاة تودّ الانتحار ولكنّها لم تجد لذلك سبيلا. هدأت هدوء السماء وبداخلي السّحب تتضارب، غمامة تهوى الانتحار وأخرى تريد الحياة، هل أنتحر وأنا في الثّانية والعشرين؟ تقوقعت داخل الخزي المنثور على عمري الضّائع في زاوية ركام يحترق ثم فتحت المحفظة، إنّ بعض الوثائق الموجودة في الحافظة تغيّر لونهم فتحوّلوا إلى ورق شبيه بالشفّاف، أخرجتهم من الحافظة وعدت إلى الفراش فوضعت بعضهم

أسفل السّريروآخرين فوقه ثم أشعلتهم بولّاعة كانت هناك مرمية بين الزّجاج، خلف الباب الخشبي الواهن رأيت مرآة مشقّقة رُكّبت تركيبا أعوجاً فتأملت جسدي فيها فلم أستطع معرفة من أنا! لمّا رأيت على المرآة تلك الشقراء ذات الوجه اللّطيف والعيون السوداء الواسعة نفرت من نفسي، رجعت إلى الوراء لأرى جسدي كلّه فما رأيته حتّى رجعت إلى الوراء أكثروانحنيت. ابتلعت النّار الأغطية والألواح المائلة، فاقتربت من الباب واقتلعته من المفصّلات وخلخلت عضادتيه اللتين أبين الانفصال عن الجدار، ثم قذفته على ألسنة اللهيب فبلغت النّار سقف الكوخ فهُلكت العناكب التي سخرت منّي سابقا، ألفيتُ خارجَ الكوخِ صهريجا صدئا ودلواً مقعراً يظنّ النّاظر إليه أنّ كائنا خارقا نفخ فيه فقعّره بأعجوبة، على سطح ذلك الماء الفاسد تطفو الطّحالب التي استخدمتها صغار الضّفادع متعة لها، عقدت الرّشاء على مقبض الدّلو ورميت هذا الأخيرداخل الصّهريج الفائح ماءُه ثم جذبت الدّلو مملوء بالماء والخنافس الميتة، كان الكلب المقيّد بالسّلسلة يلهث عطشانا وهو يرى إلي مسترحماً فغطست رأسي في الدّلو محرّكة إيّاه حتّى غرقت فكرة الانتحارفي أسفل الدّلو القذرلونُه، جذبت رأسي من الدّلو ولكن شعري المشعث التصق بالمقبض وهذا ما جعلني أفرغ الدّلو بحركة دائرية برأسي مثل البهلواني، مشيت الدّهليزقاصدة الطّريق الضيّق المحفّروقفت

على جانبه لابسةً سروال الجينز الأحمر الضيّق و القبقاب الجديد الذي اشتراه لي الدّكتور المدير الجديد للفندق، أسرع بعض القرويين إلى الكوخ الذي انهدم سقفه بعد التهاب النّار للقصب وطافوا حوله ثم ذهبوا سوى واحداً ضحّى بحياته لإنقاذ ذلك الكلب الذي تمنّيت هلاكه، عبرت أمامي سيارة وهي تتدحرج من حفرة إلى أخرى وكان سائقها مخيفا يرتدي نظّارات عاتمة وبين شفاهه سيجارة، أشرت له بالتّوقّف ولمّا توقّف دلفت نحوه متغطرسة فرآني فانطلق بسرعة غير مبالي بالحفر التي سقطت فيها الدّواليب وتركني واقفة هناك. أخرجت من المحفظة مرآة صغيرة رأيت فيها وجهي فرأيت شيئا أخضر اللّون ملتصقاً بين الحاجبين، وكثيرٌ منه عالقا على كتفي، لمّا أدركت أنّ الطّحالب القذرة هي التي أرعبت السّائق قهقهت كثيرا وضحكت وكأنّ شيئاً لم يكن الليلة، تأملت في علبة السّجائر التي لا أعلم من وضعها في المحفظة ثم بقرتها وأخرجت منها سيجارة أشعلتها ويداي تصطفقان بغضب، كادت رئتي أن تنفجر من الّدخان الذي تناولته لأوّل مرّة، رميت السّيجارة من غير نفس ثان وأردفت العلبة كلّها، وقفت مستمتعة بجمال الطّبيعة والعصافير المغرّدة، تمتّعت بمناظر المكان الذي لم أعلم إلى أي مقاطعة ينتمي. استمتعت بأشكال الأشجار والورود التي تحيا بألوان الرّبيع على جانب الطّريق و أحسست بسعادة المقاومة شعرت أنّ الكون يرسل بداخلي طاقة لا تعشق العبث مع المصائب، كأنّها طاقة روحية جاءت

لتقوية فتاة سمحت للكرب بأنّ يهوي بها إلى قعر الأحزان. رفضت صنع جنازة من غير ميّت، رفضت وضع حداد من غير جثّة، كأنّ الكائنات الحيّة والجماد أرغماني على مقاومة الخذلان والخيانة، كأنّ العالم لم يرضى بأن أعيش جبانة تهرب من عذاب الدّنيا إلى عذاب الآخرة، كأنّ الأراضي الواسعة والتّلال والهضاب والجبال أرشدوا عقلي إلى أن ينصح الرّوح بأن لا تغادر صاحبتها مادام هواء الجو يكرم النّاس بعبق الحياة، غرّدت تلك العصافير في الأجواء وأنشدت إنشاداً منغّماً، كأنّ العالم كلّه كان يحفّز جثّة تتنفّس، كأنّ العالم كلّه كان يغنّي لصمّاء فسمعت، كأنّ الكون الواسع كان ينصت للبكماء فنطقت، توقّفت لي سيارة يقودها كهل اشتعل رأسه شيباً فذهبت معه، لمّا وصلت إلى المدينة أخذت دشّاً ولبست ثيابا جميلة اشتريتها بثمن خيانة تلك الليلة، و قمت بتسريح الشّعر الذّهبي الطّويل حتّى الخصر فتناسق جماله مع الفستان الجديد، وتناغم مع القبّعة المزركشة التي اختالت فجعلت منّي مراهقة أوروبية، أخفت العيون السّوداء الواسعة والحزينة حزنها في عمق بهاء الوجه الأشقر المبتسم بأحمر الشّفاه، تخثّرت مشاعر الخيبة والحزن وتراكمت على بعضها البعض لتنشئ ابتسامات مزيّفة.

في نفس اليوم وبعد صمود غريب استعمر روح مضطربة، ذهبت إلى الفندق الجديد الذي عملت فيه ثلاث سنوات مقابل أجرة شهرية زهيدة لا تكفي حتّى للتنقّل إلى الجامعة، وبما أنّ المدير الجديد أرسل لي رسالة

يخبرني فيها أنّني مطرودة من العمل فأكيد أنّه يوجد سبب، لم ألتقي بالعم باديس منذ أن رفضت الزّواج به، علمت أنّه جعل مدراء جدد لفنادقه وشركاته منذ ارتقائه إلى الوزارة، ذهبت إلى الفندق لأستفسر عن سبب تنحيتي من العمل، اقتربت من البوابة الرّئيسية وكان الحارس ذو البذلة السّوداء والجزمة اللمّاعة منتصباً يرى سيارة الأجرة التي أركبها، أوقف السّائق السيارة غيربعيد على الحارس فدفعت له أجره ونزلت، في البداية ظنّ الحارس أنّني دخيلة على الفندق أوضيفة جديدة تودّ النّزول بالفندق فتقدّم نحو البوّابة مبتسما، ولكنّه أدرك أنّ الفتاة الشقراء التي تلبس الفستان الأبيض والقبّعة المزركشة ليست ضيفة، وأنّها مجرّد موظفة غابت ليلة عن العمل فطردوها، موظفة شبيهة بالغصن المكسور بسبب إعصار الخذلان، ابتسم لي ابتسامة شفقة مرحّبا بي ترحابا يخلو من الحماسة وسرعان ما فتنته الأناقة فتجمّد واقفا، كان أمامه عمود البوابة القصير الذي تعلوه خشبة مسطّحة يضع عليها كوب قهوته فابتسمت له ابتسامة مغناطيسية جاذبة وأتبعتها غمزة، فشعر أنّه تائه في الفلاة وليس بواباً في بوابة فوضع كوب القهوة على الهواء مباشرة ظانّاً أنّه يضعه على الخشبة، لقد أعيد طلاء الفندق قبل أيّام بأبهى الألوان وصار نظيفا أكثر، بين البوابة الرئيسية وباب الفندق، كان الدّهليز مفروشا بالحصباء الملوّنة مثل صراط جميلٍ شق جنّة مدهامّة فصارت جنّتين. جنّة عن يمين الفندق وأخرى عن

شماله، كانت حديقته مزهوة بأزهار ساحرة، مشيت في الدّهليز المحفوف بأبّهة الورود الحمراء فأحسست أنّ ذلك الفندق قصر مأخوذ من جنّة، اختفيت ليلة واحدة فصرت أرى أنّ كلّ الفندق رائع، لمّا بلغت مكتب الاستقبال تفاجأت بوجود موظفة استقبال أخرى غريبة عن الفندق وتبدو سعيدة بوظيفتها، شقراء اختمرت في خمار أصفر و ذات عينين زرقاوين .

- مساء الورد يا آنسة، هل تريدين خدمة؟

دخلت الفندق وكانت الواحدة مساءً، رحّبت بي الموظفة الجديدة بنظرات لطيفة فأحسست أنّني غبت عن الفندق لسنوات وليس لليلة واحدة، كانت تلك الموظفة تراني وكأنّها تعمل في مكتب الاستقبال منذ عدّة أعوام وليس ليومها الأوّل، كان صوتها بريئا مثل راهبة، عيونها المشعّة كانت تنير بنور السعادة أو نار من نيران الحزن المشتعلة داخلها.

- أودُّ رؤية مدير الفندق من فضلك.

- الدّكتور ليس هنا، بإمكانك انتظاره هناك على المتّكآت، فربّما يأتي بعد حين.

- ممكن خدمة أخرى من فضلك؟

- طبعا يا آنسة، فهذا عملي!

- في الدّرج الأخير في الخزانة التي هي خلفك توجد مذكّرة بنفسجية، ممكن إعطاءها لي؟

تحرّرت الفتاة من لحظة الترحيب وتقيّدت بالدّهشة المصبوغة بالحيرة، التفتت خلفها لتتأكد من وجود الخزانة وظهرت عليها علامات التعجّب، وبدى أنّها لم تفتح أدراج الخِزانة المغلقة قبل تلك الدقيقة، انحنت لآخر درج ثم استقامت لتبحث عن مفتاح فقلت لها:

- الدّرج الأخير ليس له مفتاح، زعزعيه بقليل من القوة سينفتح.

رمقتني، ثم سألت

- أتعملين هنا؟

- نعم...لا! بل كنت.

- آسفة، لا يمكنني مناولتك المذكّرة.

خافت الموظفة ذات الخمار الأصفر، وامتزج خوفها مع الخجل فاحمرّت وجنتيها.

- لا داعي للقلق، فقط أريد عنواناً مكتوبا داخل المذكّرة، ستجدينه مكتوبا على الصّفحة الأولى.

تشجّعت الفتاة وبحثت عن العنوان فأعطتني إيّاه، لقد كنت قبل ذلك اليوم أعمل داخل الفندق والجميع يحترم حضوري ويحفظ أسلوبه في الحديث معي، ولمّا أصيب الزّمن الذي أعيشه بنائبة ليلة ظالمة، وتورّم شرف السّاعات، كنت أراني مثل ابنة أرذل حاشية، أو شبيهة بأبشع جارية، تمدّدت أحاسيس حزينة داخل ذلك القلب الذي خوى منه الود، تعقّدت الأحاسيس والأفكار الخالية من المعنى فنسجت شبكة تيه علق

بها الخد الذي تعكّر صفاءه، قضيت أكثر من ساعة جالسة في الرّدهة أنتظر مدير الفندق الذي ظننته ترياقا يشفي العلل. ظننت أنّ المدير الجديد دواء بعد أن غادر العم باديس الولاية الجديدة إلى العاصمة وقد كان العم باديس داءً ثم اكتشفت أنّ كلاهما أعداء للبلاسم، اكتشفت أنّ هذا المدير الجديد دكتور وأنّه متجرّد من إنسانيته، له هيكل بشري وقلب متوحش يفترس أدنى ضعف، لمّا كنت متّكئة على المتّكأ هناك قبالة المكتب، سألتني الموظفة الجديدة أسئلة رافقتها الغرابة:

- هل حقّاً كنت تعملين هنا؟

- نعم، ولم يمض على ذلك يومٌ كامل.

- إذن أنت التي ...!

- التي ماذا؟

.لا شيء...لا شيء، آسفة!

اتّصلت الموظفة بالمدير لكنّها لم تتلقّى ردّا، قوّست شفتيها ثم رأت وجهها في مرآة الخزانة خلفها وشرعت في تدبيج جمال شوّهه بعض الشّعر الذي خرج من تحت الخمار الأصفر، تمطّط المساء فما شاء الانتهاء وإذ انتهى فأين المأوى؟ هل يسمح لي الدّكتور مدير الفندق في النّوم داخل فندقه وقد أنفقت كلّ المال في شراء الفستان الأبيض والقبّعة المزركشة وتسريحة الشّعر؟ أم أنّني سأعود إلى الكوخ الذي احترق كلّيا. حملت الورقة التي كُتب عليها العنوان الذي أعطتني الموظفة من المذكّرة وقرأته

حتّى حفظته، إنّه العنوان الوحيد الذي رأيت أنّه السّفينة الباقية التي يمكن أن أنجو بها من بحر هؤلاء، إنّه عنوان رانيا التي كانت تدرس معي في الثّانوية وكانت تنصحني بالحجاب. رانيا التي قالت لي ذات يوم "إنّ المنظومة التربوية هي السّبب الرّئيسي في مصائب هذا الجيل، لأنّها قدّست المعلومات وداست على المبادئ والأخلاق البحتة فجعلت من الدّين مجرّد عناوين كُتبت على الكتب المدرسية، اهتمّت تلك المناهج التّربوية بتحفيظ الطّلبة المعلومات الجمّة سواءً كانت معلومات دينية أو غير دينية ولم تهتم بتطبيق الشّرع، فخلقت جيلاً نقيضاً لنفسه، تبيّن له الحرام وتُجبره على العمل به، وتبيّن له الحلال وتمنعه عنه، ومثال ذلك في الاختلاط السّافر والعري اللّذان أصبحا عند الذين يجهلون تفتّحاً وحرّية شخصية، بعد أنّ علّمتنا هذه المنظومة أنّ الاختلاط السّافر والتعرّي حرام وهما مخالفان للشّريعة، أنشأت هذه المنظومة جيلاً متناقضا حائراً بين معاني التفتّح والتّشريع، وبين العقيدة والتّعقيد، جيل يرى أنّ ثقافة الكاسيات العاريات ضرباً من التقدّم والحضارة، وأنّ العقيدة والشّرائع ضرباً من التّقليد والتّعقيد، مناهج لم تقدّر المقدّسات وقدّست التّفاهات، وكسرت المبادئ والقيم تحت قوانين الحرّيات والعقائد، فأصبح المسلم يرى أنّ دينه هو عصمته، وفي نفس الوقت يرى أنّ الأفكار الغربية هي التي تمكنّه من التّواصل بينه وبين باقي المجتمعات في دنياه، وأن شرائع دينه تعيق ذلك التّواصل

فصرنا لا دين ولا دنيا، وكلّ هذه الأرزاء تقع بصفة خفية لا تُكتب ولا تُقرأ، بل أفصح بها واقع أليم نعيشه، وزمن مريب يعيشنا"، اشتقت إلى رانيا وإلى مواعظها التي ما سمعتها في الجامعة ولا في الثّانوية. في بعض الأحايين أرى ذلك الواقع الأليم متمثّلاً في الانتحارات والاعتداءات على الطّلبة والطّالبات والمعلّمين والمعلّمات وغيرها من النّوائب والحادثات.

الرّابعة مساءً ولم يأت مدير الفندق، كان صالحا يحب المعصية أو فاسد يفعل الخير لمصلحة، في كلتا الحالين كنت أتمنّى له جهنّم، جاء غروب الشمس متأخرا عن زمنه، أو ربّما الزّمن جاء بطيئا، وكلا الفكرتين لم يحدثا، تظلل الفندق بالمساء منتظراً الليل وقبل أن ينشر الليل أجنحته ظهر الدّكتور مدير الفندق الذي علمت لاحقاً أنّه مختطف أطفال، فتح له الحارس البوابة فدخل مباشرة وأركن سيارته السوداء في موقف السيارات ثم مشى في الدّهليز متغطرساً حتّى بلغ مكتب الاستقبال أين كنت واقفة أنتظره لأستفسر عن سبب طردي. تجاوز درجتي الرّخام وانتصب غاضباً رافعاً رأسه ووشم العقرب المخيف ظاهراً على رقبته، دلفت نحوه مبتسمة ابتسامة الظّبية التي حاول جميع الوحوش في الغابة افتراسها فاستعانت بأسد جائع، كان المدير مختطف الأطفال أو الدّكتور مختطف الأطفال ضخماً وطويلا، وكان وجهه عريضا ولونه يميل إلى حمرة النّار، ويلبس بدلةً سوداء، استقبلني بوجه متجهّم يخلو من أدنى بشاشة، أسفل أنفه الطويل شوارب مقوسة على شفاهه المنتفختين، تكاد تخفي شواربه المنتفشة مناخيره المقعرة.

- ما بكِ يا فتاة؟ هل نسيتِ شيئا في الفندق؟

بعد أن سألني مباشرة، نزع رباعيات اصطناعية لفكّه الأعلى ووضعها داخل كأس الورود الموضوع على مكتب الاستقبال أين كانت الموظفة الشّقراء تعدل في خمارها الأصفر، سمعت سؤاله فتبكّمت مثل فصيح فقد لغته وبلاغته، أشار إلى الموظفة الشّقراء ذات الخمار الأصفر والعينين الزّرقاء بإيماءة بحاجبيه فحملت الموظّفة كأس الورود الذي وضع فيه أسنان المدير واختفت من المكتب، لمّا خرجت من وراء المكتب وتجلّت لي في الرّواق بجسمها الكامل ضحكت، كانت هيئتها من الخصر إلى الخمار الأصفر تعبّر عن الرّهبانية المفعمة بالخشوع والخضوع، ومن الخصر أين توجد الحزامة البيضاء العريضة التي تحيط بالخصر الواسع وتشدّ السّروال الضّيّق الذي رسم أستارها رسماً دقيقا حتّى القبقاب تعبّر عن فاجرة، وما أدراك لعلّها أُرغِمت على العمل في تلك الزّينة مثلي!

بعد مرور دقائق عادت الموظفة تحمل طبق الخزف ووضعت عليه مشروبات غازية وكؤوس، ناولت المدير الدّكتور مختطف الأطفال كأساً وسألتني إن كنت أود الشّراب فوافقت ثم انصرفَت بإيماءة ثانية من مدير الفندق.

- لقد سألتك قبل قليل يا فتاة ؟ هل نسيتِ شيئا في الفندق؟

-لم ولن أنسى، فقط أردت معرفة سبب طردي من الوظيفة وقد وعدني العم باديس بأنّني سأعمل هنا حتّى أتخرّج فيجد لي وظيفة في شركة من شركاته.

- من الأحسن لك أيّتها الجميلة أن تختفي منذ الغد، لم يعد لك مكان هنا في الفندق، أظنّ أن هذه الأرض كلّها لم تعد تحتملك، باديس أصبح وزيرا، وأنا المدير لكثيرٍ من ممتلكاته، وابنة باديس قريبا ستصبح زوجتي. سأسمح لك الليلة بالنّوم هنا في الفندق، وغداً صباحاً ابحثي عن كوكب جديد.

- أريد أجر عمل الشهور الأخيرة.

- لا تدينين لي بشيء، أنتِ جميلة اليوم! من اشترى لك كل هذا؟

رغم مرور السّنوات على تنصيب الدّكتور وتولّيه إدارة الفندق فأصبح أميناً ومديراً على خزائن العم باديس وفنادقه، إلا أنّ المدير الدّكتور مختطف الأطفال لم يكن وقحاً مقرفاً مثل ذلك اليوم، كان يسكن في العاصمة وكانت الأيّام التي يقضيها هناك أكثر من الأيّام التي يقضيها في الولاية الجديدة، أحيانا يولّي مهمّة إدارة الفندق لنائب يكون صديقا له، أو لإحدى صديقاته اللّائي يأتين إليه من غير مناسبة، ويختفي لعدّة شهور. صمت ثم مشى في الرّواق وهو يعرج، ابتعد مسافة قصيرة ثما قال:

- اتبعيني إلى المكتب.

جاء الليل وولج في النّهار شيئا فشيئا حتّى لم تتبقى من النّهار ومضة، طال ذلك اليوم وكأنّه عمر، كأنّه مئة عام، نشر الهدوء داخل الفندق صمتا رهيبا فتبعت الدّكتور حتّى مكتبه ولمّا فتح الباب وأمرني بالدّخول نظر

إلي مبتسما، ابتسامة من دون رباعيات فكّه العلوي، رابني أمر وقوفه قرب باب المكتب مرحّباً بيده التي تحمل سيجارة مشتعلة، انتبهت إلى أنّني أكملت الشّراب الذي أعطتني الموظّفة قبل دقائق ولم أجد مكانا أضع فيه الكأس، خفت من الدّخول إلى مكتب الدّكتور مختطف الأطفال وشعرت بوجل متذبذب يسبح على عواطف غير آمنة تخاف الهدوء أكثر من العواصف. لمّا دخلت المكتب فاجأتني الموظّفة التي ظننتها راهبة وامتزجت الدّهشة مع الحيرة المتنكّرة في قناع وهمي يبحث عن جواب لم يُطرح سؤاله، فهمت معنى الإماءة الخفية التي انتبهت لها قبل قليل، كانت الموظفة جالسة على مكتب الدّكتور وكان شعرها منثورا على ظهرها وكأنّه ملتصق بلوحة فنّية مبلورة بزيت تدفقت من جمال عجيب، رجعت إلى الوراء فأمسكني مختطف الأطفال وأرغمني على دخول المكتب، حملقت نحو الفتاة ثانية فوجدتها قد لبست الخمار الأصفر وباقي الملابس لتعيد لنفسها ملائكية البراءة، وقفت والخوف يجري داخل الفؤاد.

- إذن تريدين المال؟

- لا...لا أود المال! فقط أريد الخروج من هذا المكتب

- ليس الآن.

شعرت بذبول وتنميل داخل جسدي، كأنّني أرى ما يوجد خلف جدران الفندق، رغم الليل العاتم والظّلام القاتم إلى أنّني استطعت اختراق

الواقع والولوج إلى أوهام عميقة تسبح داخل قوقعة محصورٌ بداخلها زمنٌ بديع وسعيدٌ لا يراه سواي، ورغم الحلكة الفحمة التي تُرى من نافذة المكتب، إلا أنّني استطعت رؤية غيمة ممدّدة على شكل زهرة في سماء زرقاء و يوم مشمس. رأيتُ هواجساً صَعب التملص منها لأنّها أصبحت في تلك اللّحظة واقعا أكثر من كونها تصورات زائفة هواجس مثل أشباح ترقص داخل معقل سكانه مصابون بوباء الوهم، هواجس أراها تتشكّل في هيئة الرّبيع. شعرت أنّ الدّم يتدفق داخل العروق بسرعة مثل شلّال ثم يتجمّد في أقل من ثانية داخل تلك الأوردة التي ترسل برودة الشتاء القارص إلى القلب الملتهب بالأحزان المتراكمة، شعرت أنّ رأسي يتّسع والعيون تغمض بإعياء، نزعت الموظفة خمارها وتجرّدت القذارة من لحائها على مكتب رأيته عاليا مثل ناطحة سحاب، مالت القذارة على الدكتور القذروالقبيح، و أحسست أنّ الكأس الفارغ أثقل من صهريج الماء الذي رأيته صباحاً هناك في الرّيف، وددت وضعَ الكأس الفارغ على سطح المكتب فشعرت أنّني مشلولة حاولت المقاومة لأرفع يدي إلى سطح ذلك المكتب وأضع الكأس لكّن هذا الأخير هوى على الأرضية، انكسر الكأس.

* عظّم اللهُ أجركُم *

حين أبصرت المصنع الشّبيه ببحيرة تتبّخر إلى الفضاء أمرت السّائق أن يتوقّف في الطّريق الجبلي، وحاولت أن أبصر أي ذكرى مبصرة تقتل أسى يُرى عبر نفق مظلم اختفى خلفه السعد المضاء، عسى أن ينفع التذكّر روحا ضرّها الزّمن الأعمى، لا وجود للحياة القديمة في قريتنا، حتّى الرّعاة لا يُسمع لأغنامهم مأمأة، دفعت للسّائق أجر يوم كامل من أجل أن يقضي معي اليوم كلّه في القرية، انتهت نصف ساعة وأنا أتأمّل المناظر الميّتة والخالية من حياة الرّيفيين ثم طلبت من السّائق أن ننزل إلى المصنع فنزلنا، حين اقتربنا من البوّابة أين يوجد مركز الحرس دلف نحونا شابّ ضخمٌ يرتدي بزّة خاصّة داكنة اللّون، طويل ينتعل جزمة سوداء، وكان وجهه واسعاً أسوداً وشفتيه منتفختين يحمل على كتفه الأيمن بندقية نصف آلية تتجّه الماسورة إلى أعلى. أشار إلينا بيده من بعيد آمراً السّائق بالتّوقّف، أوقف السّائق السّيارة فترجّلت منها متّجها نحو البوّابة فصاح الحارس من بعيد:

- توقّف! إلى أين؟ هل أنت آتٍ إلى زريبة؟ لماذا تجاوزت الإشارة هناك على الطّريق، ألم تبصر أنّه ممنوع الدّخول إلى محيط المصنع قبل أن يسمح لكما الرّجل الواقف هناك؟ لماذا تجاوزتماه؟ توقّف! إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى الجحيم قريبا، هل تريد أن تذهب معي؟

في البداية كشّر أنيابه مثل كلب خنقه عظم، وحين رأى أنّ هذا النّحيف لا يبدو أنّه يستقبل النّاس مبتسما حوّل التّكشيرة إلى ابتسامة كاذبة كشفت عن أسنانه العفنة ثم قال:

- تبدو خشِناً! ولكنّك نحيف.

- لم أرى في حياتي أخشن منك و يابس وميّت.

- هل جئت هنا لتجلب لنفسك المصائب؟

- بل جلبتها معي؟ هل أنت بحاجة إليها؟

- يبدو أنّك مولع بالأفلام أيّها النّحيف.

- نحيف حي، خير من بقرة متفسّخة.

وقفت قربه فأدركت أنّه يقاربني في الطّول ولكنّه كان ضخماً، شابهتُ الدّودة المنتصبة طولاً أمام دبّابة، أو مثل ذبابة تحاول إبراز صدرها أمام أضخم الفيّلة، أظنّ أنّ الحارس لم يفصل رأسي عن الجسد خوفاً من فصله عن العمل، أشعل سيجارته ثم قال:

- لا تتحدّث معي بلغة الشّارع والعصابات ودعنا من ردود الفلاسفة والعظماء، هل جئت تبحث عن عمل؟ للأسف، لا توجد أي وظيفة شاغرة.

- جئت أبحث عن صاحب المصنع.

- تبحث عن مالكه أو مديره؟

- كلاهما

- المدير ليس هنا، ولو كان هنا لن يستقبل أمثالك، أمّا مالك المصنع، فستراه هذا المساء في التّلفاز وهو يلقي برنامجاً سيشرع في تطبيقه إذا أصبح رئيسا للبلد.

استدرت راجعا دون تحيته وركبت السيّارة وأمرت سائقها بأن ننطلق وحين ارتفعنا إلى الطّريق الجبلي حيث يُرى المصنع في الأسفل، أمرته بالتّوقّف، لقد طغى المصنع على أرض كانت في القديم طيّبة، كان هواءها مثل سحر يجعل الإنسان يبتسم دوماً، عرجت الشّمس إلى المغيب فلاح الشّفق مرحبا بحلكة الليل فعدت والسائق إلى العاصمة وافترقنا أين التقينا، اشتريت الخمر واستهويت نوعا مخدّراً فابتعته أيضاً. قبل أن أرجع إلى الغرفة مررت على شارع السّعادة فأبصرت العجوز نائمة تحت سقيفة البؤس ففكّرت في أن أصحبها معي، ثم تذكّرت أنّ الغرفة ليست ملكاً لي وما أنا إلّا متشرّد أشفق عليه رجل بسيط العيش، تأملت العجوز ثم سألتُ الليل: لماذا لم يأخذ العم عيسى العجوز إلى منزله وكانت هي أوهن منّي؟ فقال الليل "إنّ قلوب بعض البشر تحنو على الآخرين في الفواجع، أمّا في هدوء الأيّام تكون قاسية فلا تلين إلّا لموتٍ أو ريحٍ صرصرٍ، وقلوب أخرى لا تلين، فهي مثل الحجارة أو أشدّ قسوة، كان قلب العم عيسى ليّناً فأشفق علي حين وقعت الفاجعة الكبرى فأكرمَ وجَاد، إنّ قلبه ليّن لأنّه لايزال يحتفظ بالخير في جوفه، إنّ خيره بيّن

لأنّ دينه نفعه، نُشر ظلامُ اللّيل فاختفى الضّياء فاتّجهت إلى الغرفة، صعدت السلّم الحديدي الصّدئ ومشيت الرّواق مترنّحاً فبلغت باب الغرفة فرأيت شبحا مقرفص على المضجع، لم يتحرّك الشّبح من مكانه حين وقفت لدى الباب المفتوح، قلت في نفسي إنه ليس إلّا ضربا من الهلوسة والتّخيّل، وأنّ الشبح ليس إلّا هذيان سكران في وقت متأخر من الليل

- من...من أنت؟

سألني فأدركت صوت أنثى، إنّها صفاء، حين سمعت صوتها أدركت أنّ القمرزار غرفتي المظلمة، أبيت أن أدخل الغرفة وعدت الأدراج، وقبل أن أضع نعلي على السلّم الحديدي الصّدئ أوقفتني قائلة:

- لا تذهب! لا تسئ الفهم، إنّي وضعت الأكل على المائدة ثم وددت تجربة البقاء في هذه الغرفة المرعبة لمدّة خمس دقائق، لأختبر صبري على الرّعب فنمت. نمت وما استفقت حتّى سمعت قعقعة أحدثتها أنت حين كنت صاعدا السلّم.

- إذن، لماذا أطفئتِ المِصباح!؟

- لم أطفئه، بل انفجرلوحده حين أشعلته.

- شكراً على الأكل، أين العم عيسى؟

- ألا تعلم ما حدث؟

- لو علمت، ما سألتك.

- دخل أبي المستشفى منذ أكثر من أسبوع، ثم تبعته أمّي، إنّهما معاً في المستشفى، إنّهما ليسا بخيريا عثمان، فمنذ أن مات إخوتي إنّهما... إنّهما..."

تهدّج صوتها قبل أن تتلألأ دموعٌ اجتاحت لعنة الظّلام ولمعت عيناها وبرق ماؤها، فيا ليتني ما سألت، يا ليت الظّلام أخفى بستائره السّوداء جمالاً كأنّه انعكاسٌ للبدر.

- سأذهب إليهما في الصّباح، والآن اذهبي للنّوم.

- هل لي أن أسألك يا عثمان؟

- لا مشكلة!

- قبل أن أتخرّج، وفي كلّ صباحٍ أذهب فيه إلى الجامعة كنت أراك في شارع السّعادة، ورغم كثرة المتشرّدين هناك إلا أنّك لست خطيراً مثلهم، قبل أيّام أراد أبي أن يُكرِم متشرّداً وجاء به وأدخله إلى المنزل وفي الليل سرق المتشرّد جهاز التّلفاز وهرب! إنّ الكثير منهم خطر، ولا يمكن معرفة ما قد يفعلوه إذا أكرمهم الإنسان، إنّ أكثرهم مجرمون، وقد مضت عليك أيّامٌ كثيرة وأنت داخل الغرفة ولم...يعني...لا شيء لا شيء، أنا أثرثر كثيراً، آسفة!

- لن أسرق الجهاز، اذهبي للنّوم.

- قل لي يا عثمان! هل لك عائلة؟

- أنت تعلمين أنّ أمّي ماتت، أما أبي، فقيل لي أنّه مات لا يهم! سألحق بهم قريبا، اذهبي للنّوم.

- لماذا تحادثني هكذا؟ كأنّ قطعة جليد موضوعة على لسانك، لقد لاحظت أنّك لست إنسانا عادياً، تخرج إلى الشّارع قبل شروق الشّمس، وتدخل متأخراً في الليل. آه تذكّرت! هذا الصّباح كنت أرتّب الغرفة فوجدت تحت السّرير زجاجة خمر، من الجيد أنّ أبي لا يعلم أنّك تشرب الخمر، إنّ والدي متديّن ولو علم أنّك تشرب فلن...لن، لا شيء... آسفة آسفة.

--أنا أعتذر

- أنظر إلي، لا تنظر إلى السّماء، دع التّمثيل لأصحابه أنا على يقين أنّك لا تحب القمر، قل لي، هل تحب النّجوم والليل؟

- أنا أكره الليل، وربّما النّهار أيضاً، النّجوم لا أحبّها بل أهوى الشّهب إذا قُذِفت بها الشّياطين.

- صرتَ مخيفاً! ما بك؟

- سألتِ فأجبت، اذهبي للنّوم.

- أنظر إلى السّماء، ماذا ترى؟

- أرى النّجوم والقمر وخيط كهربائي!

- دعك من الخيط، ألم ترى أنّه يوجد الكثير من النّجوم تحادث بعضها البعض ولكن القمر وحيد؟

- نعم، أرى النّجوم وأرى القمر، ولكن كيف تسمعين لحديث النّجوم؟ هل النّجوم تتكلّم؟!

- أفف...! صارحني، لو كنتَ قمراً في ليلة هادئة، هل ستختار نجمة من النّجوم وتبوح لها بأسرارك؟

- من المستحيل أن أكون قمراً، ولن أتحدّث مع النّجوم لأنّه إذا فعلت سيقول الجميع أنّني مجنون.

- يا للغرابة! تخيّل فقط أنّك قمر، تخيّل أنّك قمر وتريد أن تحادث نجمة أعجبتك، افتح عينيك، لماذا أغمضت عينيك؟

- أغمضتهم كي أستطيع التّخيّل، ولكنّني لم أستطع أن أتخيّل نفسي قمراً.

- ماذا لو أشرقت الشمس الآن وقالت أنّها تحبّك؟

- أظنّ أنّ النّعاس أثّر عليك تأثيراً كبيراً؟ اذهبي إلى النّوم، يا للعجب! قالت الشّمس تشرق الآن! لم أسمع في حياتي أنّ الشّمس تُشرق على الساعة العاشرة ليلاً!

- هل تريد أن أقص لك قصّة جميلة؟

- أوه...أنتِ تتحدّثين كثيراً اليوم، اذهبي للنّوم.

- أفف! لقد نسيت شيئاً، جاء هذا المساء رجل يبحث عنك، إنّه ضخم وله وجه مخيف، قال أنّ اسمه الثّعبان.

.شكراً اذهبي للنّوم، لا تقلقي سأرحل من منزلكم قريبا.

- يا لك من...! أنا ذاهبة.

دخلت الغرفة وقد كنت متعبا فذهب الإعياءُ، نزلت صفاء إلى الطّابق الأسفل، فشعرت أنّ صاعقة نزلت داخل قلبي فزادت دقّاته وارتعش جميع الجسد لكلامها. كلّ كلمة قالتها كانت تصنع في عمق الكيان موجاً يرتطم بسواد الليل فتختلّ الآناء وتمتزج بأحاسيس غريبة، وكلّما أتذكّر كلامها أتمنّى أنّها لاتزال تحادثني ولم تذهب للنّوم، شيء غريب حدث لي فندمت على قولي لها أن تذهب للنّوم، غيّرت المصباح فأضيئت الغرفة ووقفت أمام مرآة الخزانة البنفسجية ورأيت البدلة المرقّعة عند الرّكبتين فحاولت إصلاحها، شيء ما حدث لي فكنت أرى أنّ العالم يملؤه الهدوء، مدّدت ساعدي من أجل أن أطفئ التلفاز المزعج فرأيته، كان يقف أمام المنبر مثل راهب خانه البكاء ليظهر خشوعه، يتحدّث بعاطفة رؤوم اتّجاه ابنها الوحيد، إنّه باديس صاحب القبّعة والغليون، إنّه مُخرجنا من النّور إلى الظّلمات، هو سبب جنون أمّي وتشتت الأسرة وصانع العذاب لها، حين رأيته يتحدّث عن مصائر النّاس خيّل لي أنّه البطل الوحيد المتمكّن من إسعاد البشر، كأنّه الأسطورة الصّانعة للبشر البلاسم والدّواء ولعائلتي صنع الأسقام والدّاء، جعلنا نعيش الشّقاء ثم جلس على كرسيه الفخم ووعد البشر بأنّه سيحقق لهم الهناء، عجِب الزّمن من إنسان يدفعه الشّوق إلى ركوب الموت، فقدت أحاسيساً ظننت أنّها رائعة ولن تنتهي. رأيت وعوده وابتساماته

فمُلئت غضباً واستطردت الرّوح المسكينة السّكينة، هو نفسه سيلقي خطبته يوم الأربعاء في قاعة لا أدري أين مكانها، قال لي الثّعبان أنّ العملية ستكون هناك في نفس القاعة، وأنّ تذكرة السّفر موجودة، هان الظّلام وضعفت قوته فحاربت أشعّة الشّمس جنود الحلكة وأشرقت، استيقظت من النوم صباح الاثنين، فوجدت قرب المضجع مائدة خشبية موضوعٌ عليها فطور الصّباح وعدّة أباريق والكثير من الحلوى والغرفة مرتبة، كانت النّافذة مفتوحة على مصراعيها فانغمرت الغرفة في عبق طيّب ورائحة مختلفة عن باقي الأيّام، إنّها رائحة زكية جعلت الرّوح تعبق بأحاسيس أزكى، قبل أن أضع أقدامي على الأرض دخلت صفاء ومعها علبة سكّر.

- أنا آسفة، ربّما أيقظت عاشق الشّهب قبل وقته.

- أووه، لقد جاءت الثرثارة.

- ثرثارة خير من أبكم.

حككت عيني براحة يدي ثم أنزلت رأسي تحت المضجع أبحث عن زجاجة الخمر.

- تبحث عن ماذا؟

- لا شيء.

- إذا كنت تبحث عن الجعّة، فاعلم أنّني أخذتها قبل أكثر من ساعة ورميتها في القمامة، لا أريد أن أراك تشرب مرّة أخرى، مفهوم!

- أوه، أنت صحافية ولستِ شرطية.

- إذن سأنشر الخبر كلّه في البلد، وأخبرهم أنّك تشرب الخمر.

- سأتوقّف عن شربه قريباً.

- والآن، عن ماذا تبحث؟

- قارورة ماء.

- أخذتها أيضا، انزل إلى الطّابق السفلي، الحمّام جاهز ليلة أمس قلت أنّك ستذهب باكراً لزيارة أبي، لماذا لم تفي بوعدك.

- آسف، أنا أعتذر.

- هل سنذهب إليه معاً؟

- لا، سأذهب بمفردي، تبدين مرحة اليوم؟

-- نعم، ربّما...قليلاً، هل تعلم؟ لقد نجحت في مسابقة إعلامية ووافقت إحدى القنوات التلفزيونية على أن أتعاقد معها.

- أتمنّى لكِ التّوفيق في حياتك.

- ما بالك تتكلّم مثل رائد فضاء سيسافر إلى المرّيخ ولا ينوي العودة!

- بل سأسافر إلى مكان أبعد.

- إذن، فلتأخذني معك!

- لا أريد أن تذهبي معي إلى الجحيم.

- لا بأس، سأذهب معك.

-- إنّ مكان الحوريات ليس في جهنّم.

- هل تراك تراني حورية؟

- آسف، لقد قلتها من غير تفكير.

- هل تعلم أنّني كُنتُ أظنّك مجرماً!

- قريبا ستطردين الظّن، وتتأكّدين من ذلك.

- أفف! اذهب إلى الحمّام، اذهب...

تناولت الفطور وارتديت ثيابا جديدة أهدتني إيّاها صفاء، إنّها ثياب أخويها الميّتين، أجبرتني على ارتداء سربال أزرق اللّون وقميص أبيض مع سترته.

- عينين خضراوين ووجه أسمر، من أين لك هذا الجمال؟

- اشتريته من شارع السّعادة.

- عد مبكّراً لتذهب معي إلى المستشفى بعد الظّهر، هل فهمت؟

- لا أدري.

لم أنزل إلى الشّارع عبر السلّم الحديدي الصّدئ، بل سمحت لي صفاء بأن أستعمل الأدراج وأنزل إلى الطابق السفلي ثم الخروج من الباب، استبقت الباب فأمسكتني صفاء وأمرتني بالعودة سريعا قبل فترة الغداء، حينما خرجت من الباب استطعت أن أرى الشّمس، استطعت أن أشعر بقليل من الدفء، شعرت بإحساس غريب يجري في داخلي فجعلني تائه من غير متاهة، تمكّن عصفور صغير كان يرقص على جذع شجرة وينظر إلي نظرة فكاهة من رؤية ابتسامتي الغائبة منذ زمن، ثم

ارتفع بجناحيه إلى السّماء عاليا. تمنّيت أن أعلو مثله، وأن أرى الأرض من بعيد، ثم تذكّرت أنّه بعد يومين سأحلّق إلى أبعد منه، تذكّرت أنّني سأغادر الكوكب كلّه، راودني شيء عن الرّحلة وحاول أن يُثني قراري، فما استطعت الهروب من جحيم الحياة، ولأنّني أحسست أنّ الرّوح صارت عدوة للجسد، استحال الفرار من المصير الأسود الذي رضيت به، حين استأجرت سيارة وكنت في طريقي إلى المستشفى لزيارة العم عيسى، وقف الثّعبان في طريق السيّارة فتوقّف السّائق، نزلت فأخبرني الثّعبان أنّه يعلم برحلة الأمس حين ذهبت إلى الرّيف أين يوجد مصنع الوزير باديس، وقال أنّه أتى إلى منزل العم عيسى يبحث عنّي فرأى الفتاة الجميلة فأعجبته، حين سألني عن اسمها أردت شنقه وتعذيبه، ولكنّني أدركت أنّني إذا فعلت لن أحصل على التّذكرة، أدركت أنّه السّبيل الوحيد للانتقام من باديس صاحب القبّعة والغليون والثّأر منه لأنّه أخرجنا من قريتنا قبل ستّة سنوات، كان الثّعبان الجسر الأوحد للعبور إلى العالم الآخر وأخذ معي روح الوزير باديس بعد أن غاب الأفعى الجسر الأول، أمرني الثّعبان بأن لا أذهب إلى القرية من غير أن أخبره، وأنّه وجب علي أن التزم بأوامره من غير معصية، وأنّ الذّهاب إلى القرية لن ينفعني لأنّ جميع سكّانها رحلوا وبُني هناك المصنع الضّخم ويديره رجل مجرم، لم يشأ الثّعبان أن يخبرني عن اسم مدير المصنع، ولكنّ الشيء المعلوم هو مالكه وهو الوزير باديس، أمرني الثعبان بأن لا أبقى

كثيرا في المستشفى وكرّر هذه الجملة كثيراً "لا تبقى كثيراً في المستشفى، اسأل عن حالته واخرج"، وأمرني بأن نلتقي على السّاعة الثّانية زوالا في ساحة مقهى الميناء وقال أنّه يحمل لي خبراً سارّاً، وحين سألته عن هذا الخبر، قال أنّه استأجر لي فندقا بأكمله وبإمكاني مغادرة منزل العم عيسى، قال أنّه فندق فيه كل ما يشتهي المرء وأنّني سأقضي اليومين الباقيين من عمري داخل فندق فخم فرضيت، قرّرت أن يكون آخر يوم أرى فيه العم عيسى، وآخر يوم أرى فيه صفاء. أحسست أنّ جزءً منّي مصفّد صفّدته صفاء، كأنّها حورية جعلتني أرى العالم جميلاً لدقائق، وجعلتني أتنسّم بعبير الصّباح وأتدفأ بأولى رماح الشّمس، قرّرت أن لا أعود إلى الغرفة الجميلة، دخلت المستشفى وسألتُ عن العم عيسى فأوصلتني إليه ممرّضة، حينما وقفت لدى الباب ورآني العم عيسى انفجر باكياً. اقتربت منه وقبّلت جبينه، أشفقت عليه وقد أشفق علي قبلُ، كان وجهه المنير ولحيته النّاصعة يحرّكان شيء بداخلي، لم أفهم لماذا بكى ونزلت دموعه، نظر إلي مبتسماً بعينين اغرورقتا وقال:

- هل صلّيت اليوم؟ هل ذهبت إلى المسجد؟ أم أنّك لاتزال تائها بين الحياة والموت دون أن تُدرك السّبيل؟

استحيت لسؤاله وكان يتحدّث بألم، كان يتأوّه مع كل زفرة.

- سأصلّي قريباً، سأصلّي، وأنت كيف حالك؟

- الحمد لله أنا بخير، اسمع يا عثمان، سأقول لك شيئاً ولا تُخبِر به ابنتي

صفاء، إنّ أمّ ابنتي مريضة بالسّرطان، وهي في مرحلة متطوّرة، إذا جاء الموت وأخذ أمّها، أو جاء وأخذني أنا إلى الرّفيق الأعلى اهتم بصفاء، قد يسوء دهر الفتاة من غير أمّ وأب، فاهتم بها يا عثمان، إنّها لا تعرف الشّرع والدّين جيداً، فتعلّم وعلّمها، إنّي أخطأت وتركتها تكبر عند أقاربٍ لا يفقهون سوى في القصور والفخامة، إذا حدث لي شيء أو لأمّها اعتني بها يا عثمان، وسأورّثك بعض ما رزقني الله، وإذا أرادت صفاء أن تتزوّجك فأنا موافق. فقط راقب حياتها كي لا تزلّ بين هؤلاء القوم، إنّ أكثرهم فاسقون، فيك الخير يا عثمان، فيك الخير...

- ولكنّني يا عم سأسافر قريباً، وربّما لن أعود.

- إلى أين؟ لابأس يا عثمان...لابأس، الله خيرٌ حافظ، لم أكن أتصوّر أنّك ستقضي أكثر من أسبوع في منزلي من غير أن تعتدي عليه، إنّ هذا وحده كافياً للبرهنة على أنّك صادق، لا أظنّ أنّ كلّ من يعيش في الشّارع صادق مثلك، سمعت سابقاً أنّ أحدهم استضاف متشرّداً فاعتدى عليه داخل بيته، إذا احتجت لشيء فاطلبه منّي شكراً لك يا عثمان، شكراً.

- أتمنّى لك الشّفاء يا عم، إلى اللقاء.

خرجت من المستشفى وجلست في حديقته أتذكّر إن كنت قد نسيت شيئاً في الغرفة، تذكّرت صفاء وقول أبيها ومرض أمّها، وحاولت أن أتخيّلها بعد سنوات إذا ماتت أمّها ومات الأب، رأيتها تتشرّد، ثم رأيتها

مثل كرة تُرمى من قدم إلى قدم، رأيتها تبحث عن عمل من شركة إلى شركة بين المسؤولين العديمين الرّحمة. حاولت أن أحذف صورتها وصورة أبيها من الذّاكرة وأن أقنع نفسي أنّ صفاء وأباها والغرفة مجرّد حلم رأيت في المخيّلة جمال الفندق الجديد، وتخيّلت البلد كلّه حين يسمع ببطل ضحّى بحياته من أجل العدالة بطل شجاع فجّر نفسه لأنّه حاقد على الوزير الظّالم. تخيلت نفسي يوم الأربعاء حين أكون جالساً على الكرسي أنتظر دخول الوزير، وإذا دخل وشرع في خطبته أضغط على زرّ واحد فأنتقل من عالم إلى آخر. وسأنهي العذاب وأنهي الحزن، وأكون قد انتقمت من نفسي ولنفسي وللعائلة.

فجأة...! رجعت لي صورة بكاء العم عيسى قبل قليل وأدركت أنّ سبب بكائه هو رؤيته لملابس أبناءه. وتذكّرت أيضاً قول الثعبان "لا تبقى كثيراً في المستشفى، اسأل عن حالته واخرج" ولكنّني لم أدرك لماذا قال هذا وردّده كثيراً، ربّما كان خائفاً من أن أسمع موعظة رجل صالح فأغيّر رأيي، تلبّدت السّماء فجأة، اختفت الشّمس خلف السّحب فتجلّى لون رمادي طغى على الأرجاء، وانتشر الوجوم على الأرض والسّماء، فأرعدت هذه الأخيرة ثم أسحمت، كانت العاشرة صباحاً حين عصيت الثّعبان وقرّرت أن أذهب إلى القرية حيث المصنع لآخر مرّة، حين رِمت الكرسي ومشيت في حديقة المستشفى تحت المطر قاصداً البوابة نادتني ممرّضة، نادتني بغير اسمي فوقفت أنتظرها مستعجلاً لأنّ السّاعة كانت العاشرة

ووقت اللقاء بالثّعبان بقي له أربع ساعات فقط، حين اقتربت منّي الممرّضة سألت:

- هل يقربك المريض؟

- إنّه صديق، لماذا؟

- عظّم اللهُ أجركُم.

- شكراً لك يا آنسة.

لن يحلو للبشر معرفة أسماء الأيّام إذا كانوا يعيشون دوما نفس اليوم، ولن يهابوا الموت إذا كانوا يعيشون جُثثاً...فاتركوا الإنسانَ حياتَه.

* المصنع ..*

انقضت تلك الليلة في ذلك الفندق بعد انكسار الكأس. انقضى الغمام الذي يغشى براءة أنثى ذهبت تبحث عن نور لتعيش به قليلاً من العمر فعاشت ليلة سوداء مثل عمرها المظلم، تفرّد القمر بنوره وأبى أن ينير حياة فتاة سوّد الظلم أيّامها، ترفّع فضاء الإنس على أدنى وأضعف يتيمة وأبى إنزال رحمته على روح ألهبها الزّمن، تمرّد الدّكتور مختطف الأطفال على جسدي بعد العمل عنده ثلاث سنوات، اكتشفت في تلك الليلة أنّه مختطف أطفال، وأنّه يشتري بأمواله أزهارا لم تبلغ. يشتريها من أجل أن يكون إعصارا، وأكيد أنّه ضرب أزهارا كثيرة في ربيع عمرهن، كانت الموظفة الجديدة صاحبة الخمار الأصفر التي تعمل في مكتب الاستقبال فقيرة، قالت لي في ذلك الصّباح أنّ أمّها مريضة ولها إخوة صغار، قالت أنّها تعمل في الفندق لتنفق عليهم وأنّ صرف الدّهر أرغمها على العمل من أجل محاربة الجوع والحرمان، كان صباحا مشمسا والحياة والحرية كانتا ترفرفان خارج الفندق بتبجيل، إلّا أنا كنتُ داخله مقيّدة بالخيبة والخذلان والخيانة المستلقية على الدّمقس. في صغري كنت فراشة تطير من وردة إلى وردة، ولمّا كبرت ألفيت جسدي بين بين هؤلاء البشر الذين غادرت الرحمة قلوبهم، وعدت مثل ذبابة تحاول التّحليق من غير جناحين، في الفندق، وبعد ليلة فقدت فيها الوعي أيقظتني الموظفة وكانت السّادسة صباحا، رافقتها إلى مائدة الفطور من

دون رؤية وما أنا بعمياء، رافقتها دون سمع ولست صمّاء، انتهينا من تناول ذلك الفطور المرّ مذاقه مثل الحنظل، فعلمت أنّها في التّاسعة عشر من عمرها، تحادثنا قليلاً ثم اختفت وتلاشت، كانت تعلم أنّ الابتسامة كسدت في ناظري، الشيء القبيح الذي غادرني على المائدة هو التّفكير في الانتحار، لم أفكّر به أبداً مثلما فكّرت به في الأمس هناك في ذلك الكوخ. يومين كأنّهما سنتين، كنت هادئة تماما على عكس الليلة التي قبلها، كأنّني كنت في ديمومة عذاب، تذكّرت شيئا واحدا بعد أن صحوت من النّوم، تذكّرت حديث الدكتور وهو يحادث أحدهم قائلاً: "الطفل في المستودع، ادفع أجر البائع، الطّفل بصحة جيدة وهو جاهز للعملية، كن حذراً"، قضى الفرح وجاد الحزن على فتاة سكن قلبها الوجل من هؤلاء النّاس، تحلّلت المشاعر فصارت رمادا نتنا أنفر منه، على طاولة الإفطار تلك، أعيدت الكلمات المريبة على شكل شريط سمعي "الطّفل في المستودع، ادفع أجر البائع، الطّفل بصحّة جيّدة وهو جاهز للعملية، كن حذراً".

أرسلت الشّمس خيوطها الدّافئة فاخترقت زجاج النّافذة فأصابت جسدي فأزعجته، ليس من عادتي الجلوس صباحا حول مائدة يقابلني عليها أناس آخرون، ولكن في تلك الأصبوحة، كان يقابلني على المائدة الكثير من الأشباح، الكثير من الهواجس، كان يقابلني الماضي متشكلا في هيئة المنزل المشقّقة جدرانه، والحاضر في هيئة فتاة متشقّقة الشّرف،

والمستقبل في شكل ركام ركم بعضه بعضا، شعرت بالوهن حتّى أنّني لم أستطع رفع كوب الماء إلّا بعد جهد وعناء، كأنّني أورسولا التي عاشت أحداث رواية مئة عام من العزلة، كأنّني عصفورة انهدم فوقها طود، كأنّني نجمة تبرّأ منها الكون، أدركت أنّ كلّ شيء انتهى، حتّى الجامعة قرّرت أن لا أعود إليها، أردت الهدوء والرّاحة، أن أغيب وأختفي عن هذه الحياة من غير أن أنتحر، لا شيء سوى أن لا أتشرّد في شوارع يملؤها السّكارى. اشتقت لأمّي التي قال عنها الدكتور أنّها في مصلحة للأمراض العقلية وأنها ستشفى قريباً، وإلى أخي عثمان الذي أخبرني الدكتور أنّه مات في محاولة هجرة غير شرعية، بينما كنت شاردة الذّهن إذ بالموظفة تجلس على الكرسي حول المائدة وهي تعدّل ذلك الخمار الأصفر ثم سألت:

- هل أنت ابنة فلان؟

- أنا هي.

- إنّ أباك حاول قبل أيّام قتل الدكتور بطعنة خنجر لكنّه أخطأ وأصاب سائق الدكتور إصابة خطيرة.

عبس وجهي وكأنّ رمحاً بلغ عمق الرّوح فزعزعها. بينما كنت أنظر إلى وجهها من غير أن أنبس بكلمة إذ بالدّكتور مختطف الأطفال يدخل ويقول قبل أن يجلس: "إنّ أباك سيُعدم قريبا، أو سيقضي عمره كله في السّجن، أمّا والدتك، فسأكون صريحا معك، فأنا لا أريد لفراشة

مثلك أن تقضي حياتها في التباس دائم، إنّ والدتك ليست في مصلحة الأمراض العقلية، بل ماتت منذ أكثر من شهر، ماتت تحت عجلات سيارة، أمّا أخوك عثمان، فهو لم يمت في هجرة غير شرعية، بل هو يسير إلى هلاكه، وبعد أيّام سيبلغه، وسيحقّق لي ما أريده، سينقر نقرة واحدة فيجعلني أغنى أغنياء البلد. نقرة واحدة ويجعل كلّ أملاك ربّ من أرباب البلد مُلكاً لي، كم هو رائع ذلك الشّاب، إنّه لا يعلم أنّ ذلك الفعل حرام وجريمة، ولذلك لا يمكنه أن يفرق بين الليل والنّهار، ولا يقرأ، وإنّه ليحمل حقداً كبيراً أكبر من حقد الشّيطان المارد للعبد الصّالح، هل تعلمين أنّ أخاك ضربٌ من ضروب الجحيم؟".

أكمل الدّكتور مختطف الأطفال كلماته ثم رفع رأسه ضاحكا، فتمنّيت أن تحيا تلك العقرب الموشومة على رقبته وتلسعه لسعة هلاكه، "الطفل في المستودع، ادفع أجر البائع، الطّفل بصحة جيدة وهو جاهز للعملية، كن حذراً" إنّ تلك الكلمات كانت أشبه بالملح إذا ذُرى على قلبٍ مجروح، لم ينتبه المدير الدكتور مختطف الأطفال في تلك الليلة أنّني سمعته، ما سال الدّمع من عيني بل ازددت قوّة وحقد، فمنذ تجاوزي لفكرة الانتحار صرت لا أفرّق بين شعور الحزن وشعور السّعادة، من حسن حظ العمر أنّ له صديقة صادقة، لمّتني بعد الشّتات وفتحت لي جنّتها الصّغيرة، غادرت الولاية الجديدة وعدت إلى العاصمة أين تسكن رانيا التي كانت صديقتي في الثّانوية قبل ثلاث سنوات، رانيا التي كان

كلّ كلامها عن الحجاب وكانت تنصحني بلبسه ولكن العمل منعني من ذلك، غادرت الولاية الجديدة والجامعة بقرار عدم العودة إليها، قبل الابتعاد عن مائدة الفطور طلبت من الموظفة إعطائي المذكّرة فوافقت. ركبت الحافلة المتّجهة إلى العاصمة وخرجت من مقاطعة ودخلت أخرى، سارت الحافلة في طرق التّلال والجبال، وفي كلّ ساعة من السّير أرى ذلك العنوان بأمل، عنوان صديقتي رانيا التي كانت ضد الاختلاط السّافر في المدارس والجامعات، أحسست أنّ نتيجة الذي كانت تخافه رانيا قد حدث لي، هل كنت ضحية من ضحايا الاختلاط، فلو لم ألتقي بعاصف السّمين ورامي الضّخم هناك في الجامعة لما كنت قضيت ليلة الخيانة والخذلان، وما تعرّفت على الفتاتين الحقيرتين. ولو كنت تعلمت الشّريعة لما كنت قد وافقت على العمل عارية عند الذّئاب الإنسية، وأحايين أخرى أتوهّم أنّ المدرسة ليس لها دخل فيما يحدث، وأنّ الفكر الذي كنت أحمله والكتب والرّوايات التي كنت أقرأها ليس لها نفع، كأنّ قانونا ما كان يجب علي الالتزام به ولكنّني لم أفعل، كل المعلومات التي كنت أحفظها لم تنفع أيضا، حتّى الشّهادة لم تغني عن حياتي، دخلَت الحافلة إلى العاصمة وسرنا بين الشّوارع ثم القرى والأرياف حتّى بلغت الرّيف الذي تسكن فيه صديقتي رانيا، نزلت من الحافلة وسألت بعض الصبية عن منزلها فأوصلني أحدهم إلى الباب قرعته فلم يُفتح، كان منزلاً بسيطاً يكاد يشبه منزلنا القديم في القرية القديمة لكنّه كان عاليا

قليلاً، ويبدو واسعاً أحاطت به أشجار التّين، وكانت منازل ذلك الرّيف بعيدة عن بعضها البعض، أحسست أنّ ذلك الباب الحديدي الأخضر هو باب جنّة، وإذا لم يُفتح فهذا يعني أنّ جحيم ما ينتظر جسدي، طرقت مرّات عديدة ففتحت لي الباب عجوزٌ قصيرة الطّول، وكان شعرها شائب ولها وجه صغير مستدير، إذا ابتسم ظهرت تجاعيده، صبغ نورٌ غريبٌ وجهها الصّغير، فكانت مثل لوحة فنّية أبلج بداخلها جمال الحياة، كأنّها مراهقة نشيطة تعشق الحركة والتّبسّم، فتحت الباب ورحّبت بي دون أن تسأل عن من أكون، رحّبت بي وهي تحاول لفّ عجارها عن شعرها الشّائب المشع، كان ثوبها الأحمر يلمع وهي تسير في الرّواق بخفّة، أدخلتني غرفة الضّيوف مبتسمة ثم سألت:

- كيف حالك يا ابنتي؟ ما رأيتك من قبل، هل تسكنين هنا؟

- لا أسكن هنا يا خالة، لقد جئت أبحث عن فتاة أعطت لي هذا العنوان قبل ثلاث سنوات، اسمها رانيا، وقد كانت تدرس معي في الثّانوية هنا في العاصمة.

- إذا جئت تبحثين عن رانيا فإنّها مكثت هنا أسبوعا كاملاً ثم جاء زوجها عامر بالأمس وأخذها، إنّها لا تسكن بعيدا عن منزلي، سأرسل لها مع فتى من أبناء الجيران وأطلبها.

- شكراً لك يا خالة، لقد اشتقت لها كثيراً، هل زوجها اسمه عامر؟

- نعم، اسمه عامر، هل تعرفينه؟

- نعم، لقد كان يدرس معنا في نفس القسم.

أخبرتني والدة رانيا أنّ اسمها هو فاطمة، لمّا قالت أنّ عامر الذي كنت أكرهه في الثّانوية تزوّج من رانيا تفاجأت، لم يكن محبوبا عند الجميع لأنّ تفاحة آدم تُرى ضخمة أسفل ذقنه، وأذنيه كبيرتان مقعّرتان وكانت جبهته مستديرة مثل الصّحن، ووجهه مكوّر وأفطس ولا يحبّ الحديث مع الفتيات وكان نحيلا يعرج في مشيته، فكنت أراه غريبا في شكله مريبا في مظهره وكان يُرى مثل متشرّد بائس لم يعد يطلب من الحياة سوى الموت، اختفت السّيّدة فاطمة لبضع دقائق، ثم عادت إلى غرفة الضّيوف التي كنت أجلس فيها وجلبت مائدة صغيرة عليها إبريق وفنجانين مع علبة سكّر وبعض الحلوى، كانت غرفة الضّيوف بسيطة مفروش عليها طنفسة مزركشة، وتحيط بها ثلاث مطارح مضروبة بالحرير الجميل، حجرة خالية من الكراسي. وقابلني هناك تلفاز صغير الشّاشة موضوع على مائدة خشبية، يعلوه منبّه صغير متلوف العقارب، تحدّثت كثيرا مع السيدة فاطمة وأخبرتني كلّ شيء عن زواج رانيا، بعد حديث دام لأكثر من نصف ساعة طُرق الباب فقامت السيّدة فاطمة تفتحه، ووقفت أنا في نهاية الرّواق البسيط أرى من الطّارق، لمّا فتحت السيدة فاطمة الباب رأيت امرأة ترتدي لباسا ذا أجنحة سوداء وتلفّ عجارا على رأسها، عانقت السيّدة فاطمة بفرحة ودخلت تمشي في الرّواق بهدوء، لمّا كانت تسير تلك المجلببة في الرّواق أسرعت لها، فرأتني

ففتحت ذراعيها فجمعت وضمّت قلباً أحاسيسه شتّى، فقدت نفسي بين أحضانها وانفجرت باكية فبلّلت دموعي جلبابها، إنّها الوحيدة التي أحسست في حضنها بالأمان. تعانقنا حتّى لامست القلوب بعضها، بكيت حتّى أفنى العناق شوقها.

- كيف حالكِ يا رانيا، لقد اشتقت إليك كثيراً، من هذا الذي بين ذراعيك؟

- إنّه ابني عبد الجليل، لقد سمّاه زوجي عامر على أبيه.

- عامر! أين هو، هل جاء معك؟

- أوصلني ثم ذهب، أنت تعرفين أنّ زوجي متديّن منذ أن كنّا ندرس معا في الثانوية، إنّه مقتنع أنّ الحديث مع غيري، أو النّظر إلى غير زوجته جريمة.

- آهٍ يا مجنونة، هذه سياسة لصنع زوج يليق بك، هل لازلت تريدين إمامة المصلّين يوم الجمعة؟

- لن تتغيّر طباعك أبدا يا عفاف، اجلسي...اجلسي، لقد تغيّرت ثقافتك في اللباس يا عفاف، ما هذا الفستان الأبيض والشّعر الأصفر والقبّعة، إنّك جميلة أكثر من ما كنتِ عليه في الثّانوية!

- ربّما...أو ربّما لست جميلة مثلما كنت.

- بلى، أنتِ أجمل، ما به الوجه الأشقر تغيّر لونه يا عفاف؟

- لا شيء يا صديقتي، أنا مريضة قليلا فقط.

- هل تعلمين أنّك زعزعتِ هذا الصّباح قلباً خاشعاً لربّه، كدتِ أن تكسري تقوى إنسانٍ ورعٍ، أظنّ أنّ هذا الجمال الذي يرافق البدن ما هو إلّا فتنة وبلاء شديد للقلوب.

- لماذا؟

- هل تتذكّرين يوسف الذي كنت تحبّينه بشدّة في الثّانوية؟ وكنت تكتبين له أشعاراً وقصائدا؟ وهو أيضاً كان يريد خطبتك، وقد كتب لكِ ذات يومٍ قصيدة شروطه فضحكت عليكما، إنّه لرائع أن يصنع الأدب للمتحابّين سفينة تُبحر فيها القلوب، وجسوراً وقصوراً من الودّ، ويشقّ لهما الأدب في تيه الحياة أبهى الدّروب، لقد كان هو أيضاً قارئ مجنونا للكتب، ولكنّك أفسدت تلك السّفينة وهدمت الجسور وقصور الودّ وأغلقت ذلك الدّرب، ورحلتِ من العاصمة، أتزالين تكتبين الشّعر؟

- لست أنا من رحل، صرف الدّهر هو الذي أرغمني على ذلك يا رانيا، وأنت تعلمين ما حدث لي، وتعلمين حالتي لمّا كنت أعمل في الفندق، لم أعد أكتب الشّعر يا صديقتي، ربّما فقدت الشّعور، أتذكّر ذلك الطّالب، ما به؟

- لقد رآك يوسف هذه الصبيحة وأنت آتية إلى بيت أمّي، فأرسل إليك مع زوجي عامر رسالة يسألك فيها إن كنتِ مخطوبة، أعلم أنّك تحبّين الجمال والمال، إنّ أبا يوسف يعمل في الشّرطة، وله رتبة راقية، ويوسف جميل ويملك المال، هل تقبلين أن تكوني جارتي يا رانيا؟

- أنا آسفة، لقد خُطبت، أخبريه أنّني مخطوبةٌ الآن.

وددت أن تتشقّق الأرض وتبتلع حياتي على أن أخون يوسف، الذي قالت رانيا أنّه لا يزال يدرس في الجامعة، ولذلك قلت لها أن تُخبر زوجها بأن يقول لذلك الجميل أنّني سأتزوّج قريبا، استأذنت رانيا زوجها عامر على أن تبقى معي في بيت أمّها فوافق، قصصنا على بعضنا البعض قصصا من الماضي، بعضها يتعلّق بالثّانوية وأخرى بالصّبا، قصّت لي بعض أحداث الصّغر لمّا كانت تقرع الأجراس وتهرب، وقصصا أخرى متعلّقة بأبيها الملتزم، الذي منع عليها الجلوس مع الصّبية لأنّها كانت في العاشرة من عمرها.

- كيف كانت الحياة هناك في الجامعة التي درستِ فيها يا عفاف؟

- كانت عادية، وأنت ما حال الدّراسة يا رانيا؟

- وددت إكمال الدراسة، و لمّا رأيت حالة زوجي عامر وحالة والديه خرجت من الجامعة، لم يرغمني زوجي عامر على أن أهجر المقاعد، ولكن لمّا أحسست أنّ دراستي في الجامعة تزعجه قليلاً، وأنّ الاختلاط يقلقه رضيت بالابتعاد عن الجامعة، ثم شعرت بالنّدم لأنّني هجرت المقاعد، ولذلك أخبرت زوجي قبل أيّام أنّني أريد العودة فوافق على ذلك، لقد مرّت ثلاث سنوات على فراقنا يا حبيبتي، لقد أصبحتِ أوروبية، أخبريني بصراحة، من هذا الذي خطبك، من هذا الخاطب الذي تجرّأ لقطف زهرة مثلك، قصّي علي قليلا من كأس الغرام الذي شربت منه.

- كأس! أيّ كأس؟ آه...لا شيء مجرّد شاب التقيته في الجامعة.

قبيح هو الخوف الذي يمنع الوقائع من إظهار الحقيقة المخفاة خلف ستار العار، كان شيء ما يدفعني للبوح بكل شيء، وشيء آخر كان يولّد إحساس عقيم ينفرد بفكرة أنّ السّر لا يُنطق به، "الطفل في المستودع، ادفع أجر البائع، الطّفل بصحة جيدة وهو جاهز للعملية ، كن حذراً" كانت تلك الكلمات تجذب روحي إلى عالم مظلم سكنه الموسومون بالوحشية، غادر عقلي إلى زمن الليلة الفائتة، وحين عاد سألتُ رانيا:

- هل أنت متأكدة أنّ أبا يوسف يعمل في الشّرطة؟

- إنّه جارنا، وقد سمعت أنّ أبا يوسف يحمل رتبة رائد إنّها رتبة تمنحه الحصول على كثير من المال، هل فسخت الخطبة الآن يا عفاف؟ أو أنّك تودّين الزّواج بأبي يوسف!

- لا...ليس لذلك الهدف سألتك، إنّه أمر آخر، هل تريدين الحقيقة يا رانيا، لم أكن مخطوبة أبدا، ولا أريد أن يحدث ذلك قط، لقد حدثت أشياء قذرة ومرعبة في تلك الجامعة، أرجو أن يبقى كلّ الحديث بيننا.

- لماذا؟ ماذا حدث؟

إنّ مصراعي النّافذة المقابلة للسرير كانتا مفتوحتان فبدى لنا أنّ السّحب تتجمّع بخفّة لتحمل رحالها وتتجه نحو مصيرها، هبّت ريح خفيفة دلدلت ستار النّافذة وولجت إلى داخل الغرفة فلامست أعطافنا المغطاة بغطاء واحد، نزل البرق وأسحمت السّماء، دفعت الرّياح

بعض قطرات المطر من خلال النّافذة إلى داخل الحجرة التي زارها ريح بارد، تلاشى ظلام الليل وتبعته السّاعات، سلب النهار من الليل ظلامه فأجحفت الشّمس بآخر خيوط السّواد وسارت بها إلى الانتهاء. طلعت الشّمس فطارت أجنحة العصافير محلّقة في السّماء، كانت التّاسعة صباحا، وكانت النّافذة لا تزال مفتوحة، هناك على النّافذة رأيت قطّ يحرّك رأسه بغرابة وهو يراني، كأنّه علم أنّني دخيلة في بيت أهله حملق نحوي آخر نظرة ثم ماء وقفز إلى الخارج، أين رأيت أشجار التّين التي اتّخذت العصافيرُ أغصانها أراجيحا، لم تكن رانيا نائمة بجانبي، لم أجدها هناك على السّرير، قمت بتعب شديد ولمّا مشيت الرّواق أبحث عن الحمّام خرجت السّيّدة فاطمة من المطبخ وهي تلبس الجُبّة الحمراء الرائعة.

- صباح الخير يا ابنتي.

لم أرد عليها وحاولت البحث عن شيء تسرّب داخلي وقفت من غير حِراك، وقد ذُهلت السيّدة فاطمة من ذلك الوقوف الغريب.

- صباح الخير ابنتي عفاف، ما بك؟ لا تبدين بخير!

كأنّ شحنة كهربائية أصابتني فكنت بكماء، أو ربّما صاعقة أرعبتني فصرت صمّاء.

- عفاف! ابنتي...ما بك؟

- لا شيء يا خالة، فاجأتني تلك الكلمات التي قلتيها فاجأتني لأنّ آخر مرّة سمعتها كانت قبل ستة أعوام.

لقد أعادتني كلمات السيّدة فاطمة إلى ذلك الزّمن لمّا كنت أعيش مع أسرتي في الرّيف، تناولت فطور الصّباح ولبست ثيابي التي غسلتها السيّدة فاطمة وجفّفتها، ثم جلسنا معاً في غرفة الضّيوف.

- لا تقلقي يا ابنتي، أنتِ في منزلك، اعتبريني والدتك. لقد أخبرتني رانيا بكلّ شيء، لم تشأ أن توقظك باكرا، ذهبت رانيا إلى بيت زوجها عامر من أجل تحضير فطور زوجها وأبيها، إنّهما يعملان معاً في ورشة تصليح المركبات وستعود بعد الظّهر.

شكرت السيّدة فاطمة، وبعد لحظات وصلتني رسالة من الدّكتور مختطف الأطفال الذي صرت أراه عديم الضّمير، كان محتوى الرّسالة عنوان مصنع، اقترح عليّ الدّكتور مختطف الأطفال في رسالته الذّهاب إلى ذلك العنوان إذا كنت أودّ العمل، وقال أنّه يعلم أنّني في العاصمة، لمّا قرأت الرّسالة تفاجأت لأنّ ذلك العنوان كان للقرية التي كنّا نسكنها في السّابق، وفي ذلك الوقت لم يكن موجود أيّ مصنع هناك، وقال الدّكتور أنّ مدير المصنع يبحث عن موظفة واحدة فقط، وإذا كنت أريد العمل فوجب علي أن أسرع، أحسست أنّ العاصمة خطر يترصّد بي، فهنا تشتّت عائلتي، وهنا فقدت أمّي التي جُنّت، وهنا افترقت مع أخي الذي كان في الثّانية عشر من عمره، في ذلك اليوم ذهبت إلى المصنع...

* روح مُقابل روحين *

أوه...! يا لترويض الزّمن، لقد روّض بشراً في صرح لا يتعدّى طوله دنانير، شكرت الممرّضة لأنّها قالت لي أنّ العم عيسى قد توفّى وسرت خارجاً من المشفى. استأجرت سيارة وانطلق سائقها إلى الرّيف لإلقاء آخر سلام عليه وقد استعمره مصنعٌ ضخم ووزيرٌ بوثائقه القانونية، قرّرت عدم العودة إلى بيت العم عيسى الميّت ولا حتّى أن أذهب إلى قبره، أو ربّما منزل الحورية البشرية صفاء، إذا جالت ملامحها على الذّاكرة يضطرم القلب شوقاً، وشعرت في فراقها شعورَ عاشق الحياة إذا مات شنقا، صلصلت عجلات السيارة على الطّريق الجبلي فرأيت المصنع أسفله، انحدرنا ببطء نازلين إلى المصنع محاولاً أن أرى صبية كانوا في زمن انقضى يركضون خلف الفراشات وخلف بعضهم البعض فرحين مرحين بعذوبة الطّبيعة والرّاحة. ولكنّني في كلّ مرّة كنت أحاول رؤيتهم أراها، أرى الحورية البشرية السّمراء وهي تحمل الصّينية وتدخل الغرفة الجميلة، أراها وهي ترتدي الثّوب الفضفاض وأرى عينيها السّماويتين وهما يرمشان تحت أهدابٍ ليلية، ليست إلّا ثوان حتّى تختفي صورتها وتظهر صورة الوزير باديس واقفاً يخطب، وأرى زر التّفجير ينتظر عناق أناملي وأفقد صورتها، أرى شارع السّعادة ثم أستمع لصوت الثّعبان حين قال أنّ قتل الوزير قتل مقدّس، وأنّني سأكون الآلهة العادلة، الآلهة القاضية على شرّ البشر، حين بلغت السيارة بوابة المصنع رأيت

الحارس الضّخم ذا الشّفتين المنتفختين يقترب منّا، كان يحفظ صورتي في ذاكرته جيّداً، أخبرني الحارس أنّ باديس الوزير مالك المصنع ليس موجوداً ولم يأت إلى مصنعه منذ شهور.

- الوزير غير موجود، ولكنّه كلّف رجلاً من أقربائه لإدارة المصنع، وهذا المدير يرفض استقبال الباحثين عن العمل، لأنّ العاملين هنا هو من يجلبهم من غير أن يبحثوا...

- ومن قال لك أنّني جئت باحثاً عن عمل؟

- وعن ماذا يبحث شاب مثلك في مصنع ضخم مثل هذا؟ كدت أن أنسى، قبل يومين أو ثلاثة سمعت أنّه يوجد وظيفة شاغرة لأنّ صاحبتها رفضت شروط العمل، ومن بين الشّروط أن تعمل من غير حجاب فرفضت فطُرِدت، وهل تعلم أنّ حظّك سيّئ يا صاح؟ لقد جاءت هذا الصّباح فتاة أخرى جميلة تشبه الأوروبيات، إنّها رائعة تلبس قبّعة مزركشة وفستان أبيض، لقد أنساني سحرها زوجتي وأولادي وأنا متأكّد أنّها عمرت الوظيفة الشّاغرة، إذا كنت تريد المال، فلا تبحث عن العمل، بل ابحث عن فتاة عاملة واطلبها للزّواج، أو كن وسيماً فتأتي هي لخطبتك، وإذا لم تكن هذا ولا ذاك، فدُم عانساً...

- هل لك في المنزل من تعمل تزفّها لي؟

- لا أدري يا صاح! ربّما سأزوجك أمّ أولادي وأتزوّج أنا هذه الفتاة

الجميلة الجديدة العامرة للوظيفة الشّاغرة إنّها رائعة، إنّها أجمل من فصل الرّبيع، إنّها أجمل من مذيعات النّشرات الإخبارية ومقدّمات الحصص التلفزيونية، شعرها الأصفر كأنّه كثبان من الذّهب وقبّعتها المزركشة كأنّها من الأحجار الكريمة.

- تبّا لك وللذّهب، أنا أريد أن أرى مدير المصنع أو مالكه، وبما أنّك قلت أنّ مالك المصنع ليس هنا، فاعلم أنّني سألتقيه بعد أيّام قلائل، وحين ألتقيه لن تلتقيه أنت مرّة أخرى، هل لك أن تطلب مدير المصنع؟ لا تقل أنّه رائد فضاء، أو أنّه في كوكب آخر ولن يرجع اليوم. أريده الآن...

- لا...ليس رائد فضاء، كلّ ما أعرفه عنه، هو أنّه دكتور، وهو الآن مع الموظفة الجديدة، ولا يريد أن يزعجه أحد، ولن أسمح لك بالدّخول.

أردت الدخول رغما عنه ولكن جاء رجلان وقاما بمنعي، حين وجّه الحارس الضخم ماسورة السلاح نحوي لم أعطي له أي اهتمام، لم أكن أخاف من الموت، يا لعجابة البؤس! كم هو سهل على البؤس أن يصنع للإنسان قناعة تجعله يرضى بالجحيم! لم أكن أرى أنّه يوجد فرق بين الجنّة والنّار، لم أدخل المسجد في حياتي، وكان المصلّون يرونني في الشّارع أتشرّد شاتما العالم فيقولون أنّني من أهل جهنّم، لا أدري إذا كان هؤلاء قد تنبّؤوا بالمصير الذي سآوي إليه، أو أنّهم كانوا يعلمون الغيب، أو أنّهم قالوها من أجل ترهيبي فقط، أخبروني أنّني سأبقى خالدا في الدّرك الأسفل من النّار، وقالوا أنّني سأكون أشد المعذّبين يوم

القيامة لأنّني من المجاهرين بالذّنب، لكنّهم لم يسألونني يوما عن حالي، أو عن سبب الذّنب، لم تهتم بي أي جهة الجميع كان يراني مجرما، وهذا ما كنته حقّاً، في كل مرّة أقترف ذنبا أستمع لهؤلاء وهم يقولون "دعوا الخلق للخالق"، لا أحد اقترب منّي وربّت على كتفي ونصح، أو لقّنني حكمة أو علّمني عِلما، لا أحد...لقد اكتفوا بالدّعاء لي باللعنة والموت، في شارع السّعادة وبين مقهى الرّحمة ومطعم الكرم، كنت أقضي الليل مفترشاً العذاب أنتظر طلوع الشّمس، وأقضي النّهار جائعا منتظرا الليل الهادئ، وإذا جاء الليل بارداً أشتاق للشّروق، وإذا جاء الشّروق أخاف من الغروب المفاجئ، في شارع السّعادة كنت متيقنا بأنّني لست في جنّة، ولم أجد من البشر من هم ملائكة، فأكثر من التقيت كانوا شياطين، أمّا الباقي، فقد كانوا ضحايا مثلي، ربّما أصدق يوم عشته هو يوم التقيت فيه مع العم عيسى الذي آواني إليه، في نفس اليوم رضيت الأقدار بِأن تأخذ المنون أمّي، حين ذهبت إلى زيارة العم عيسى في المستشفى، أخبرني أنّه يريد أن أتزوج ابنته صفاء شرط أن أستقيم، وأشرع في أداء الصّلاة. ولكن الحقد المشتعل في داخلي، والحياة التي خلت من المعنى، جعلاني عدوا لنفسي وللجميع، جعلا روحي بعيدة جدّاً عن أرواح النّبلاء، رفضت أن أتزوّج الحورية البشرية، وأخبرته أنّني مسافر ولن أعود إلى بيته أين تعيش الحورية البشرية صفاء، قبل أن أراها كانت لا شيء، وحين رأيتها صارت شيء، ولم تلبث حتّى صارت كلّ شيء، ثم عادت شيء، ثم لا شيء.

حين سألتني إذا كنت أحب النّجوم وقلت لها أنّني أعشق الشّهب إذ ترمى على الشّياطين كنت كاذبا، وحين رأيتها داخل الغرفة الجميلة أدركت أنّ النّجمة الوحيدة المتلألئة في سماء العالم كانت هي، أظنّ أنّ لعنة الحب إذا أصابت الفؤاد تجعله يعصي ربّه، يا للعذاب! أظنّ أنّ الحب إذا كان صادقا يتحوّل إلى مجرم يجرح الجسد والرّوح معا، أدرك الحارس أنّ الخلاص منّي ليس سهلاً، فاتّجه نحو المكتب ليدعو ربّه المدير ويزعجه. أردت أن أقتحم المصنع مثل اقتحام الجند للعدو فأوقفاني العاملان وما انفكّا عنّي حتّى جاءت مفاجأة الدّهر وسخريته، بعد دقائق من دخول الحارس إلى المصنع، خرج الثّعبان من المصنع زاحفاً، كأنّ الثّعبان علم أنّني سأعصي أمره وآتي إلى المصنع، خرج من البوابة مثل سجين يهرول خوفاً من أن يرجعوه إلى زنزانته.

- لقد حذّرتك صباحاً وكنتَ ذاهباً إلى المستشفى وقلت لك أن لا تأتي إلى المصنع، لماذا جئت؟ هل تريد أن أتراجع عن ما بيننا؟

- لقد جئت لأرى مجرما لم ألتقي به منذ سنين طوال.

-- انظرا ..انظرا ..إنّه يبحث عن مجرم ، إنّه ملاك وهو يبحث عن مجرم!، على من تبحث ؟

- أبحث عن باديس مالك هذا المصنع أو مديره، وأنت! ماذا تفعل هنا في المصنع؟ ولماذا منعتني صباحاً من أن آتي إلى هنا؟ ما علاقتك بالمصنع؟

- أنا أعمل هنا، و السّر المكتوم بيني وبينك لا أحد من البشر يعلمه،

اليوم الاثنين وقد بقى على الانتقام يومين. ومن الأحسن أن يبقى السّر بيننا نحن الاثنين، وإذا أردت معرفة كيف وصلتُ إليك، ولماذا اقترحت عليك طريقة للموت أفضل من الانتحار، فهذا أيضاً عمل آخر، وأنا أنفّذ الأوامر من غير أن أسأل.

حينما أخبرته أنّني أريد مقابلة باديس الوزير، اقترب من أذني وقال بصوت خافت:

- أنت تعلم أنّه وزير، وأنا أعلم أنّك عدوّ له، أعلم أنّه فعل بعائلتك العجب، وأنّ والدتك جنّت بسببه، لقد قلت لك سابقا أنّه عدوّي أنا أيضاً، وحين صادف العمل الآخر مهمّة قتل الوزير سرِرت، وحين بلغني أنّ الوزير لا يمكن قتله إلّا ببشاعة، وبلغني أيضاً أنّك الإنسان المناسب لأنّك قادر على التّضحية بنفسك في سبيل العدالة فاختاروك، وأرسلوني رسولاً لك، فجئتك من غير أن أسأل، لا يهم...هذا شيء بيني وبين السّماء، ولا طائلة من القّص عليك ما لا أعرفه، اسمع يا عثمان! لا تدع الهدوء يغادر روحي كي لا أزهق روحك، وهذا يعني أنّك ستموت دون أن تنتقم، أليس التّهذيب شيء رائع لو التزمت به؟

- تكلّمت كثيراً الآن! وبما أنّ الوزير عدو لك، فلماذا إذاً أنت تعمل في مصنعه؟

- قلت لك لا تسأل كثيراً، أنا أعمل هنا وهناك، وفي كلّ مكان، عقلي وعقلك لا يتشابهان، أنا أذكى من شيطان مارد، فلا تجعل أيّامك

سوداء، إمّا أن تكمل بوعدك وإمّا أن أكمل في وعدٍ لا تعرفه أنت، هل تريد مواصلة العملية أو تريد الانسحاب؟ قل!

- نعم سأكمل، ولكن ليس خوفاً منك أو من تهديدك، هل تعرف لماذا جئت إلى هنا؟ جئت لأتعرّف على طريقة سهلة تجعلني أنفّذ العملية هنا في هذا المصنع فأنا أشعر أنّ بؤس هذه الأرض يجذب روحي إليها، ربّما لأنّني ولدت هنا، وأنا متأكّد أنّ آلة من آلات المصنع موضوعة في مكان غرفة الطّوب حيث كنت أنام حين كنت صغيراً.

- لن تفعل أي شيء هنا، التّنفيذ يكون في قاعة سيلقي فيها الوزير خطبته بعد يومين، اصمت، لا تتحدّث عن السّر، يكاد يصل إلينا الدكتور مدير المصنع، لا تتحدّث كثيراً أمامه، يمكنه قتلك ضاحكاً.

حين رأيت الدّكتور شعرت بسخرية العجب، لم أدري أأغضب وأصرخ ضاحكاً، أو أهدأ وأضحك صامتا، إنّ مدير المصنع هو نفسه الرّجل صاحب الوشم على رقبته، وهو نفسه أخبرني أنّ أبي مات لأنه حاول الانتقام لعائلتِهِ فقُتِل، إنه الأفعى الغائب منذ أن ظننت أنّه السّبيل الوحيد والجسر الأوحد للعبور إلى زهق روح باديس، فسألته أن أعمل معه في توزيع المخدّرات فغاب واختفى، ولأنّ التّعجّب والحيرة لم يتركا لعقلي ذرّة من التّصديق سألت الثّعبان:

- ماذا!؟ الأفعى دكتور...وأيضاً مدير مصنع؟

- ماذا تقصد بالأفعى يا عثمان؟

- هو الأفعى وأنت الثّعبان، أظنّكما من صحراء واحدة!

- قلت لك اصمت، إنّه مدير المصنع، وأنا مجرّد عامل هنا، وهو أيضاً عدوّي ولا يعلم بالسّر.

اقترب الأفعى منّا ببدلة سوداء ووجه مخيف، لكنّه كان يحاول أن يبتسم للمفاجأة، فرحّب بي بحركة وقحة. حركة جعلتني أفكّر في شنقه، لقد أخرج فكّه العلوي الاصطناعي ثم أعاده بوقاحة، حين وصل إلينا ابتسم ثم أردف ضحكة ساخرة، رمق الأفعى الثّعبانَ نظرة غريبة فتجهّم وجه الثّعبان ثم ابتسم ليخفي السّر، عانقني الأفعى وقال أنّه اشتاق لي وللعاصمة.

- كيف حالك يا عثمان؟ هل أنت بخير؟

- لقد تجاوزت اسمك أيّها الأفعى، ألم تكن من قبل مروّج مخدّرات وسائق لدى أسيادك؟ كيف تحولت إلى مدير مصنع؟

- لم أكن في حياتي مروّج مخدّرات، ولم أكن سائقاً أيضاً، أعرّفك بخادمي المخلص.

- هل تقصد أنّ الثّعبان خادمك؟

- نعم، هل يوجد شكّ في هذا؟

نظر الثّعبان إلى الأفعى وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ابتسامة توحي أنّ صاحبها يرى نفسه بطلا، ولكنّه كان أقذر ضحية وأقذر مجرم في فيلم، امتزجت مشاهده مع أحداث خفية لا تُرى إلّا من ريب النفوس النِجسة.

رأيت نفسي مثل روح تائهة في مجرّة مظلمة وهي تتجهّز لدفع نفسها نحو الجحيم بغباء، شعرت أنّني لا أملك ذرّة من النُّبل، وقد كنت كذلك، غشى النّهار حلكة لا يراها سواي، ارتفع الكوكب الملتهب أكثر فأكثر فأقعر البؤس بئر الجرح وأدبر إلى زمن أبتر.

- دعك من التّفكير يا عثمان، عد بعقلك إلى هنا؟ ليس بيني وبين من تسمّيه الثّعبان أي علاقة من غير علاقة العمل.

قال الأفعى وهو يحملق إلى الثّعبان الماسك بذقنه حائراً مبتسما زيفاً، فكشف الزّيف أسناناً مسوسة تنبعث منها رائحة كريهة.

- أعلم أنّه ليس بينك وبين الثّعبان علاقة، ولكنّني متأكّد أنّكما خرجتما من جحر واحد.

أمر الأفعى الثعبانَ بالانصراف، فانصرف هذا الأخير بعد أن رمقني بغضب يحذّر من أن أتلفظ بكلمة تتعلّق بالسّر، اختفى الثّعبان فأخبرني الأفعى الحقيقة وأوضح التّعقيد، قال أنّه يريد القضاء على الوزير لأسباب شخصية، وأنّ مشهد الثّعبان الذي يهتم بي ليس إلّا مشهداً من فيلم هو مخرجه، ولا يدري به حتّى الثّعبان نفسه، وقد كان يظنّ الثّعبان أنّه أذكى من شيطان مارد. لقد خطّط الأفعى لقتل الوزير وجعل الثعبان سطراً تسير عليه الحروف دون أن يعلم هذا الأخير أنّ بطولته وذكاءه مجرّد مشهد من مسرحية امتزجت بالتّعقيد والوهم والكذب والخبث، أخبرني الأفعى أنّ أبي لم يمت، وأنّه كان كاذبا حين أخبرني بموته، وقال

أنّه أراد أن يقتل شعور الألم بداخلي، ولأنّ أبي حُكم عليه بالسّجن مدى الحياة لأنّه قتل سائق الوزير بطعنة خنجر أراد الأفعى أن أقتنع بأنّ أبي مات، وأن لا أنتظر عودته، قال أنّه يعلم أنّني أريد الانتقام من الوزير منذ أن وافقت على العمل معه في ترويج المخدّرات، وقال أنّه علم في نفس اللحظة نيتي في استخدامه كجسر عبور لزهق روح الوزير باديس، وقال أنّه لم يكن سائقاً، بل كان يساعد أبي في الانتقام من الوزير، ولمّا أخفق أبي في فعلته، أراد منّي أن أكمل مساره، قال أنّه يعلم كلّ ما حدث لنا في الفندق قبل ست سنوات، وأنّ أبي عاد إلى الرّيف فلم يجدنا، وهناك التقى الأفعى بأبي، وقد شُرع في بناء المصنع، فجعل الأفعى من حقد أبي وغضبه سلاحاً أراد به تدمير قلعة الوزير ولكنّ أبي فشل في زهق روح الوزير، فبحث عنّي لأكمل مسار أبي.

أكيد أنّ أبي تجرّع كؤوس الحقد متتالية، يا لبؤس الحقد، إنّه يصنع القتلة، أظنّ أنّ أكثر السّبل التي تؤدّي إلى الجحيم هو الحقد، ولكن ماذا عن هؤلاء الذين يصنعوه؟ لقد استغلّ الأفعى حقد أبي ليصنع منه قاتلا وقال أنّه كان يريد مساعدة أبي في الانتقام، حين سمعت كلامه لم أبالي، بل بلى بالي، صرت رثّاً أكثر من ثوب موضوع على سفح جبل وقد مضى على وجوده وضعه كلّ فصول السّنة.

- هل أنت جاهز للعملية يا عثمان؟ إذا لم تكن جاهز فلا بأس، بإمكانك أن تموت بطريقة أخرى؟

- لا تسأل كثيراً، أنت تعلم أنّ الحياة لم تعد تعني سوى يومين.
- لا تخبر الثعبان بما قلت لك، هذه الليلة سيجلب لك الثّعبان الحزام فلا تخف، لن يطول الأمر إلّا ضغطة واحدة وينتهي الأمر، إنّك ستريح العالم من إنسان ظالم، لا تتردّد يا عثمان، إنّك تقوم بعمل مقدّس، وإذا رأيتك في منامي تفكّر في عدم تنفيذ العملية، فتأكّد أنّني سأقتل أختك وأقتل أيضاً صفاء الجميلة، فاختر روح مقابل روحين...

* قصّة دم *

لاتزال الذّاكرة تحتفظ باليوم الذي خرجت فيه من منزل السيدة فاطمة أمّ رانيا بحثاً عن سيارة يمكنها إيصالي إلى مصنع القرية التي كنّا نسكن، قال الدكتور مختطف الأطفال أنّه سيصل إلى هناك قبلي، استأجرت سيارة شككت أنّها غير صالحة للسّير أكثر من مئة كيلومتر. سيارة طويلة لونها أسود ويبدو عليها الوهن وسائقها شيخ كبير شعره شائب، شعرت في طريقي إلى القرية أنّ الجهة الخلفية للسيارة تكاد تنفصل عن الأمامية عند الكراسي الخلفية أين كنت جالسة، فتح السّائق الشّائب زجاج نافذته وطفق يغنّي ويدندن، في الطّريق تذكّرت الدكتور مختطف الأطفال الذي اعتدى علي وتذكّرت كلّ الأحداث التي انتثرت من حولي، ثم تجمّعت وأحاطت بي على شكل أيّام خائنة، كنت أعلم أنّ مختطف الأطفال لا يتّصل بي إلّا من أجل غاية خبيثة أو لسبب غامض لا تُدرك غايته، ولكن كنت أراه السّبيل الذي ينقذني من هلاك الجوع، كنت أعلم أنّ صديقتي رانيا وأمّها السيدة فاطمة راضين بي للعيش معهم، ولكن بعض ذرّات الكرامة اللّائي انفصلن عن الشّرف دفعنني إلى المضي نحو التّعايش في عمق الخيبة والمغامرة، إذا تذكّرت تلك الكلمات "الطفل في المستودع، ادفع أجر البائع، الطّفل بصحة جيدة وهو جاهز للعملية، كن حذراً" أو حين أتذكّر تلك الليلة في الكوخ، يستعمرني التّناقض بين ما أقرأه في الكتب والرّوايات وبين

ما أراه في الواقع، بين الدّين الذي لم أتعلّمه وبين العلم الذي تعلّمته في الجامعة، هل رانيا كانت على حق لمّا قالت أنّ الابتعاد عن المنهج والشريعة هو السّبب في ما يحدث في العالم العربي؟ لو كان كلامها صائباً لكانت المنظومات التّربوية قد اهتمّت بالشّريعة أكثر من المواد الأخرى! لا أظنّ أنّني صلّيت يوماً أو سجدت، لقد كانت لي عقيدة مثل الإرث كانت عقيدة وراثية، شبيهة بمنزل وُلِد فيه إنسانٌ وترعرع من غير أن يدرك معنى هدم ذلك المنزل، هل كانت لي عقيدة منهدمة؟ أو أنّ المنزل انهدم قبل أن أولد؟ أظنّ أنّ هذه الفكرة الأخيرة هي الأقرب إلى الحقيقة، فإنّ أبي لم يكن يصلّي ولا حتّى أمّي، المدرسة لم تعطي للعقيدة أي انتباه، فقط كنّا مطالبين بالحفظ جيداً وعدم النّسيان، وكان العلم مجرّد أجوبة وأسئلة مختزلة في يوم توزّع فيه أوراق بيضاء ويُطلب منّا تدوين ما نحفظ على الأوراق الواسعة، وطوبى لمن يملك ذاكرة قوية.

ذات يوم وقد كنت في الثّانوية، رأيت طالبا يغش في الامتحان، لقد كان ينقل الآيات من المصحف إلى ورقة الإجابة، كأنّ الحياة عاتبتني وأنا داخل تلك السيّارة وكانت تقول أنّ رانيا كانت على حق في الثانوية حين استقامت وما رضت بالاختلاط، في طّريقي إلى القرية أصبت بالحيرة، كانت السيارة تسير بسرعة فكنت أرى الأشجار ترجع إلى الخلف بسرعة أكبر، تمنّيت عودة الزّمن إلى الوراء فأستطيع اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، أدركت أنّ كلّ الرّوايات والكتب التي قرأتها لا تُغني عنّي شيئاً إذا لم أجد قانوناً وشريعة ومنهج مستقيم أسير عليه، اقتربنا من القرية فأبصرت المصنع من الأفق، لا وجود للقرية، رأيت المصنع وعدّة مداخن أعلاه ترسل أدخنتها إلى السّماء، اختفت الغابة التي كانت هناك واختفى الأطفال الذين يرعون الأغنام، كأنّ القرية عاشت أحداث قرية ماكوندو التي تحدّث عنها الأديب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز في روايته "مئة عام من العزلة" اقتربنا من المصنع فنزلتُ من السيارة واقتربت من البوابة فدلف نحوي شابّ ضخم أسود البشرة يحمل سلاحاً على كتفه، لقد كان بشعاً، قادني إلى داخل المصنع مرحّبا بي ترحيباً عجيباً، كأنّه كان ينتظر وصولي بشوق، سرت قليلا حتّى بلغت باباً فقرعه وقال لي إنّه مكتب مدير المصنع، لمّا فُتح باب المكتب ألفيت الدّكتور مختطف الأطفال يجلس على الكرسي واضعاً قدميه على سطح المكتب، في تلك السّاعة، وفي ذلك المكتب رأيت مجزرة، لمّا دخلت

المكتب لم يقف الدّكتور من مكانه مرحباً، بل رحّب بي بإشارة من يده وحرّك رأسه إلى أعلى وأسفل آمراً الشّاب الضّخم بغلق الباب والخروج فنفّذ الأمر وانتهى إلى خارج المكتب فبقيت مع الدّكتور، تحادثنا لأكثر من ساعة وصارحني بأنّه هو مدير المصنع، وأنّ هذا الأخير سيصبح قريباً ملكه. ابتسمت له وقلت أنّني فرحة لذلك، أنزل قدميه من سطح المكتب ودلف نحوي، عدت إلى الوراء مدّعية أنّ القمطر أعجبني جماله، لمّا تقدّم أكثر فتح البابَ الشّاب الذي رحّب بي قبل لحظات، وقد بدت عليه علامات الاضطراب والقلق وهو واقف عند العتبة.

- آسف على الإزعاج سيّدي، لقد عاد الشّاب الذي أتى سابقاً، إنّه في الخارج يقول أنه يريد رؤية مدير المصنع أو مالكه، حاولت أن أطرده لكنّه رفض الذهاب وجّهت السلاح نحوه مهدّدا بقتله لكنّه أبى إلا وقوفا، لم يرضى بالابتعاد عن البوابة، لقد حاول دخول المصنع بقوة فأمسكاه العاملان، والآن هو يتحدّث مع مساعدك هل تريد يا سيّدي أن...

- إيّاك أن تُطلق النّار عليه، فالمسكين لم يبقى له الكثير ليعيشه.

أفلت الدكتور شعري وحذّرني من إعلاء الصّوت. أغلق باب المكتب من الخارج وتركني داخل المكتب بمفردي، رأيت باب صغيرة على يسار الحجرة أين كان يتّكئ الكرسي الهزّاز قرب المكتب الفخم، اقتربت منها ودفعتها بغير عنف ففتحت، دخلتها فوجدت نفسي في حجرة صغيرة مظلمة شبيهة بمخبر طبّي، مملوءة بالأدوية والزّجاجات الشبيهة بالتي

تُستخدم في المستشفيات، في الجانب الأيمن لتلك الحجرة الصّغيرة رأيت مصباحا معلّقاً على آلة تشبه الآلة التي يستخدمها طبيب الأسنان، كان مصباح الآلة يضيء جانبا واحدا من الحجرة، على اليسار أبصرت طاولة لا يصل إليها ضوء المصباح الخافت، لمّا هممت بتدوير المصباح نحو تلك الطّاولة سقطت زجاجة فانكسرت فانتثر الزّجاج و جُرحت، استدار المصباح إلى الزاوية التي تسمح بإرسال الضوء إلى الطّاولة هناك في اليسار فأصابني الهلع، شعرت بالاختناق وملأني الرّعب صرخت صرخة بكماء، لقد أفزع المشهد روحي وأصابني الوجل، روّعني ما رأيته، أعضاء بشرية ورأس طفل صغير مغموس في قصعة دم.

* تذكرة السّفر إلى الجحيم *

تضخّمت ساعات النّهار وتخثّرت فصارت أثقل من الزّمن العالقة به، في اليوم المشؤوم اكتشفت أنّ أبي لم يمت، بل حُكم عليه بالمؤبّد لأنّه قتل رجل من حاشية الوزير وأنّ الثعبان مجرّد غبي استهان به عقله فحسب أنّه البطل الأذكى، وعلمت أنّ الثعبان يزحف على سطر خبيث خطّه الأفعى، وأنّ الأفعى يصنع للوزير حتفاً بعد أن أعطاه هذا الأخير مهمّة إدارة المصنع وبعض الشّركات والفنادق، وجعله أمينا على مخازن النّهب فأراد الأفعى أن يسلب روح الوزير ليملك المصنع وجميع الممتلكات، في اليوم المشؤوم غادرت المصنع مدركاً أنّني آلة شرّ تعيش بين أيدي شر البشر. قضيت اليوم في الطّريق الجبلي أصرخ صراخ السّخرية والاستهزاء، صرخت صراخ الأشرار الملعونين وليس الصّبي الماضٍ على خروجه إلى الدّنيا سوى ثوان قليلة، كنت مدركاً أنّه صراخ الخارج من الدّنيا لا الدّاخل إليها، تدحرجت الشّمس إلى مغربها فاستقام الخطّ الأوّل من الليل، لامست أطراف أجنحة الظلام العاصمة فولج الجميع إلى بيوتهم وزوجاتهم في شارع السّعادة، إلّا أنا اتّجهت إلى المخمرة أين يوجد الماخور، كانت الرّوائح داخل الماخور مقرفة تنفر منها العناكب والجرذان وكنّ البّغايا عند الباب يومئن إلى المارّين إيماءات خفية فاحشة، كنت أمقت البغايا مقتا كبيرا وأكرههن كرها عظيما ولا أدخل عندهن، بل أكتفي بشراء الخمر من نافذة الماخور وأتّجه إلى الشّاطئ

لأثمل أسفل الصّخرة السّوداء، شعرت بتعب شديد ولم أستطع التّفكير في السّير أكثر فامتنعت عن الذهاب إلى الشاطئ ودخلت الماخور فاكتشفت أنّ عجوزاً تديره، كأنّ الشّياطين أعطت لها وجهاً قبيحاً ليس عليه سمة من سمات المرأة فأدخلتني إليه فوجدته مثل مقهى، الكثير من الموائد وُزّعت بفوضى وكانت جميع الكراسي فارغة خانها التّنظيم والضّوء كان خافتا فعجز بصري عن رؤية جوانب الفسحة، جلست لدقائق فقلقت وفكّرت في أن أخرج من ماخور الطّاعنة العفن وأن أغدو لأثمل أسفل الصّخرة السّوداء، فجأة...! وكنت قد خطوت خطوتين فاصطدمت بجسد:

- هل تريد شيئا؟

ما اعتدت على أن أشرب مشروبا غازي أو غيره فطلبت من الفتاة الواسعة الجسد أن تجلب لي كوباً من القهوة فقالت:

- لا أظنّ أنّك بخير.

- بل أنا بخير، وأريد كوباً من القهوة.

- لا يوجد هنا قهوة أيّها الصّالح، أخرج من هنا حالاً.

- لماذا أخرج، لقد أدخلتني المرأة الطّاعنة في العمر.

- إنّها أخطأت حين أدخلتك، ربّما لم تنتبه إلى أنّك مثلها، أخرج الآن.

ما شئت الأخذ معها فمشيت خلف الجسد الفاتن باتّجاه الباب الخلفي، فتحت لي الباب الغريب البائس لأخرج منه فأذهلني صفّ البشر

المصطفّين في الرّدهة، أغلقت الفاجرة باب العجب ورجعت إلى الدّاخل وتركتني واقفاً أقابل البشر المصطفّين، كانت المرأة الطّاعنة تمشي الرّدهة وهي تعدّ بالكفّ هؤلاء المصطفين وترسل لبعض منهم لعنات وشتائم لأنهم رفضوا أن يطفئوا سجائرهم، كنت أتجرّع من الزّجاجة ومن حين لبعدِه أسمع دندنة آتية من الصّف، وفي كلّ مرّة تحذرهم فيها الطّاعنة، وتنذرهم وتحذّرهم من أنّ التّدخين محظور، يعلو صوتٌ من الصّف "هذا ليس مستشفى"، ثم يعلو آخر "لسنا في محطّة وقود". انزلقت من الماخور واتّجهت إلى الفندق المخصّص لقضاء آخر يومين من عمري، وقد أخبرني الثّعبان عن العنوان، بلغته بعد نصف ساعة من المشي فاستقبلتني لدى الباب يافعة خفيفة الحركة ورحّبت بي.

- مرحباً بك سيّدي داخل فندق الهدوء.

- أيّ هدوء! قريباً سأنفجِر.

- ماذا قلت سيّدي؟

- لا شيء، لا شيء.

أخرجت من بدلتي بطاقة أعطانيها الثّعبان صباحاً فزاد التّرحيب جمالاً، أشفقت على الفتاة لأنّ مجرّة عينيها لم تكن هادئة، كأنّ ثورة غريبة كانت تضطرم في العمق الأبعد، كان جمالُها يُرى مثل سلعة نافقة، وفي تدفق عينيها أدركت أنّها الكساد، لكنّها كانت خفيفة الحركة ومضطربة النفس في الوقت ذاته، حين قرأت الفتاة البطاقة سألتني عن أي طابق أريده، وإذا كنت أريد أن يُفرش الفندق كاملاً فقالت أنّها ستفعل.

- أريد أقرب غرفة.

- اتبعني سيّدي من فضلك.

- لست سيّداً، نادني عثمان.

- مفهوم سيّدي.

- قلتُ لكِ نادني عثمان.

- لا مشكلة سيّدي.

- اسمعي يا...! آخر مرّة أقول لك أن اسمي هو الثّعبان عفوا...عثمان.

- مفهوم سيّدي الثّعبان.

رافقتها إلى أقرب الغرف فأدخلتني أجملها، كان المضجع مفروشا بأروع الألوان، جدران ناصعة عُلّقت عليها براويز صور رائعة، سمحت للفتاة بأن تعود إلى مكتب الاستقبال فقالت أنّ ربّ عملها أمرها بأن تغلق الفندق الفارغ من النّزلاء، وأن تبقى في خدمتي كلّ اللّيل، وواجبٌ عليها أن تمتثل للأمر وتخضع، سألتها لماذا لا تبحث عن عمل آخر في فندق غير هذا، فقالت أنّ الفاقة والشّقاء صنعا منها حزينة تبحث عن نقد الهناء، وأنّ الأسقام والدّاء استعمرا أبويها فرضت بالدّاء لشراء الدّواء، كانت المسكينة تبحث عن سعادة الزّيف في أعماق الحزن، وتريد أن تركب حظ السّعد على بحر النّحس، أردت أن أنصح لها بترك عمل الذّل والبحث عن عمل أعز، فخُيّل لي أنّني شيطان ينصح عباداً بالاستقامة وهجر الذّنب، بينما كنت أحادثها إذ بالثّعبان يدخل علينا ناكسا وجهه يحمل حقيبة، لقد جاء بتذكرة السّفر إلى الجحيم.

نظرت كثيرا إلى المرآة
ولم أستطع رؤية نفسي.

* كأنّها مجزرة *

في ذلك الصّباح لمّا ولجتُ إلى الحجرة الصّغيرة الموجودة في مكتب الدّكتور مختطف الأطفال فقدتُ كلّ معاني الهدوء، مذ ألفيت الأعضاء وقصعة الدّم خاب ظنّي في الحياة الرّائعة، فتح الدّكتور مختطف الأطفال باب مكتبه فألفاني جالسة على المتّكأ الخاص به أتممت إيقاف نزيف الجرح الذي حدث في تلك الحجرة قبل عودة الدّكتور، كدت أرى الموت وأنا داخل تلك الحجرة المتصارعة فيها أبشع صور الجثث والأعضاء البشرية، من الجيّد أنّني صادفت معدّات طبية وضمّادة أخفيت بها الجرح حتّى لا يكشف الدّم والتّجسّس الذي قمت به لمّا خرج المجرم من مكتبه، في ذلك اليوم فهمت معنى "الطفل في المستودع، ادفع أجر البائع، الطّفل بصحة جيدة وهو جاهز للعملية، كن حذرا" أمرني الدّكتور مختطف الأطفال بالبقاء في المصنع حتّى الليل، ولمّا جاء الظّلام ركبت سيارة مع سائق يعمل في المصنع أمره الدّكتور بتوصيلي إلى العاصمة، أخبرني أنّني سأشرع في العمل بعد أسبوع فقلت له أنّني سأقضي الأسبوع في منزل صديقة تسكن في ريف من أرياف العاصمة، غادرت المصنع جافّة الهدوء مرعوبة النّفس، وصلت إلى منزل رانيا ودخلته فألفيتها تساعد والدتها في تحضير العشاء، لم أتمكّن من الابتسام ولو كذبا، أحسست أنّ روحي بقيت هناك في ذلك المصنع مع هؤلاء الموتى في حجرة المجزرة، لمّا وضعت السيّدة فاطمة مائدة

الأكل البسيطة وجلسنا حولها رأيت قصعة الدّم موضوعة على المائدة بدل الأطباق، فقدت الشّهية وغادرت المائدة إلى الحجرة التي قضيت فيها الليلة الفائتة، نشر القمر نوره فأوت الكائنات إلى سباتها وكنت أرى النّجوم من النّافذة المفتوحة على سماء تلألأت جواهرها، لم تشأ رانيا النّائمة معي على السّرير الحديث في أي موضوع لأنّها أدركت أنّ صديقتها لم تعد مثلما كانت عليه في الثّانوية، شغّلت رانيا مصباحاً خافتاً موضوعاً على يمينها ثم تصفّحت كتابا، طلبت منها إنارة الحجرة بالمصباح الرّئيسي وتقرأ، وأنّ الضّوء لا يزعجني فقالت أنّها تحب القراءة على ضوء خافت، كان الليل يشير إلى أنّ الظّلام الذي أعيشه له دور في صنع أنوار محبوسة في قناديل زجاجية سوداء ولن تتحرّر تلك الأنوار إلّا إذا انكسر الزّجاج الأسود، شعرت أنّني أعيش في نقطة قدر صارمة يمكنها تغيير مصير الكرب الذي يعيشه بعض البريئين، إلا أنّني كنتُ كرة تُضرب بأقدام مجرمين يتمتّعون بروح الجريمة، إنّ ذلك الدّكتور يعني الجريمة العارية من أضعف عواطف البراءة الإنسانية، يهدم ويبني ما يشاء، لم أرد إزعاج رانيا التي كانت تتصّفح الكتاب تحت ضوءٍ خافت، وما شئت تصفّح الرّواية التي اشتريت قبل أيّام وقد كنت حينها في الجامعة، لم يمر أسبوع منذ جلوسي مع عاصف السّمين ورامي الوسيم الضّخم والطّالبتين الخائنتين، أيّام كأنّها قرون، كأنّها دهر صرف العذاب. أمسكت دفّتي الرّواية لأقرأ بعض الصّفحات ثم وضعتها بملل وسألت رانيا:

- هل العلم والتّكنولوجيا ينفعون النّاس؟

- من أين لك بهذا السّؤال؟ أكيد ينفعان!

- أرى أنّ العلم الذي يجعل الإنسان متمكّنا من سرقة أعضاء إنسان مثله هو أكبر جهل.

- هذا العلم هو نفسه الذي استطاع إنقاذ إنسان من الهلاك بأعضاء ميّت.

- هل العلوم الباعثة في حياة النّاس الجريمة والقتل تنفع؟

- من أين لك بهذه الأسئلة؟ هل أخفيت عنّي شيئاً؟

- لا...لا شيء، فقط خطرلي ذلك السّؤال لأنّني صرت لا أؤمن بالعلم، ولا حتّى بمصداقية النّاس.

- المشكلة ليست في العلوم وكيف استقبلها العالم بل في المجرم وكيف أنشأه المجتمع.

- هل يمكنك أن تأتيني برقم يوسف؟ اطلبيه من زوجك عامر؟

- أوه...! الآن تطلبينه وقد كنت من قبل مصرّة على عدم الحديث معه، هل تقبلين الزّواج منه؟

.لن أقبل، ذكّريني برتبة والده، لقد نسيتها!

.إذن تريدين الرّائد لا الملازم!

في تلك الليلة حقّا أدركت أنّني أعيش في نقطة قدرصارمة يمكنها تغييرمصير الكرب الذي يعيشه بعض البريئين، ولذلك قرّرت كسر حاجز الخوف، وقرّرت الإبلاغ عن الذي اكتشفته هناك في مكتب الدّكتور كأنّها المجزرة.

* فارقت الحياة *

جيء بتذكرةِ سفرٍ ما بعده عودةٌ حتّى البعث، في أوّل ليلة في الفندق، وقبل أن أرى لعنة الحزام، طرد الثّعبان الفتاة الجميلة الخفيفة الحركة.

- اخرجي من الفندق.

- لماذا سيّدي.

- لقد أصبحتِ بشعة ولا أريد أن أراك ليلة أخرى في الفندق.

- سيّدي! دعني أقضي الليلة هنا وفي الصّباح أغادر.

- خذي هذا المال واغربي، خذي! إنّها أجرتك مضاعفة عدّة أضعاف، أخرجي الآن، إذا نطقتِ بكلمة أخرى سأقتلك، استديري من غيرنبس وامضي إلى الجحيم، احذري من نطق كلمة أخرى، هيا اخرجي.

- لن أنطق بكلمة أخرى سيّدي ولن أخرج، فلن يكفي هذا المبلغ لتطبيب أمّي وأبي خارج البلد، حتّى ولو ضاعفته عشرة أضعاف.

أدخل الثّعبان يده في جيبه وأخرج خنجراً لوّح به باتّجاه خصر الفتاة فهرولت المسكينة هاربة، حين خرجت الفتاة أراني الثّعبان التّذكرة فلم أتمكّن من تحليل ما رأيت فسألته:

- ألم تقل للفتاة أنّها ستقضي الليلة في خدمتي إذا أردت أنا؟

- نعم...لا! لن تقضي الليلة هنا، إنّها تثرثر كثيراً، ولا أريد أي إزعاج هذه الليلة.

- أخرج واتني بها أيّها القذر.

- ماذا! أنا قذر! سأقتلك.

- لستَ إلّا جحشا يظنّ نفسه شيطان مارد، ولن تستطيع قتلي يا من يحسب نفسه أذكى، إنّك أغبى الأغبياء. اخرج وات بها وإلّا خرجت أنا دون رجعة.

- ألا تنتقم؟

- إذا لم تخرج الآن وتجلب الفتاة، وتسمح لها بالنّوم هنا حتّى الغد، فاعلم أنّني سأعفو عن الوزير، ولن أنتقم.

- سأجلبها، سأجلبها.

حين رجعت الفتاة مع الثّعبان رأيت وجنتيها الجميلتين الدّافئتين يدميان، ظننت أنّ الثّعبان اعتدى عليها ولكنّها قالت أنّها مشت قليلا خارجاً في شارع السّعادة فهاجمها شابّان فأنقذها الثّعبان منهما، جلبت الفتاة المسكينة علبة العلاج وعالجت نفسها بيدين تصطفقان، حمل الثّعبان التّذكرة وخرج فسألتُ الفتاة:

- ماذا كُتب على البطاقة؟

- إنّ مدير هذا الفندق قال لي أنّه إذا نزل بالفندق شابّ يحمل بطاقة كُتب عليها (ضرب من ضروب الجحيم) افعلي له كلّ ما يريده وإلّا طردتك، لماذا جئت أنت إلى هنا، ولماذا لا تقرأ ما كُتب عليها؟ وماذا يوجد في حقيبة نائب المدير؟ رأيت أنّه خائف من أن ألمسها! ما اسمك؟

في العادة تُحجز غرفة لكثير من النّزلاء، واليوم خالف العادة فحجز الدّكتور لك الفندق كلّه!

- دعينا من الثّرثرة وإلّا طردتك مثلما فعل نائب المدير قبل قليل، فتقضي الليلة معذّبة في شارع السّعادة.

استلقيت على الأرضية ونامت الفتاة على المضجع نظرتُ في سقف الغرفة فرأيتً حياةً كانت قبل ستّة سنوات فأزعجني السّقف، مدّ لي البؤس ظلّه فأظلمت الرّوح وهاجر العقل إلى زمن لن يعود، ومكان انتهيت عنه، ولم يبقى لي خاطراً في العودة إليه، قمت وأغلقت مصراعي النّافذة، أسدلت الظّلام ووسّدت غطاء من قطن، وافترشت الأرض، انتبهت أنّ الصّقيع يلوي عذابه على عنقي فجئت بغطاء آخر من القطن وتدثّرت به، وفجأة وقفت العجوز المتسوّلة أمامي، إنّها عجوز السقيفة وكان ظهرها غير محدودبٍ ووجهها جميلٌ ليس به تجاعيد، رأيتها تلفّ على رأسها خماراً قمرياً يشعّ نورُه الغرفة كلّها، كان وجهها واسعاً لطيفاً وعيناها سوداويتين يلمعان فرحاً مثل زوجة إذا زُفّت إلى حبيبها، نظرت العجوز في وجهي بنورها القمري ثم ابتسمت لي، وقبل أن تنهي الابتسامة صرخت في وجهي فرأيت أنّ وجهها صار أسوداً وعيونها تقطر دماً وخمارها يشنق عنقها وهي تمسك عنقي فاستيقظت من الكابوس مرعوباً هلِعاً، سمعت الرّيح تدمدم خارج الفندق فحملت الغطاءين القطنيين وخرجت من الفندق متّجهاً إلى سقيفة البؤس

أين تنام العجوز على جلفة البلاستيك والكرتون، حين بلغت شارع السّعادة جريت بهما نحو العجوز، قلت أن لا أغطّيها بهما بل أجلبها معي إلى الفندق الخاص بي، فراقت لي الفكرة والعطفة معا، رأيت من بعيد العمود الكهربائي المقابل لسقيفة البؤس فرأيت العجوز نائمة، ارتعش جسدي من البرد وأكملت الجري حتّى بلغت العجوز البكماء، ورفعتُ لها رأسها لأضع تحته وسادة فنطَقَت العجوز وتكلّمت. نطقت هي فجَزِعتُ أنا، فابتسمَت فهَلِعتُ، أشارت بوجهها إلى عمارة من عمارات شارع السّعادة وقالت "أخبره...قل له، أخبر ابني أنّني أحبّه، وأنّ قرار زوجته بالعيش بمفردها كان صائباً، قل له أن لا يبكي لأنّه أطاع زوجته وأخرجني من البيت، أخبره أنّني أحبّه"، لم أتأثّر بحديثها بل ضحكت، وضعت الوسادة تحت رأسها ودثّرتها بالقطن ثم سألتها:

- بماذا تشعرين الآن، هل شعرتِ بالدفء؟

لم تُجب العجوز بل اكتفت بالنّظر إلي مبتسمة ووجهها ينظر إلى السّماء، دثّرتها بالقطن الثّاني كي تدفأ ثم أخذتها معي إلى الفندق، سألتها إذا أعجبها الدّثار فاكتفت أيضاً بالنّظر إلى السّماء، سألتها فما أجابت مدّدت ساعدي لأعدل لها الوسادة ولمّا وضعت يدي على جبينها لم ترمش، لوّحت بيدي على وجه كأنّه يعكس نور القمر فما رأيت رمش العينين ولا حركة الخدّين، مسحت بيدي عينيها فما أغلقتهما، هززت رأسها وحرّكتها يمينا وشمالاً فما رأيت رمش عينيها. جلست قربها أكثر من نصف ساعة

أسألها فما كانت تجيب، وفجأة... لم أستحي وأشعلت سيجارة أمامها أزعجني بؤسها وقباحتها فأغمضت لها عينها ومشيت الهوينة، مررت قرب مقهى الرّحمة وكانت مغلقة مطعم الكرم أيضاً لم يكن مفتوحا، بعد دقائق كنت قد خرجت من شارع السّعادة ودخلت فندق الهناء، وكنت مدركاً أنّ العجوز قد فارقت الحياة في شارع السّعادة.

* زوجةٌ ثانيةٌ *

طلعت شمس ذلك اليوم الجديد بعد ليلة رفضت فيها قراءة أي صفحة وأرسلت خيوطاً يُرى في استقامتها غبار تلك الحجرة التي انتهت السيّدة فاطمة من كنسها لمّا كنت نائمة، ما شئت النّهوض إلى الحمّام وتجمدت أنظر إلى الطّبيعة عبر النّافذة المفتوحة، ازدان الرّيف بألوانٍ حيّة تُلهم النّفوس عشقاً وحبّاً للحياة فشرعت أفكاري في كسر قيود آدمية دامية صبغت خاطري بلون دم تلك الحجرة، تذكّرت الليلة الماضية لمّا طلبت من صديقتي رانيا رقم أبي يوسف الذي قالت أنّه يعمل في الشّرطة برتبة رائد، انجذبت إلى فكرة الإبلاغ عن تلك المشاهد هناك في ذلك المصنع وما رأيته فيه من قباحة، شعرت بالخوف وتردّدت، اتّكأت على مخدّة أسندتها إلى حائط الحجرة ونظرت إلى الخارج من النّافذة، عجلت الدقائق في المضي ثم دخلت السيّدة فاطمة بمائدة صغيرة وهي تبتسم:

- صباحك جميل يا ابنتي، هل نمتِ جيّداً؟

- صباح الخير يا خالة، نعم الحمد لله، أين رانيا؟

- جاء زوجها عامر باكراً وأخذها إلى أهل صديقه لتساعدهم، إنّ صديق عامر ذاهبٌ اليوم للخطبة، ستعود رانيا قبل منتصف النّهار.

- شكراً خالة.

غادرت السّرير مثقلة أشبه بحمّال ناء بثقلٍ عظيم ولما عدت إلى الحجرة وقد انتهيت من الحمّام ألفيت السيّدة فاطمة جالسة على الكنبة وهي

تقرأ في روايتي فقالت:

- إنّها رواية مؤلمة يا ابنتي.

احترت من العجوز التي قاربت سجنتها من الانتهاء وقد شاب شعرها وكانت تقرأ الرّواية.

- نعم، قليلاً.

- إنّها للأديب نجيب محفوظ، قرأتها قبل عدّة سنوات.

حرّكت شعرها الأبيض المنتفش ثم وضعت الرّواية بجانبها على الكنبة وسألتني:

- ألا تصلّين يا ابنتي؟

فاجأني سؤالها وغاص بأعماقي الخجل، خجلت أن أخبرها أنّني لا أعرف كيفية الصّلاة، وسبحت على وجهي علامات الحياء، في كل مرّة تسألني سؤالاً دينيا أشعر بالخجل.

- ليس لي وقت للصّلاة، وفي الجامعة لا يوجد مكان مخصّص لأدائها.

- ولكن ابنتي رانيا لمّا كانت تدرس في الجامعة وكانت تأخذ معها السجّادة وتصلّي هناك، وكانت تطلب من أبيها .رحمة الله عليه - أن يشتري لها الكتب الدينية فتنتفع بهم.

- أنا أيضاً أقرأ يا خالة، ولكنّني لا أقرأ كتب الدّين.

- استمعي لي جيّداً يا ابنتي، لقد علمت كلّ شيء عنك من ابنتي رانيا، لو استمسكت بحبل الله منذ البداية لن يحدث لك كلّ ما حدث، أنا

لا أعاتبك يا ابنتي، ولكن أن نقول الحقيقة يوماً يا ابنتي ونتوقّى، خير من أن نحيا خالدين ونحن كاذبون، فأنا أعلم صروف الدّهر إذا طافت بالمرأة ماذا تصنع بها، واعلمي يا ابنتي أنّني كنت قبل عشرة أعوام معلّمة، واليوم أنا متقاعدة، ربّما لم تخبركِ رانيا عنّي فها أنا أعرفك بنفسي، قد ترين يا ابنتي أنّ رأسي اشتعل شيبا، وترين هذه التّجاعيد القبيحة فتقولين ما بال هذه الطّاعنة التي اقتربت من الموت تتحدّث عن أمور لا تفقه فيها شيئا؟ وتقولين ما بالها تتكلّم في أمور لا تعني تجاعيد وجهها، عودي إلى الرّشد يا ابنتي، فإنّ النّاس اعتادوا على التّيه، فتوهّموا أنّ الصراط المستقيم أعوج.

- أصبتِ يا خالة.

في كلّ مرة تسألني السيّدة فاطمة سؤالاً دينيا أحاول تغيير موضوع الحديث إلى موضوع آخر فلا أجد منها سوى سؤالا مشابها فأجبت على جميع أسئلتها، ارتفعت الشّمس أكثر فضاق صدري ووددت الخروج للسّير قليلاً، فتحت الخزانة الخشبية البسيطة لألبس الفستان الأبيض فلم أجد إلّا القبّعة، لقد غسلته السيّدة فاطمة وألقته على خيط خارج البيت ليجفّ، أخبرتها أنّني أودّ السّير قليلا فجلبت لي حجابا داكنا فضفاضا لم أفكّر يوماً في لبسه، فتحت السيّدة الباب ونادت فتى كان يلعب مع الصّبية خارجا وطلبت منه مرافقتي لأتجوّل قليلا بين البيوت المخفية في جنّات أشجار التّين وبساتين العنب، كان بيتها عاليا ولكن

ليس له طابق ثانٍ لأنّه بيت قديم بني في عصر قديم مضى، به حجرتين وغرفة الضّيوف والمطبخ، وبينهما ردهة واسعة، ربّ منزل بسيط أوسع من وطن، كان ضيّقا لكنّه يحمل قلوبا أوسع من قصر تجول في ثناياه الخدم، تحجّبتُ وخرجت من منزل السيّدة وسار معي الفتى حتّى بلغنا بطحاءً تجانب تلك القرية الشّبيهة بالتي كنت أسكنها في السّابق، أرعدنا اضطراب السّماء بالبرق قبل أن تسحم. لم تبخل سماء ذلك اليوم القرية البسيطة من الماء وأرسلت غدقا فماج سبيل العودة فانغمر خفّ الفتى في الماء المائج فراق له القفز ليوحل ثيابه فتغيّر لونها مررت قرب شيخ طاعن يسير ببطء، وكان يلبس معطفا من الجلد ويحمل عصى ينش بها غنمه التي كانت تسير على الطّريق التّرابي الموحل، توقّف ذلك الشّيخ عن السّير وشرع يرى إلي بتعجّب، وقد كنت اقفز مثل الفتى ضاحكة وأطراف الحجاب مثقلة بالماء والوحل وهي تقفز خلفي، عدت إلى بيت السّيّدة ضاحكة وكأن الحزن منّي قد خوى، دخلت إلى تلك الحجرة وغيّرت الجلباب ولبست الفستان والقبّعة، بينما كنت جالسة أتصفّح الرّواية إذ بالفتى يدخل ويخبر السيّدة فاطمة أنّ الضّيوف قد وصلوا، وقفت السّيّدة عند باب المطبخ ونظرت إلي مبتسمة، ولمّا طُرق الباب طلبت منّي فتحه، ارتفع قرع الباب فسمعت صوت رانيا، كانت السيّدة فاطمة تقف في الرّواق الشّبه المظلم وتبتسم، فتحت لهن الباب فرأيتهن مبلّلين كأنّهن خرجن من وادٍ جارٍ، كن نسوة إحداهن تحمل علبة حلوى

مزيّنة بشريط فاتن، رحّبت بهن السيّدة فاطمة و الفرحة تغمرهن ثم أدخلتهن وأجلستهن على الأرائك في غرفة الضّيوف، نادتني السيّدة فاطمة فخرجت من الحجرة التي كنت فيها ودخلت عليهن، فضحكن جميعهن وسمعت إحداهن قالت "أين صينية القهوة، أليس عيبا أن تدخل علينا من غيرحلوى؟" ثم قالت أخرى ضاحكة وكان وجهها منيراً لطيفاً ذات بشرة بيضاء وشفتين جميلتين وقد كانت تلبس جلباباً "ألم تكتفين بهذه القطعة الجميلة؟" لمّا جلست معهن مبتسمة والقلق يعمر فؤادي، قالت لي تلك الجميلة المجلببة أنا أطلب يدك يا عفاف لابني يوسف، فهل تقبلين أن تكوني له زوجة ثانية؟

* روح مقابل ثلاثة أرواح *

بين بؤس مصيبة قضاء العجوز وشقاء الفتاة النّائمة على مضجع غرفتي قضيت الليلة والشّوق يعصف الآناء وينتظر إشراقة الضّياء المنبعث من شمس طالما رحمت جسدي وجسد العجوز الرّاحلة، أيّ رحلة؟ رحلة فوق صقيع الكرتون والبلاستيك في شارع السّعادة وبلد الرّحمة، استغرقت الفتاة في النّوم على المضجع وأنا أشاهد الماضي والحاضر في شاشة السّقف المخيف، أمضيت الليلة خائفاً من أن أنام، ليس من النّوم ذاته بل مما يحمله النّوم من كوابيس وفواجع فاجعات سكنت حياتي سواءً أكنت نائماً أو مستيقظاً. بعض البشر يفرّون من الواقع المرّ والصّحوة إلى النّوم فيلقون راحتهم، والبعض في كلا العالمين يرون جحيم البؤس، تتجلّى صورتها وهي تلج الغرفة الجميلة حاملةً العشاء فأشتهي لمذاق رؤيتها، تتجلّى الحورية البشرية لدى النّافذة وهي ترتدي خمارها وتبتسم ثم تتحوّل إلى شيطانة تفزع روحي فأستيقظ من الكابوس هلِعاً، أرى القرية وأرى يوم الرّحيل حين أخرج الوزير باديس من سيارته وثائقه القانونية وأعطاها للأخت الغائبة ساخراً متغطرساً بقبّعته وغليونه قائلاً: يوم الأربعاء وجب علينا أن نخرج من أرضه، أتذكّره وهو يجرّ أمّي من قدمها فأشتاق إلى يوم الأربعاء لأخرجه من الحياة وتُجرّ أشلاءه بالقرب منّ، ثم أتذكّر أنّه ليس بإمكاني رؤيته لأنّني سأتحوّل إلى أشلاءٍ قبله، فأحزن لعدم تمكّني من رؤيته، كأنّ الليل

كان يصفّد الظّلام غير راض على أن تطلع الشّمس، صارعت أجفاني أجفان الليل فأبت أجفان الليل أن ترتفع وأبت أجفاني أن تنسدل، وفي كلّ مرّة أغمض فيها عيني ابتغاء النّوم أراها وهي تبتسم بوجهها البريء وتسألني إذا كنت أحب النّجوم، وإذا كنت سأعود باكراً لأذهب معها إلى المستشفى لزيارة أبيها، يا ترى! هل تغيّر حسنها حين جاءها خبر موت أبيها العم عيسى؟ وماذا لو غادرت أمّها المريضة بالسّرطان ولحقت بزوجها بعد أيّام قليلة؟ أرى حياتها المنعزلة وأنا أصارع الحلكة، ثم تجلب لي الذّاكرة صورة أمّي يوم خرجت إلى الشّارع مجنونة من غير ثياب فأشتاق إلى الأربعاء الآتي بمجرّد غروب إشراقة واحدة، نهار واحد بقي من العمر وكنت أراه طويلاً يشبه الخلود، انكسر الدّاخل فما أغنى عنه الخارج ولا العالم بما يحمله، خضع العقل ورضى أن يتيه بين التذكّر والفقدان، وتذلّل القلب وتمرّد على ربّه وقد ملأه الحقد والعصيان، وطافت الأشباح على الجسد وما فتئت تمزج العدل بالطّغيان، فما أنا بالمنتهي عن تذكّر الماضي، وما أنا بالآمل في المستقبل، وبين الظلم والعدل رأيت التقديس في هيئة كاهن يبحث عن كتابه بين أشلاء الموتى.

طال الليل وامتد صرحه، وغابت الحياة عن الجسد وغاب عقله، في العالم الأبعد والشّبيه بالعالم الأثير سمعت الباب يُطرق وسمعت صوتها، كنت بين الأرض والغمام، اخترق الأجواء بجناحي صقر وأسبح

في الفضاء فرحاً، نزلت نزلة العصفور الحزين وفتحت الباب فرأيت الحورية البشرية وكلّ ما وراءها جنّة فحملتها بين ذراعي وارتفعنا إلى السّماء مسرورين مبتسمين والحبّ يعصف سماء الوجوم، فغشى الإحساس الجميل قبح الأرواح وعانق البهاء رونق الحياة، وأطرب الحُبّ قلبين كأنّهما يعيشان الأبدية. وحين نزلنا إلى الأرض، استفقت من نوم رائع تمنّيت أن أعيشه دوما، كأنّ النّوم خالف طبيعته وما جاء بكابوس جديد، وارتضى لي السّعادة في عالم الموتى وهم أحياء، أسندت ظهري إلى الجدار فتذكّرت أنّ العجوز ماتت الليلة فجاءني حزن سقيفة البؤس، فتحت النّافذة فاخترق ضوؤها ظلمة الغرفة، وحين استدرت فاجأتني الموظّفة المستيقظة وكأنّها كانت هاربة من جحافل السّكون، أردت أن أقضي آخر نهارٍ من عمري تحت الصّخرة السّوداء أتأمل، فحملت كلّ النّقود ثم أعطيت البعض للفتاة المذعورة، فتحت الباب وسرت خطوتين أو ثلاث في الرواق فلامس عنقي شيء باردٌ فتحسست ثم استدرت، فاجئني! إنّه مسدّس الأفعى مدير المصنع، ضارب الخطّ لقتل الوزير، وضع فوهة مسدّسه أسفل العنق ثم قال:

.عد إلى الدّاخل، لن تخرج من الفندق اليوم.

غضبت فكدت أن أصفعه، وحين رأيت أنّه أكبر منّي سنّاً، وأنّ له بعض الشّيب على رأسه أنزلت فوهة المسدّس بظهر الكفّ عن كتفي غير عابئ به وأكملت السّير، ولدى الباب سمعته قال:

- اسمع أيّها الخبيث! إذا نزلت درجة واحدة عن أدراج البوابة سأقتلهما معا، سأقتل الفتاة الجميلة صفاء، ثم أفعل ما لا تودّ رؤيته بالفاتنة الأوروبية عفاف، وأيضا اعلم أنّ أباك لم يمت، ولكن إذا نزلت درجة واحدة لن يعيش يوماً آخر.

ضرب الدّهر بكلماته سطح الفؤاد فانحنى القلب لسخرية القدر راكعاً خاشعا خاضعا، تقهقرت أقدامي وذلّت للأقدار السّاخرة، ورجعت إلى الغرفة أمشي الهوينى حتّى بلغت الغرفة، فأذهلني الثّعبان الملتوي على ضحيته الباكية والدّماء تسيل من وجنتيها جرّاء اعتداء الليلة الماضية، بيد أنّ علاج الأمس لم يغني عن براءتها شيئا، قام الثّعبان مبتسماً بوجهه المظلم وعيونه المخيفة وانزلق داخل لحائه المسموم ودنى من الباب خارجا، من أيّ باب دخل؟ وكيف تسرب إلى الغرفة؟ كأنّه يغدو مع الهواء ويجيء مع أشباح الخفاء، استترت العصفورة بريشها وخرجت هاربة وانتهت إلى شارع السّعادة تبحث عن قوتٍ آخر، استلقيت على الأرض فأعطاني الأفعى زجاجة خمر وقد رجع زاحفاً وجلس على السّرير قربه الثّعبان فسألت هذا الأخير:

- هل تأكدت أنّك شيطان مارد وأنّك الأذكى؟

- لا يهم من أكون، الشيء المهم هو أنّني لا أسأل كثيراً، وقد كنتُ جزءً من خطّة خطّها سيّدي ويعجبني هذا، وأنت! هل فرحت لأنّ أباك لا يزال حيّا؟

- لا يهمّني عيشه أو موته، لقد مات قبل ستّة سنوات.

نظر الأفعى إلى الثّعبان ثم أمره بأن يجلب لي زجاجة فزحف الثّعبان خارجاً وجاء بها طائعا، تجرّعت قليلاً من السّم ثم سألني الأفعى:

- هل أنت جاهز للغد؟

- أين؟ وكيف؟

- سيلقي غدا الوزير خطابه في قاعة خاصّة، لا تخف يا عثمان، إنّها ضغطة واحدة وتنتقم، كيف حال مراحل الحقد؟ هل ما زالت تغلي؟

- أريد أن أفرغها عليك، كيف أدخل إلى القاعة؟

- هذا شيء لا تسأل عنه كثيراً، ستدخل بيسر، احذر من أن تسألك الصّحافة وتتحدّث معهم! هل فهمت؟

حين سمعت كلامه تذكّرتها، وقفت الحورية البشرية أمام ذاكرتي مثل قمر ظهر في ظلمة الليل، وأبلج من وراء السّحب الدّاكنة فأنار أرض العاشقين، تذكّرتها يوم قالت لي: "لقد نجحت في مسابقة إعلامية ووافقت إحدى القنوات التلفزيونية على أن أتعاقد معها" وتذكّرت أباها العم عيسى الميّت حين أوصاني: "اسمع يا عثمان، سأقول لك شيئاً ولا تُخبِر به ابنتي صفاء، إنّ أمّ ابنتي مريضة بالسّرطان، وهو في مرحلة متطوّرة إذا جاء الموت وأخذ أمّها، أو جاء وأخذني أنا إلى الرّفيق الأعلى، اهتم بصفاء، قد يسوء دهر الفتاة من غير أمّ وأب، فاهتم بها يا عثمان ، إنّها لا تعرف الشّرع والدّين جيداً، فتعلّم وعلّمها، إنّني أخطأت وتركتها

تكبر عند أقاربٍ لا يفقهون سوى في القصور والفخامة، إذا حدث لي شيء أو لأمّها اعتني بها يا عثمان، وسأورّثك بعض ما رزقني الله، وإذا أرادت صفاء أن تتزوّجك فأنا موافق، فقط كن عوناً لها كي لا تزلّ بين هؤلاء القوم، فيك الخير يا عثمان، فيك الخير"

أرغمني الأفعى على أن أبقى داخل الغرفة حتّى الغد وأن لا أفكّر في الرّجوع عن السّر إذا كنت أريد أن يبقى هؤلاء الثّلاث أحياء، صفاء، عفاف، وأبي، مضت السّاعات وتدافع اليوم وأنا أصارع المصير قبل حدوثه وأرى الغباء حين نزوله، وأي ضحية كنت؟ وأي بطل سأكونه؟ وأين أنا من البطولة؟

بالأمس رأيت نفسي بطلاً يسير للقضاء على الشّر واليوم أنا ضحية بين براثنه، وكنت أرى أنّ الانتقام هو الصّراط السّوي إلى صنع العدالة، والآن اتّضح أنّ انتقامي ليس إلّا سلاح حمله المجرمون ليصنعوا مصالحهم، وليسلبوا مفاتيح الكنوز من بعضهم بعض وأنا البريء الضّعيف صرت مرغماً على السّفر إلى الجحيم ليعيش هؤلاء في جنّات الأرض فرحين، مالت الشّمس إلى مغربها وجاءت آخر الليالي فسألت الليل: أين المخرج من التّيه؟ أين أنا في هذا الكون؟ وأين سأكون غدا؟ ولم تُجبني الليلة البكماء فشعرت أنّني مشتاق لأبي، ورضيت بأنّ أكون روحاً مقابل ثلاثة أرواح.

* الحلم *

في تلك الصّبيحة التي عجزت فيها عن النّطق و أحسست أنّ جسدي مومياء عادت إليها الحياة، وأنّ تلك الصّبيحة مجرّد مفاجأة جميلة صنعتها الأقدار في زمن لم أكن أنتظر فيه شيء مفاجئ ومفرح، إلا أنّني كسرت جمود المفاجأة وقلت للنّسوة الجالسات: "لا أود الزّواج ولا أودّ أن أكون زوجة ثانية، ولا حتّى أولى"، كانت النّساء تنظرن إلي بخيبتهن، وكانت قساوتهن تظهر في نظرتهن الخائبة، إنّ ذلك العقل الشّبيه بفصل الخريف قد نثر الرّيح كلّ أوراقه، وأشرقت شمسه غير مبالية بردّهن، فاعتذرت منهن وعدت إلى الحجرة وانفردت أتجرّع أحاسيس الحبّ الذي منع عنّي الفقدانُ النيّئ لذّته، وأيّ ربيع أجمل من وجه أمّ يوسف لمّا تبعتني إلى الحجرة فألفتني أبكي وقالت: "أعلم كلّ ما حصل لك يا بنيتي عفاف، وأعلم من صديقتك رانيا كلّ شيء ولو لم يكن الخطأ موجود لما كانت المغفرة، وكذلك الحياة بين الزلّة والاستقامة، وبين الألم والسّعادة، وبين الليل والنّهار، والحياة والموت، وهذه هي الحياة التي تتطلّب منّا أن نعيش صامدين محاولين العيش صالحين، ولا أرى يا ابنتي أنّ الذّنب يزن ذرّة في كفّة الاستغفار، واعلمي أنّ الشّرّ يمحيه الخير، واتبعي السيّئةَ الحسنةً تُمحيها، وافقي على الزّواج من يوسف يا ابنتي، وأنا موافقة على زواجكما، وعلى أن تعيشا هانئين، ولا تخبريه بالماضي الذي عشتيه، ولا بالذّنب الذي فعلتيه، فكّري قليلا يا ابنتي،

إنّني جالسة مع خالاته وعمّاته في غرفة الضّيوف، أرجو أن لا تردّينه خائبا يا ابنتي، وحتّى إذا لم توافقي يا ابنتي فرجائي منك أن تقبلي هذه الهدية"، أهدتني أمّ يوسف جلباباً مثل الذي كانت تلبسه رانيا، ثم خرجت من الحجرة ودخلت رانيا تسأل مندهشة:

- لماذا رفضت الطّلب؟ ألم تحبّينه ذات يوم؟

- أنتِ تعلمين ما حدث، ولا أريد خيانته، لم أنتحر ذلك اليوم، فكيف لي أن أقتل نفسي اليوم بخيانة يوسف؟

- هذه ليست خيانة، فقط حاولي الإصلاح ولا تفضي إليه بما حدث، قلت لك سابقا أنّ الله إذا سترعبداً، ليس من الحكمة أن يفضح العبدُ نفسه، وهذه ليست دعوة لتبرئة الخيانة من الذّنب، بل هي دعوة للإصلاح والتّوبة.

- أريد رقم أبيه.

- ماذا؟ رقم أبيه! أسكتي قبل أن تسمع والدته هذا؟ يا لك من مجنونة!

تذكّرت أنّني ما قصصت على رانيا قصّة ما ألفيته في حجرة مكتب مدير المصنع، ولذلك ارتبكت لمّا طلبت منها رقم أبي يوسف، فتظاهرتُ بالمزاح وأخبرتها أنّني موافقة على الزّواج من ذلك الشّاب الذي طالما فتن الفؤاد بعينيه الجميلتين، فكّرت بالتّبليغ عن المصنع لأبي يوسف ولكنّني عدلت عن ذلك، وقرّرت فعل ذلك في مركز الشّرطة، ولم تشرق

الإشراقة الأولى بعد خطبتي حتّى دخلت مركز الشّركة وبلّغت عن المصنع الذي يديره الدّكتور مختطف الأطفال والذي يعمل تحت أمر العم باديس، وفي تلك الصّبيحة أغلق المصنع وعوقب المعتدون، لم تمض علي إلّا أيّام في بيت صديقتي رانيا حتّى قمت بتحويل الملف من جامعة الولاية الجديدة إلى العاصمة، وسمعت أنّ الدّكتور مختطف الأطفال سُجن، ولمّا عدت إلى تلك الجامعة بعد غياب لأيّام قليلة عبرت مثل العمر الذي يمضي بأناة فاجئني خبر سجن الطّالبين عاصف السّمين ورامي الضّخم الوسيم والطّالبتين سارة ونسرين لأنّ الشّرطة كشفت أنّهم دفعوا الطّالبة جبلية إلى الانتحار. لم تدم المدّة طويلاً بعد زواجي فرجعت إلى الجامعة مجلببة آملة في تحقيق ذلك الحلم.

تجهّم الزّمنُ واضطربت آياته داخل القاعةِ المكفهرّة والمعاكسة للجحيمِ الهادئ المبجّل بومضة من الجنّة المرئية الحسناء، فلا أنا الدّاري كيف دخلت القاعة! ولا أنا الذّاكر لليل الفجر القريب، ولا أنا الشّارب من رحمة البشر الصّالحين، وما أنا بالصّالح الخاشع لربّه، وبين التأوّه والتّنهيدات الأعمق، كنتُ أعانق الحزام النّاسف الذي أحببته حُبّاً جمّا فأذعنت له الرّوح الشّقية التّائهة بين الحبّ والكره، والحقد والعفو، وهناك في ذلك البرزخ العجيب! أبصرت تلك الحورية البشرية الصّفية صفاء، وأبصرت أحزان شارع السّعادة أين جاء الموتُ العجوزَ الجائعة المحدودبة الظّهر وهي قبالة مطعم الكرم، وتذكّرت ذلك الفتى الذي

قُتِل وبيعت أعضاءه في شارع السّعادة، وقد كنّا نذهب معاً لنشاهد المسرح في شاشة مقهى الرّحمة فنُطرَد، ونُخرَج مثل الشّيطان إذ تُتلى عليه الآيات فيندحر مذؤوما مدحورا، أوه يا للسّفاهة، فما كنت الرّائي صِراط الخروج من ذلك الجحيم وما كنتُ الآمل في الجنّة، وبين الأوهام الخائرة الوضوحِ والحقائق السّاخرة، جاءتني أشباح الزّمن الأليم القذر فرأيت الأقدار المقدّسة تتجلّى في هيئة الكاهن الذي أقسم على أنّ الحياة ستكون أكثر تقديساً للحزن في شارع السّعادة، وأيّ حظّ هذا الذي أتى بالحورية البشرية إلى القاعة؟ وأي رحمة جاءت بها؟ جاءت وانتشلت الرّوح والجسد من الغرق في ظلمة العالم الآخر وعادت بهما إلى نور الحياة، جذبتهم من الجحيم المغلوب بالبؤس وصرخات الأحياء الذين يعيشون حياة الموتى، كانت مثل التّعويذة للرّوح الملعونة وكنتُ مثل اللّعنة الطّائفة بالبحر فانحدرت به إلى الصّحاري المقفّرة لتنبت به الحبّ الشّقي، فلم تنبت به إلّا الشّر، وقربت على أن تنبت مزارع البؤس وتجعل البشر الجالسين داخل القاعة أشلاء والآخرين صرعى، أويلي لتلك الومضة، أويلي للحورية البشرية أويلي ويلي للومضة الحاملة للآلة، وتلتقط صور الوزير الذي وقف له الجمع حين دخل القاعة وصفّق له الكلُّ، وكلَّت في انتظاره الكلاكل فقلقل القلب البائس حقده، أويلي حين رأتني وابتسمت بشفاه رقيقة فاتّسمت بالملائكية، فتسمّمت بالحب والحسن، وكنت أكِنّ الهيام وتائها فيه، أويلي ويلي! كانت صفاء

نوراً في زجاجة نشرت سعادة على حياة بائس وطردت اللعنة إلى القلعة الوحشية المظلمة، كأنّها تتحدّى النّجوم في خلق اللّمع وبريق السّماء الواسع في ليلٍ بدرُه كاملُ، برقت عيناها فأرسلت صفاءَ الحب ونقاء الفؤاد، وفي حسنها أنا التّائه الهاملُ، جارت بالودّ الأبيض على ظلمة القلب من أقصى إلى أدنى، فماج القلب وهاج في الهيام الأقصى. أوه... يا للحياة البائسة، وللعشق الضّاري المستوحش إذا لانت أطرافه، كانت القاعة غائرةً في الهدوءِ والخشوعِ والخنوعِ، خاضعةً طائعةً للنّسمات الباردة وكان الوزير يلقي خطبته مثل الورِعِ الخاشع، وقد هانت عليه قبل ذلك معصية الرّب في الفقراء، وقد لانت عليه الحروف إذ يتوعّد ثم يحنث ناسياً الوعيد، أويلي ويلي، رأيتها تحمل الآلة وتصوّره هادئةً، فتذكّرت أنّ أبيها قضى الموت عليه قبل يومين وأمّها الواهنة بالسّرطان تغدو نحوه وأناملي تعانق زرّ اللّعنة، فهل أنا بلاحق السّابقين؟، كان يلقي خطبته جاذبة المسامع، فأين كان هؤلاء السّامعين حين كنت أصرخ صراخ الهدوء تحت سقيفة البؤس وأصقع؟ هل آخذ هؤلاء الجالسين كلّهم إلى الجحيم؟ كانت التّذكرة تكفينا، أيّ تذكرة؟ كنت مثل المجرم القاتل الباحث عن العدل في نحر الآخرين وكالصّالح المفتري على البشر أنّ الهناء يُأتى بالشّقاء. وكالأعمى الآمل في رجعة البصر ليرى الجنّة الخضراء وحين رجع بصره صادف نفسه في قحل البيد والصّحراء، كأنّني كنت الجافّ روحه والعاقّ قلبه فكنت أرى أنّ العدالة تعني الانتقام والقوّة،

وأنّ ما أحمله هو الآلهة العادلة، وحين رأيت صبياً يبتسم وكان يحاذيني ورأيت الحورية البشرية تبتسم بألم والنّاس الأبرياء، أدركت أنّني أحمل تحت معطفي الآلهة الخرقاء، طاف الزّمن وانتهت أيّامٌ فحلى العيش مع الحورية البشرية، وشاءت الأقدار أن تنير بالحبّ حياة الشّقاء، ومضت الأعوام وكنت قاعداً في حديقة شارع السّعادة مع الحورية البشرية، والابن يلهو مع قطّ مثلما كان يفعل أبوه ذات يوم، إذ بصبيٍ يجيء من الخلف ويقذفني بحجارة، فاستدرت وابتسمت له:

- لماذا ترميني بالحجارة؟

- والدتي طلبت منّي أن أفعل.

- ما اسمك؟ ابن من أنت؟

- اسمي سالم ابن يوسف، انظر...أمّي آتية إليك مع جدّي.

- أين؟

- هناك، إنّها والدتي وأستاذتي في نفس الوقت، وذلك جدّي.

بلال سرير الحيرتسي

الفهرس

الإهـــــداء ٠٧
على شاطئ البحر ١٥
القمح والسّم ٣٥
بداية عاشقة ٥٦
عاش شقياً ومات جائعاً ٦١
خانها الحبّ فانتحرت ٧٠
الخراب الأسود ٧٩
الحب الجميل والفراق ٩٠
الفاجعة الكبرى ١٠٨
وصلنا ١٣١
الانفلات من الزّمن ١٤٢
إيقاف نبضات القلب ١٥٥
بحر يتبخّر إلى الفضاء ١٦١
انكسر الكأس ١٧٠
المصنع ٢٠١
روح مُقابل روحين ٢١٤
قصعة دم ٢٢٥
تذكرة السّفر إلى الجحيم ٢٣٠
كأنّها مجزرة ٢٣٥
فارقت الحياة ٢٣٨
زوجة ثانية ٢٤٣
روح مقابل ثلاثة أرواح ٢٤٨
الحلم ٢٥٤